بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القـــرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : عبدالله بن محمد بن رميان الرميان كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة ....

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه .... في تخصص : عقيدة ....

عنوان الأطروحة : ((مسائل العقيدة في كتابي المعلم للمازري والمفهم للقرطبي في شرحيهما لصحيح مسلم دراسة وتخريج ...)) .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٦/٢/١٤٢١هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : أ.د. علي بن نفيع العلياني	الاسم : أ.د. أحمد بن عبدالرحيم السايح	الاسم : د. سعود بن محمد الصقري
التوقيع : [توقيع]	التوقيع : [توقيع]	التوقيع : [توقيع]

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم : د. عبدالله بن محمد القرني

التوقيع : [توقيع]

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المبحث الثاني
منهجهما في صفات الله تعالى

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: **منهج السلف في الصفات**

المطلب الثاني: **منهجهما في الصفات وموقفهما من ظواهر النصوص**

المطلب الثالث: **الشبهات العقلية التي ردوا بها الصفات**

المطلب الرابع: **رمي السلف بالتشبيه والتجسيم**

المطلب الخامس: **منهجهما في سائر صفات الله تعالى**

المطلب الأول : منهج السلف في الصفات :

إن منهج السلف في صفات الله تعالى وسطٌ بين المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومن سلك مسلكهم، وبين الأشاعرة وغيرهم من الذين يلحدون في ذلك ويعطلون حقائق ما وصف الله به نفسه عز وجل وبين الممثلة من غلاة الكرامية وغلاة الرافضة الذين يضربون لله عز وجل الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات.

وكلا المذهبين مجانب للحق والصواب، والمذهب الصحيح ما عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، ومن اقتدى بهم، إذ هو الصراط المستقيم، فهم يؤمنون بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسول الله ﷺ من صفات الجلال والكمال حقيقة على الوجه الذي يليق به تعالى، وينفون عنه ما نفاه سبحانه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من صفات النقص التي لا تليق به سبحانه، وعمدتهم في هذا: الأدلة الواردة في الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[(١)].

قال محمد بن الحسن[(٢)]: «اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئًا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ، وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا، ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا»[(٣)].

وقال ابن خزيمة[(٤)]: «نحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة

---

(١) سورة الشورى، آية: ١١.

(٢) محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني فقيه العراق وصاحب أبي حنيفة وقد أخذ عنه الشافعي كان من الفقهاء الأذكياء توفي بالري سنة(١٨٩هـ). تاريخ بغداد (٢/ ١٧٢)، سير أعلام النبلاء (٩/ ١٣٤).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي(٣/ ٤٨٠).

(٤) أبوبكر محمد بن إسحاق بن خزيمة إمام الأئمة الحافظ صاحب الصحيح وله كتاب «التوحيد» وغيرها من علماء السنة المنافحين عنها توفي سنة(٣١١هـ) سير أعلام النبلاء=

واليمن والعراق والشام ومصر مذهبنا: أنا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا ونصدق ذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين عزَّ ربنا عن أن يشبه المخلوقين وجلَّ ربنا عن مقالة المعطلين، وعزَّ أن يكون عدمًا كما قاله المبطلون؛ لأن ما لا صفة له عدم، تعالى الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا الذي وصف بها نفسه في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه محمد ﷺ»[(١)].

وقال الصابوني: «أصحاب الحديث يعرفون ربهم عز وجل بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله أو شهد بها رسوله ﷺ على ما وردت به الأخبار الصحاح ونقلته العدول الثقات عنه ويثبتون لله عز وجل ما أثبته لنفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولا يعتقدون تشبيهًا لصفاته بصفات خلقه، وقد أعاذ الله أهل السنة من التحريف والتكييف، ومنَّ عليهم بالتعريف والتفهيم، حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه، واتبعوا قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[(٢)]»[(٣)].

وقال ابن عبدالبر: «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة، لا على المجاز، إلاَّ أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك، ولا يُحدُّون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج، فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئًا منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مُشبِّه، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهم أئمة الجماعة والحمد لله»[(٤)].

= (١٤/ ٣٦٥)، طبقات الحفاظ للسيوطي ص(٣٣٠) ترجمة(٧١٠).

(١) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٦).

(٢) سورة الشورى، آية: ١١.

(٣) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص(١٦٠، ١٦٢) باختصار.

(٤) التمهيد (٧/ ١٤٥).

وقال أبوالقاسم قوَّام السُّنَّة[١]: «قال علماء السلف: جاءت الأخبار عن النبي ﷺ متواترة في صفات الله تعالى، موافقة لكتاب الله تعالى، نقلها السلف على سبيل الإثبات والمعرفة، والإيمان به والتسليم، وترك التمثيل والتكييف، وأنه عزَّ وجل أزلي بصفاته وأسمائه، التي وصف بها نفسه، أو وصفه الرسول ﷺ بها، فمن جحد صفة من صفاته بعد الثبوت، كان بذلك جاحدًا... والله تعالى امتدح نفسه بصفاته ودعا عباده إلى مدحه بذلك، وصدق به المصطفى ﷺ وبيَّن مراد الله فيما أظهر لعباده من ذكر نفسه وأسمائه وصفاته، وكان ذلك مفهومًا عند العرب غير محتاج إلى تأويله»[٢].

وقال ابن قدامة: «ومذهب السلف ـ رحمة الله عليهم ـ الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بها نفسه في آياته وتنزيله أو على لسان رسوله من غير زيادة عليها، ولا نقص منها، ولا تجاوز لها، ولا تفسير لها، ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه بصفات المخلوقين، ولا سمات المحدثين، بل أمروها كما جاءت وردوا علمها إلى قائلها[٣] ومعناها إلى المتكلم بها»[٤].

وقال ابن تيمية: «الأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسله نفياً وإثباتًا، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا

---

(١) إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي الأصبهاني الملقب «قوام السنة» مكثر من التصنيف إذ له العديد من التصانيف النافعة في التفسير والحديث، والتوحيد، وغيرها توفي سنة(٥٣٥هـ) طبقات المفسرين للسيوطي ص(٣٧). طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢/ ٣٠٢).

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٨٣، ١٨٤).

(٣) أي: علم كيفيتها.

(٤) ذم التأويل لابن قدامة ص(١١).

ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾(٢) الآية، فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتًا بلا تشبيه وتنزيهًا بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾(٣) ففي قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ ردٌّ للتشبيه والتمثيل، وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ ردٌّ للإلحاد والتعطيل»(٤).

وقال ابن رجب: «أما طريقة أئمة أهل الحديث وسلف الأمة فهي إقرار النصوص، وإمرارها كما جاءت، ونفي الكيفية عنها، والتمثيل... ومن قال: الظاهر منها غير مراد، قيل له: الظاهر ظاهران، ظاهر يليق بالمخلوقين، ويختص بهم، فهو غير مراد، وظاهر يليق بذي الجلال والإكرام، فهو مراد، ونفيه تعطيل... وأهل العلم والإيمان يعلمون أن ذلك كله متلقى مما جاء به الرسول ﷺ، وأن ما جاء به من ذلك عن ربه فهو الحق الذي لا مزيد عليه، ولا عدول عنه، وأنه لا سبيل إلى تلقي الهدى إلاَّ منه، وأنه ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ الصحيحة ما ظاهره كفر أو تشبيه أو مستحيل، بل كل ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ فإنه حق وصدق، يجب اعتقاد ثبوته مع نفي التمثيل عنه، فكما أن الله ليس كمثله شيء في ذاته، فكذلك في صفاته»(٥).

والنصوص عن السلف في هذا كثيرة متواترة لا مجال لجمعها، وإنما ذكرت إشارات وإلماحات لما عليه السلف من الاعتقاد في الصفات.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٨٠.
(٢) سورة فصلت، آية: ٤٠.
(٣) سورة الشورى، آية: ١١.
(٤) التدمرية ص(٦، ٨).
(٥) فتح الباري لابن رجب(٧/ ٢٣٣، ٢٣٤).

المطلب الثاني : منهجهما في الصفات وموقفهما من ظواهر النصوص :

القرطبي والمازري ـ عفا الله عنهما ـ على منهج الأشاعرة في صفات الله تعالى، وهو إثبات الصفات السبع، وهي: الحياة والعلم، والقدرة، والكلام، والسمع والبصر، والإرادة على مخالفة لأهل السنة في إثباتها. وتأويل باقي الصفات أو تفويض العلم بها.

وللقرطبي كلامٌ جميل عند ردَّه على المتكلمين ليته التزم به حيث قال: «بحث المتكلمون عن كيفية تعلقات صفات الله تعالى وتقديرها واتخاذها في أنفسها، وأنها هي الذات أو غيرها إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمر الشرع بالبحث عنها، وسكت أصحاب النبي ﷺ، ومن سلك سبيلهم عن الخوض فيها لعلمهم بأنها بحث عن كيفية ما لا تعلم كيفيته، فإن العقول لها حد تقف عنده وهو العجز عن التكييف لا يتعداه، ولا فرق بين البحث في كيفية الذات وكيفية الصفات، ولذلك قال العليم الخبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[١] ونقطع بوجود الخالق المنزه عن صفات المخلوقات المقدس عن أحوالها الموصوف بصفات الكمال اللائق به، ثم مهما أخبرنا الصادقون عنه بشيء من أوصافه وأسمائه قبلناه واعتقدناه وما لم يتعرضوا له سكتنا عنه، وتركنا الخوض فيه هذه طريقة السلف وما سواه مهاوٍ وتلف»[٢].

وهذا منهج سلفي صرف، لكنه ـ رحمه الله ـ عند التطبيق سلك مسلك المؤولين، وسار على طريقة المتكلمين مخالفًا ما جاء عن السلف وما عليه الأثبات من الخلف.

والقرطبي والمازري رحمهما الله منهجهما في الصفات بين التأويل والتفويض، مع رمي السلف بالتشبيه والتجسيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

التأويل: التأويل هو: صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر[٣].

---

(١) سورة الشورى، آية: ١١.

(٢) المفهم (٦/ ٦٩٠، ٦٩١) بتصرف.

(٣) انظر: تعريفات التأويل في: موقف المتكلمين من نصوص الكتاب والسنة، لسليمان =

وما سلكه الأشاعرة تبعًا لمن قبلهم من الجهمية والمعتزلة هو من التأويل الفاسد المذموم الذي ليس عليه دليل من كتابٍ أو سنة؛ لأن هؤلاء اتخذوا من التأويل الفاسد متكأً لتبرير الأصول التي أصَّلوها واعتقدوها واخترعوا لأجل ذلك قوانين عقلية، وأصولاً كلامية، جعلوها الحكم في فهم الدين، والفيصل في معرفة الحق من الباطل، فمتى ظهرت مسألة رجعوا إلى معقولاتهم، وخواطرهم، وآرائهم، فطلبوا الدين من قبلها، فإذا سمعوا شيئًا من الكتاب والسنة عرضوه على معيارهم، فإن استقام قبلوه، وإلاَّ حرَّفوه بالتأويلات البعيدة، والمعاني المستكرهة، فحادوا عن الحق وزاغوا عنه»[1].

قال ابن القيم: «والتأويل الذي يخالف ما دلَّت عليه النصوص وما جاءت به السنة هو التأويل الفاسد»[2].

والتأويل يطلق مشتركًا بين ثلاثة معان:

الأول: أنه الحقيقة التي يؤول إليها الأمر وهذا هو معناه في القرآن.

الثاني: يُراد به التفسير والبيان.

الثالث: معناه المتعارف في اصطلاح الأصوليين وهو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح بدليل يدل على ذلك»[3].

وذكر ابن القيم أن هذا الأخير هو قول المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين حيث قال: «وهذا التأويل هو الذي صنف في تسويغه وإبطاله من الجانبين، فمن صنف في إبطال التأويل على رأي المتكلمين: القاضي أبويعلى، والشيخ موفق الدين ابن قدامة، وقد حكى غير واحد إجماع السلف على عدم القول به»[4].

وقال ابن تيمية: «وأما التأويل بمعنى صرف اللفظ عن مفهومه إلى

= الغصن (١/ ٤٩٧).

(١) الحجة في بيان المحجة للأصفهاني (٢/ ٢٣٨).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٨٧).

(٣) انظر: الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً للشنقيطي (٨٢، ٨٤).

(٤) انظر: الصواعق المرسلة (١/ ١٧٩).

غير مفهومه، فهذا لم يكن هو المراد بلفظ التأويل في كلام السلف... وكان السلف ينكرون التأويلات التي تخرج الكلام عن مراد الله ورسوله التي هي من نوع تحريف الكلم عن مواضعه، فكانوا ينكرون التأويل الباطل الذي هو التفسير الباطل كما ننكر قول من فسر كلام المتكلم بخلاف مراده»(١).

لكن القرطبي والمازري ـ عفا الله عنهما ـ سلكا مسلك التأويل، فصرفا نصوص التنزيل إلى معانٍ باطلة، مخالفة لما عليه السلف من الإيمان بها، وعدم تأويلها كما سبق بيانه.

ومن ذلك: القرطبي ـ في الحديث الذي فيه إثبات الأصبع لله تعالى ـ الرواية التي فيها: «**تصديقًا له**»(٢) لأنها تخالف مذهبه في الصفات، ثم بيَّن منهجه في مثل هذه النصوص فقال: «إذا جاءنا مثل هذا الكلام في كلام الصادق تأوّلناه، أو توقَّفْنَا فيه إلى أن يتبين وجهه مع القطع باستحالة ظاهره لضرورة صدق من دلَّت المعجزة على صدقه، فأما إذا جاءنا مثل هذا على لسان من يجوز عليه الكذب، بل: من أخبرنا الصادق عن نوعه بالكذب والتحريف كذَّبناه»(٣).

فالقرطبي بيَّن موقفه هنا من نصوص الصفات ـ الموهمة للتشبيه بزعمه ـ وهو: إما التكذيب ـ إن لم يكن نصًّا شرعيًّا ـ أو التأويل أو التوقف عند وضوح النص الشرعي.

وقد قال في موضع آخر: كل ما أطلق على الله تعالى مما يدل على الجوارح والأعضاء كالأعين والأيدي والجنب، والأصبع وغير ذلك، مما

---

(١) الصفدية (١/ ٢٩١).

(٢) وذلك أن الرجل الذي من أهل الكتاب قال: ياأبا القاسم «إن الله يمسك السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والثرى على إصبع ثم يهزهن يقول أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا له وتعجبًا.

(٣) المفهم (٧/ ٣٩٠) أراد بقولِه: «أخبرنا الصادق عن نوعه بالكذب». اليهود لأنَّ الذي حاور الرسول ﷺ في هذا الحديث من اليهود ولكن هذا التكذيب ليس له وجه، لأنَّ هذا الحديث جاءنا عن غير طريق هذا اليهودي إذ جاءنا عن طريق الثقات الأثبات ونقلوا إقرار الرسول ﷺ وتعجبه من حديثه وضحكه تصديقًا له وسيأتي الرد عليه في ما ذهب إليه في صفة الأصابع ص (٤٣١).

يلزم من ظاهره التجسيم الذي تدل العقول على استحالته فهي كلها متأولة في حقه تعالى لاستحالة حملها على ظواهرها»[١].

وبين أن منهجه هذا تبعًا للمتكلمين حيث قال: «التحقيق أن يقال: الله ورسوله أعلم، والتسليم الذي كان عليه السلف أسلم[٢]، لكن مع القطع بأن هذه الظواهر الواردة في الكتاب والسنة الموهمة للتجسيم والتشبيه يستحيل حملها على ظواهرها لما يعارضها من ظواهر أُخر كما قرره أئمتنا في كتبهم ولما دل العقل الصريح عليه»[٣].

ومع تأويل القرطبي لعامة نصوص الصفات، إلاَّ أنه تردد في بعضها بين التفويض والتأويل منها قوله: «اعلم أن الناس قد أكثروا في تأويلات هذه الأحاديث فمن مبعد ومن محوّم وما ذكرناه أحسنها وأقومها لمنهاج كلام العرب؛ ولأن يكون هو المراد ومع ذلك فلا نقطع بأنه هو المراد والتحقيق أن يقال: «الله ورسوله أعلم» والتسليم الذي كان عليه السلف أسلم»[٤].

وكذلك المازري سلك هذا المسلك في نصوص الصفات بل تكلف في تأويل كل ما جاء في إثبات الصفات الفعلية لله تعالى أو الذاتية كاليد والقدم، والأصبع، وغيرها، حيث قال في شرحه للحديث المثبت لصفة القدم لله تعالى: «هذا الحديث من مشاهير الأحاديث التي وقعت موهمة للتشبيه ولمَّا نقله الأثبات واشتهر عند الرواة تكلف العلماء قديمًا وحديثاً الكلام عليه والنظر في تأويله»[٥].

وبيَّن المازري غرضه من التأويل فقال بعد تأويله لصفة الأصبع الورادة في الحديث: «والغرض المنع أن يكون لله سبحانه أصبع جارحة لإحالة

---

(١) المفهم (٣/ ٣٧).

(٢) هذا هو التفويض وليس من مذهب السلف بل مذهب السلف الإيمان بالصفات كما جاءت وتفويض كيفيتها انظر: ص (٣٥٧).

(٣) المفهم (١/ ٤١٩).

(٤) المفهم (١/ ٤١٩).

(٥) المعلم (٣/ ٢٠٠).

العقل، له ثم بعد هذا يتأول على ما يجوز وقد أرينا طرفًا من التأويل»[١].

ونرى هنا أنهما حرصا على التأويل لمخالفة هذه النصوص للعقل لأنها موهمة لتشبيه الخالق بالمخلوق بزعمهم.

ولا شك أن هذا باطل، لأن نصوص الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة لا توهم التشبيه، إذ لا يمكن أن يكون ظاهر ما جاء في الكتاب والسنة باطلاً.

قال مرعي الكرمي رحمه الله[٢]: «ويجد الناظر في النصوص الواردة عن الله ورسوله في ذلك نصوصًا تشير إلى حقائق هذه المعاني، ويجد الرسول تارة قد صرَّح بها مخبرًا بها عن ربه واصفًا له بها، ومن المعلوم أنه ـ عليه السلام ـ كان يحضر في مجلسه الشريف: العالم والجاهل، والذكي والبليد، والأعرابي الجافي، ثم لا يجد شيئًا يعقب تلك النصوص مما يصرفها عن حقائقها، لا نصًّا ولا ظاهرًا، كما تأولها بعض هؤلاء المتكلمين، ولم ينقل عنه ـ عليه السلام ـ بأنه كان يحذر الناس من الإيمان بما يظهر من كلامه في صفته لربه من الفوقية واليدين، ونحو ذلك، ولا نقل عنه أن لهذه الصفات معاني أخرى باطنة غير ما يظهر من مدلولها.. ولم يقل الرسول ولا أحد من سلف الأمة يومًا من الدهر: هذه الآيات والأحاديث لا تعتقدوا ما دلت عليه وكيف يجوز على الله ورسوله والسلف أن يتكلموا دائمًا بما هو نصٌّ أو ظاهرٌ في خلاف الحق، ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا يتكلمون به، ولا يدلون عليه»[٣].

وهم بتأويلهم هذا نفوا ما ذكره الله وأثبتوا ما لم يذكره فوقعوا في خطأين، قال ابن الوزير[٤]: «فاعلم أن منشأ معظم البدع يرجع إلى أمرين

---

(١) المعلم (٣/ ١٩٥).

(٢) مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي محدث فقيه مؤرخ تنقل بين عدَّة بلدان واستقر أخيرًا بمصر وفيها توفي بعد أن أصبح من أكابر علماء الحنابلة فيها توفي سنة (١٠٣٣هـ) معجم المؤلفين (٣/ ٨٤٢)، الأعلام.

(٣) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات للكرمي ص(٨٥).

(٤) محمد بن إبراهيم المرتضي اليماني الشهير بابن الوزير إمام حافظ، له عدَّة مصنفات منها: «العواصم في الذب عن سنة أبي القاسم» توفي في صنعاء سنة (٨٤٠هـ).

واضح بطلانهما فتأمل ذلك بإنصاف وشد عليه يديك، وهذان الأمران الباطلان هما: الزيادة في الدين بإثبات ما لم يذكره الله تعالى ورسله ـ عليهم السلام ـ من مهمات الدين الواجبة، والنقص منه بنفي بعض ما ذكره الله تعالى ورسله من ذلك بالتأويل الباطل»[١].

القول بالمجاز:

المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له أولاً[٢].

وقد جعل المؤولة المجاز بابًا واسعًا لتحريف نصوص الصفات إذا عجزوا عن الطعن في أصل ثبوتها، قال الشيخ الشنقيطي: «وبهذا الباطل توصل المعطلون إلى نفي صفات الكمال والجلال الثابتة لله تعالى في كتابه وسنة نبيه بدعوى أنها من المجاز»[٣].

والمجاز أحد طرق التأويل، بل بعض العلماء يرى أن التأويل كله راجع إلى المجاز، كما قال الغزالي في كلامه على التأويل: «ويشبه أن يكون كل تأويل صرفًا للفظ عن الحقيقة إلى المجاز»[٤].

قال ابن القيم: «تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز، ليس تقسيمًا شرعيًا، ولاعقليًا، ولا لغويًا، فهو اصطلاح محض، وهو اصطلاح حدث بعد القرون الثلاثة المفضلة، وكان منشؤه من جهة المعتزلة والجهمية، ومن سلك طريقهم من المتكلمين»[٥].

وقد صرف القرطبي والمازري كثيرًا من نصوص الصفات من الحقيقة إلى المجاز، هربًا من إثباتها.

قال القرطبي في نفيه لعلو الله تعالى عند شرحه لحديث الجارية: «وإذا ثبت ذلك، ثبت أن النبي ﷺ إنما أطلقه على الله بالتوسع والمجاز

---

(١) إيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص(٨٥).
(٢) انظر: بطلان المجاز وأثره في إفساد التصور وتعطيل نصوص الكتاب والسنة لمصطفى الصياصنة ص(٣٣)، معجم المؤلفين (٣/ ٣٥)، الأعلام (٥/ ٣٠٠).
(٣) مذكرة أصول الفقه لمحمد الأمين الشنقيطي ص(٥٨).
(٤) المستصفى للغزالي (٢/ ٤٩).
(٥) مختصر الصواعق (٢/ ٥).

لضرورة إفهام المخاطبة القاصرة الفهم»[١].

وقال في موضع آخر: «نسبة اليمين إلى الله تعالى نسبة مجازية توسعية، عبَّر بها عن كثرة العطاء والقدرة عليه»[٢].

وقال المازري: «استعير لمنع الباري سبحانه عن معاصيه اسم الغيرة مجازًا واتساعًا، وخاطبهم النبي ﷺ بما يفهمونه»[٣].

وقال في تأويله لإتيان الله تعالى ومجيئه: «عُبِّر بالإتيان هاهنا عن الرؤية على سبيل المجاز»[٤].

والنصوص الواردة عنهما في هذا كثيرة تتبين من خلال التفصيل في الصفات، والحق الواجب حمل جميع أخبار الصفات الواردة في الكتاب والسنة على ظاهرها واعتقاد حقائقها على الوجه اللائق بالله تعالى، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

قال ابن عبدالبر: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة ـ كلها ـ في القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز... وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئًا منها على الحقيقة ويزعمون أن من أقر بها مشبه»[٥]

والذي حملهم على القول بالمجاز ظنهم أن حقائق صفات الله تعالى التي نفوها مما يختص بالمخلوقين، فظنوا أن صفات الله تعالى إذا كانت حقيقة لزم أن يكون الرب مماثلاً للمخلوقين وأن صفاته مماثلة لصفاتهم[٦].
قال ابن تيمية: «لكن نعلم أن كثيرًا ممن ينفي ذلك لا يعلم لوازم قوله بل كثير منهم يتوهم أن الحقيقة ليست إلاَّ محض حقائق المخلوقين، وهؤلاء

---

(١) المفهم (٢/ ١٤٣).
(٢) المفهم (٣/ ٣٧).
(٣) المعلم (١/ ٣٢٢).
(٤) المعلم (١/ ٢٢٦).
(٥) التمهيد (٧/ ١٤٥).
(٦) انظر: اللمع للأشعري ص(٢٠) والتبصير في الدين الأسفراييني ص (٩٤) والعقيدة النظامية لعبدالملك الجويني ص (٢١).

جهال بمسمى الحقيقة والمجاز، وقولهم افتراء على اللغة والشرع، وإلاَّ فقد يكون المعنى الذي يقصد به نفي الحقيقة نفي مماثلة صفات الرب سبحانه لصفات المخلوقين قيل له: أحسنت في نفي هذا المعنى الفاسد، ولكن أخطأت في ظنك أن هذا هو حقيقة ما وصف الله به نفسه»[١].

وقد ردَّ شيخ الإسلام على الأشاعرة ـ المثبتة لبعض الصفات دون بعض ـ بقولهم هذا بأصلين:

أحدهما: أن يقال: القول في بعض الصفات كالقول في بعض، فإن كان المخاطب ممن يقر بأن الله حي بحياة عليم بعلم قدير بقدرة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مريد بإرادة، ويجعل ذلك كله حقيقة، وينازع في محبته ورضاه، وغضبه وكراهيته، فيجعل ذلك مجازًا، ويفسره إما بالإرادة، وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات.

قيل له: لا فرق بين ما نفيته وما أثبته، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر، فإن قلت: إن إرادته مثل إرادة المخلوقين؛ فكذلك محبته ورضاه وغضبه، وهذا هو التمثيل، وإن قلت: له إرادة تليق به كما أن للمخلوق إرادة تليق به، قيل لك: وكذلك له محبة تليق به، وللمخلوق محبة تليق به، وله رضا وغضب يليق به، وللمخلوق رضا وغضب يليق به.

وإن قال الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام. قيل له: والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة فإن قلت: هذه إرادة المخلوق قيل لك: وهذا غضب المخلوق.

وكذلك يلزم بالقول في كلامه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته»[٢].

التفويض:

التفويض: هو صرف اللفظ عن ظاهره مع عدم التعرض لبيان المراد منه، بل يترك ويفوض علمه إلى الله تعالى، بأن يقال: الله أعلم بمراده. هذا هو التفويض عند القائلين به في نصوص الصفات الخبرية التي توهم التشبيه

(١) الفتاوى (٢٠/٢١٨).
(٢) التدمرية ص(٣١). .

بصفات المخلوقين بزعمهم.

وجزمهم وقطعهم أن معاني النصوص ليست على ظواهرها يناقض قولهم بالتفويض.

إذ قالوا: إن ظواهر نصوص هذه الصفات يقتضي التشبيه حيث لا يعقل لها معنى معلوم إلاَّ ما هو معهود في الأذهان من صفات المخلوقين، وبالتالي فإنه يتعين نفيه ومنعه، وهذه مقدمة مشتركة بين مذهب التأويل والتفويض.

وقولهم: إن المعاني المرادة من هذه النصوص مجهولة للخلق، لاسبيل للعلم بها، بل هي مما استأثر الله بعلمه، ولا يمكن تعيين المراد بها لعدم ورود النص التوقيفي بذلك، وهنا يفترق مذهب التفويض عن مذهب التأويل الذي يجوز الاجتهاد في تعيين معان مجازية للصفات السمعية[(١)].

والقرطبي مع اعتقاده أن التفويض هو مذهب السلف إلاَّ أنه قال به حيث اضطر إليه في بعض النصوص التي لم يجد له تأويلاً سائغًا، أو يرى بُعد التأويلات التي يوردها وأنها غير مقنعة فيلجأ إلى التفويض وهذا في مواضع كثيرة جدًّا في «المفهم»، منها قوله بعد ذكره لعدة تأويلات: «ويحتمل تأويلاً آخر، والله بمراده أعلم والتسليم للمتشابهات أسلم، وهي طريقة السلف وأهل الاقتداء من الخلف»[(٢)].

وقال بعد تأويله لاستواء الله تعالى على عرشه: «له محامل واضحة، وتأويلات صحيحة، غير أن الشرع لم يعين لنا محملاً من تلك المحامل فيتوقف في التعيين، ويسلك مسلك السلف الصالح في التسليم»[(٣)].

وقال في موضع آخر: «مذهب السلف ترك التعرض لتأويلاتها مع قطعهم باستحالة ظواهرها، ومذهب غيرهم إبداء تأويلاتها وحملها على ما يصح حمله في اللسان عليها، من غير قطع متعين محمل منها»[(٤)].

---

(١) انظر: مذهب التفويض في نصوص الصفات لأحمد القاضي ص(١٥٢، ١٧٠).
(٢) المفهم (٦/ ٦٦٦).
(٣) المفهم (٦/ ٦٧٠).
(٤) المفهم (٦/ ٦٩٧).

وقال أيضًا: «قد قلنا التسليم هو الطريق المستقيم[١]. والتسليم الذي عليه السلف أسلم»[٢].

والسلامة التي يمكن إثباتها في مذهب أهل التفويض هي السلامة من التحريف الذي يقوله المتكلمون على الله بغير علم بصرف معاني النصوص إلى استعمالات مجازية، ولا ريب أن هذا لون من السلامة، لكن قابله الوقوع في هلكة التجهيل بتفريغ تلك النصوص من أي معنى يفهمه السامع[٣]. وكذلك التعطيل لما ثبت لله تعالى من حقائق تلك الصفات.

ثم مع اعتقاد القرطبي بأن التفويض هو مذهب السلف، وبيانه أن سلوكه أسلم، فلم يلتزم به طلبًا للسلامة ـ كما زعم ـ إنما جعله مخرجًا عند عدم وجود وجه للتأويل.

ونسبة التفويض للسلف واشتهار هذا القول عند الأشاعرة[٤]، حتى أصبح عندهم من المسلمات التي لا تقبل الجدل، هو من الكذب على السلف، إذ مذهب السلف واضح في الإيمان بنصوص الصفات، وإجرائها على ظاهرها من غير تكييف وجعل هؤلاء عبارات السلف التي تدعو إلى إمرار النصوص هي الدليل على نسبة هذا القول إليهم، كما قال القرطبي: «قد أكثر الناس في تأويل هذا الحديث وأبعدوا... والأشبه ما ذكرناه أو التوقف كما قال السلف «اقرؤوها كما جاءت» يعنون المشكلات»[٥].

والسلف ـ رحمهم الله ـ أرادوا إمرارها دون تكييف لا كما يفهم هؤلاء. قال ابن تيمية: «هؤلاء المبتدعة الذين فضلوا طريقة الخلف على طريقة السلف من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه، ولا فهم لمراد الله ورسوله منها، واعتقدوا أنهم بمنزلة الأميين، الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ

---

(١) المفهم (٧/ ٧).
(٢) المفهم (١/ ٤١٩).
(٣) مذهب أهل التفويض للقاضي ص(٤٤٤).
(٤) انظر: الملل والنحل (١/ ١٠٤).
(٥) المفهم (١/ ٤١١).

﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[١] وأن طريقة المتأخرين منهم هي استخراج معاني النصوص وصرفها عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات ومستنكر التأويلات... فجمعوابين الجهل بطريقة السلف، والكذب عليهم»[٢].

قال الأصبهاني: «السنة هي: اتباع الأثر والحديث، والسلامة التسليم والإيمان بصفات الله عز وجل من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل، بجميع ما ورد من الأحاديث في الصفات ـ ثم ذكر أمثلة من الآيات والأحاديث ـ ثم قال: كل ذلك بلا كيف ولا تأويل، نؤمن بها إيمان أهل السلامة والتسليم، ولا نتفكر في كيفيتها، وساحة التسليم لأهل السنة والسلامة واسعة بحمد الله ومنِّه، وطلب السلامة في معرفة صفات الله عز وجل أوجب وأولى وأقمن وأحرى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[٣] فليس كمثله شيء: ينفي كل تشبيه وتمثيل. وهو السميع البصير: ينفي كل تعطيل وتأويل، فهذا مذهب أهل السنة والجماعة والأثر، فمن فارق مذهبهم فارق السنة ومن اقتدى بهم وافق السنة»[٤].

فمذهب السلف ـ رضي الله عنهم ـ إثباتها وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها. والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرعٌ على الكلام في الذات، يحتذى في ذلك حذوه ومثاله، فإذا كان معلومًا أن إثبات رب العالمين عز وجل إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف[٥].

والأقوال عن السلف كثيرة تبين إثباتهم للصفات، وإيمانهم بها، وعدم التفويض إلاَّ للكيفية، وسيتضح هذا أكثر في التفصيل في الصفات إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٧٨.

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ١٦٢).

(٣) سورة الشورى، آية: ١١.

(٤) الحجة في بيان المحجة(١/ ٢، ٢٦٠).

(٥) ذم التأويل لابن قدامة ص(١٥).

المطلب الثالث : الشبهات العقلية التي ردوا بها الصفات :

القرطبي والمازري على منهج المتكلمين في ردهم لصفات الله تعالى بالشبه العقلية الباطلة التي يدل على بطلانها الكتاب والسنة والعقل السليم.

وهم في صرفهم لظواهر النصوص يظنون أن هذا من باب تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه؛ لأنهم زعموا أن ظواهر النصوص الواردة في صفات الله تعالى الذاتية كالقدم واليد ونحوها، أو الفعلية يوهم التشبيه، فلابد من صرفها عن ظاهرها بالتأويل، أو التفويض، والتفويض ـ عندهم ـ أن يعلم أن ظاهرها غير مراد، ويفوض معرفة المراد بها بعد ذلك[١].

وقولهم هذا لأنهم لم يفهموا من نصوص الصفات إلاَّ ماهو من صفات المخلوقين ونعوت المحدثين فجعلوا للظاهر المتبادر إلى الذهن معنى باطلاً فوقعوا في التشبيه والتعطيل. ولذا قال ناظمهم:

وكل نص أوهم التشبيها　　أوله أو فوض ورم تنزيها[٢]

قال الشيخ الشنقيطي: «والحق الذي لا يشك فيه أدنى عاقل أن كل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فالظاهر المتبادر منه السابق إلى فهم من في قلبه شيء من الإيمان، هو التنزيه التام عن مشابهة شيء من صفات الحوادث. وهل ينكر عاقل أن السابق إلى الفهم المتبادر لكل عاقل هو منافاة الخالق للمخلوق في ذاته وجميع صفاته؟ لا والله لا يُنكرُ ذلك إلاَّ مكابرة، والجاهل المفتري الذي يزعم أن ظاهر آيات الصفات لا يليق بالله لأنه كفر وتشبيه إنما جر إليه ذلك تنجيس قلبه بقذر التشبيه بين الخالق والمخلوق فأداه شؤم التشبيه إلى نفي صفات الله عز وجل، وعدم الإيمان بها مع أنه جل وعلا هو الذي وصف نفسه بها فكان هذا الجاهل مشبهًا أولاً ثم معطلاً ثانيًا»[٣].

لأن مجرد الاتفاق في المسميات لا يقتضي التشبيه إنما التشبيه عند السلف أن يقال: يد كيد أو وجه كوجه ونحو ذلك.

---

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة (١/ ١٠٤).

(٢) جوهرة التوحيد مع شرحها عون المريد (١/ ٤٤٢).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٣٠).

قال إسحاق بن راهوية[١]: «إنما التشبيه إذا قال: يد كيد أو مثل يد أو سمع كسمع، أو مثل سمع، فإذا قال: سمع كسمع، أو مثل سمع فهذا تشبيه، وأما إذا قال كما قال الله: يد وسمع وبصر ولا يقول كيد ولا مثل سمع ولا كسمع فهذا لا يكون تشبيهًا وهو كما قال تبارك وتعالى في كتابه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[٢]»[٣].

قال نعيم بن حماد[٤]: «من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ومن أنكر ما وصف الله به نفسه، فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيهًا»[٥].

وبسبب هذا التنزيه المزعوم عن مشابهة الله تعالى لخلقه، وقع القرطبي والمازري في نفي جميع صفات الله تعالى عدا الصفات السبع التي يثبتها الأشاعرة.

وخالفوا المنهج السلفي الذي عليه الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام في القرون المفضلة ومن سلك مسلكهم إلى يومنا هذا.

فهم يثبتون لله تعالى ما أثبته سبحانه لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ مع تنزيهه سبحانه عن مشابهة المخلوقين. لكن هؤلاء جعلوا مجرد إثبات الصفات لله تعالى الواردة في الكتاب والسنة يعتبر تشبيهًا له سبحانه بخلقه. ولذا رموا السلف المثبتين لهذه الصفات بصفات منفرة كقولهم: المجسمة أو المشبهة أو الحشوية كما سبق بيانه.

وقد سلك المتكلمون هذا المنهج الباطل نظرًا لتحكيمهم العقول

---

(١) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المروزي المعروف بابن راهوية ثقة حافظ مجتهد أثنى عليه الإمام أحمد فقال: إسحاق لم يلق مثله توفي سنة(٢٣٨هـ). تهذيب التهذيب (١١٢/١)، طبقات الحفاظ ص(٢١٠) ترجمة (٤١٨).

(٢) سورة الشورى، آية: ١١.

(٣) أقاويل الثقات للكرامي ص(١٣٩).

(٤) نعيم بن حماد بن معاوية الخزاعي كان من أشد الناس على الجهمية توفي سنة(٢٢٨هـ) في سجن المأمون إذ امتحن على القول بخلق القرآن فأبى حتى مات في سجنه رحمه الله سير أعلام النبلاء (٥٩٥/١٠)، طبقات الحفاظ ص(٢٠٣) ترجمة (٤٠٥).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٥٨٧/٣).

القاصرة في النصوص الشرعية، وتقديم العقل على النقل، وزعمهم أن إثبات هذه الصفات يناقض العقل فاعتقدوا أن إثبات الصفات الذاتية كاليد والقدم ونحوها يقتضي التجسيم والتركيب بحيث يكون الله تعالى جسمًا مجسمًا ذا أعضاء وجوارح.

وأن إثبات علو الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه أو نزوله إلى السماء الدنيا يقتضي إثبات الجهة لله تعالى والتحيز وأنه محصور محدود.

وأن إثبات هذه الصفات وغيرها من الصفات الفعلية لله تعالى يلزم منه حلول الحوادث بالله تعالى، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث. إلى غير ذلك من الترهات التي هي من آثار تحكيم العقول وتقديمها على النصوص الشرعية فلبسوا على من لا يعرف مصطلحاتهم، وهي في الحقيقة أوهام وشبهات منعتهم من قبول الحق، ووقعوا بسببها في تحريف نصوص الكتاب والسنة.

وسأورد بعض النقولات من كتابي «المفهم» و«المعلم» تبين سلوك القرطبي والمازري لهذا المسلك والتزامهما بهذا المنهج، والأمر يتضح أكثر عند التفصيل في الصفات حيث يكون الرد المفصل من خلالها.

وسأتبع هذه النقولات بالتفصيل في هذه الشبه التي انقدحت في عقولهم مع الرد عليها من كلام السلف.

ومن الشبه التي وقع فيها القرطبي ـ رحمه الله ـ ما ذهب إليه من أن العقل والنقل يؤيدان ما ذهب إليه في التأويل حيث قال: «العقل والنقل يردان مذهب المجسمة، أما العقل: فلو كان عرضًا أو جسمًا لجاز عليه مايجوز عليهما، ويلزم تغيره وحدثه. وأما النقل: فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1] ولو كان جسمًا أو عرضًا لكان كل شيء منهما مماثلاً له»[2].

«فإن الأجسام من حيث هي متساوية في الأحكام العقلية، وما ثبت

(١) سورة الشورى، آية: ١١.

(٢) المفهم (١/٤٠٨).

للشيء ثبت لمثله، وقد ثبت لهذه الأجسام الحدوث فيلزم عليه أن يكون الله تعالى حادثًا، ويلزم على قولهم أن يكون كل واحد منا مثلاً له تعالى من جهة الجسمية والحيوانية والجوارح وغير ذلك من الأعضاء[١].

وقال: «والله منزه عن الجسمية ولوازمها»[٢].

ثم قال: «وقد شهد العقل والنقل أن الله منزه عن مماثلة الأجسام وعن الجوارح المركبة»[٣].

وقال في نفي علو الله تعالى واستوائه على عرشه: «الباري منزه عن الاختصاص بالأمكنة والجهات، إذ ذاك من لوازم المحدثات»[٤].

وقال أيضًا: «الله منزه عن الفوقية كما هو منزه عن التحتية إذ كل ذلك من لوازم الأجرام وخصائص الأجسام»[٥].

وقال أيضًا: «الباري يستحيل أن يحيط به حجاب، إذ يلزم منه أن يكون مقدرًا محصورًا فيحتاج إلى مقدر ومخصص، ويلزم منه حدوثه»[٦].

وقال: «كل موجود ممكن محدث، وهو لا يخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث»[٧].

وقال في نفي استواء الله على عرشه بالشبه العقلية: «ومما يعلم استحالته كون العرش حاملاً لله تعالى، وأن الله مستقر عليه كاستقرار الأجسام، إذ لو كان محمولاً لكان محتاجًا فقيرًا لما يحمله[٨]، وذلك ينافي وصف الإلهية إذ أخص أوصاف الإله الاستغناء المطلق»[٩].

---

(١) المفهم (٧/ ١٩٤).
(٢) المفهم (١/ ٤٣٦).
(٣) المفهم (٤/ ٢٢).
(٤) المفهم (٦/ ٤٥١).
(٥) المفهم (٣/ ٥٩٥).
(٦) المفهم (١/ ٤١١).
(٧) المفهم (٦/ ٦٧٠).
(٨) أهل السنة مع إثباتهم لاستواء الله على عرشه لايسلمون بهذه اللوازم وينكرون احتياج الله تعالى لخلقه ويثبتون استغناءه التام، وسيأتي الرد عليه عند التفصيل في هذه الصفة ص(٤٤٧).
(٩) المفهم (٦/ ٦٧٠).

وقال المازري: «الصورة تفيد التركيب، وكل مركب محدث، والباري سبحانه ليس بمحدث، فليس بمركب وما ليس بمركب فليس بمصور»[١] إلى غير ذلك من الشبه العقلية التي جعلوها حجة لصرف النصوص عن المراد بها، وللقدح في مذهب السلف الصالح في الإثبات وأهل السنة لا يوافقونهم على هذه الألفاظ، ولا يجعلون الطعن عليهم فيها سببًا لعدم قولهم الحق، أو التردد فيه. ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

١ ـ التركيب:

ادَّعى الأشاعرة ومن على منهجهم أن إثبات الصفات الخبرية الذاتية لله تعالى كصفة الوجه واليد ونحوها يؤدي إلى أن يكون الله مركبًا، وما كان كذلك، فهو مستلزم للحاجة والافتقار، وهذا بناءً على قياسهم الخالق على المخلوق، وبهذا وقعوا في التشبيه والتعطيل[٣]. ويقال في الردعليهم:

هذا اللفظ من الألفاظ المجملة التي لبسوا بها على الناس فلابد من الاستفصال عن معناه، فيقال لهم: ماذا تريدون بلفظ المركب؟ إن أردتم به ما ركبه غيره كقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾[٤] أو ما كان متفرقًا فاجتمع، كأجزاء الطعام والثوب وغيره، أو ما يقبل التفريق والانقسام. فمن ادعى أن اتصاف الله بالصفات يؤدي إلى هذا المعنى الباطل فقد كذب وافترى، أما إن قصدتم ما تميز به شيء عن شيء كالعلم عن القدرة، أو ما ركب من الذات وصفاتها، فهذا حق، لكن تسمية هذا تركيبًا اصطلاحٌ باطل، فما من موجود إلاَّ ويعلم منه شيء دون شيء، والجسم الذي له صفات لا يعرف في اللغة إطلاق كونه مركبًا، فإن التفاحة التي لها لون وطعم وريح لا يعرف في اللغة إطلاق كونها مركبة من لونها وطعمها

(١) المعلم (٣/ ١٦٩).
(٢) سورة الرعد، آية: ١٧.
(٣) انظر: التبصير في الدين للاسفراييني ص (٩٦) والملل والنحل (١/ ١٠٥).
(٤) سورة الانفطار، آية: ٨.

وريحها[١]، فحجتهم صارت مبنية على مثل هذه الألفاظ المجملة، والتزام الألفاظ الشرعية مع الاستفصال عن الإجمال الواقع في المصطلحات الحادثة هو منهج السلف، وهو المنهج الحق. ثم هم يثبتون أن الله عالمٌ قادرٌ مريدٌ، فإن كانت ذاته مركبة من هذه المعاني لزم التركيب الذي ادعوه، وإن كانت عرضية لزم الافتقار الذي ادعوه.

ثم لا يسلم لهم أن هناك تركيبًا من أجزاء بحال، وإنما هي ذات قائمة بنفسها مستلزمة للوازمها التي لا يصح وجوده إلاَّ بها، وليست صفة الموصوف أجزاء له ولا أبعاضًا يتميز بعضها عن بعض، أو تتميز عنه حتى يصح أن يقال هي مركبة منه أو ليست مركبة. أنه لو فرض أن هذا يسمى مركبًا فليس مستلزمًا للإمكان، ولا للحدوث، ولا للافتقار، وذلك أنه علم بالعقل والسمع أنه يمتنع أن يكون الرب تعالى فقيرًا إلى خلقه، بل هو الغني عن العالمين فهو سبحانه غني بنفسه، ليس ثبوته وغناه مستفادًا من غيره، إنما هو بنفسه، لم يزل ولا يزال حقًّا صمدًا قيومًا، فالقول في صفاته التي هي داخلة في مسمى نفسه هو القول في نفسه[٢].

ثم لا يتصورُ عاقل في حق الله تعالى خالق المفرد والمركب الذي يجمع المتفرق ويؤلف بين الأجزاء فيركبها كما يشاء أن يكون اتصافه بالصفات التي وصف بها نفسه يؤدي إلى التركيب! كالإنسان المركب من الأجزاء التي يحتاج بعضها إلى بعض، إن هذا قياس باطل عقلاً وشرعًا، وهو بهتان ومكابرة للعقل الذي يدل على إثبات إله واحد لا شريك له، ولا شبيه له، ولا يتصور عقلاً أن يكون هذا الرب الواحد لا صفة له ولا وجه ولا يدين، ولا هو فوق خلقه فدعوى أن هذا يؤدي إلى التركيب دعوى باطلة، وكذب صريح على العقل والوحي[٣].

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٥/ ١٤٤) والفتاوى (٦/ ١٠٩)، والصواعق المرسلة لابن القيم (٣/ ٩٣٠).

(٢) انظر: نقض أساس التقديس لابن تيمية (١/ ٦٠٥، ٦٠٧) ومنهاج السنة لابن تيمية (٢/ ٥٤١).

(٣) انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم (٣/ ٩٤٥، ٩٤٧).

٢ ـ الجسم :

لفظ الجسم من الألفاظ المبتدعة التي لم تأت في الكتاب ولا السنة، ولا تكلم بها أحدٌ من الصحابة أو التابعين.

«فلما ظهرت الجهمية نفاة الصفات تكلم الناس في الجسم، وفي إدخال لفظ الجسم في أصول الدين، وفي التوحيد، وكان هذا من الكلام المذموم عند السلف والأئمة، فصار الناس في لفظ الجسم على ثلاثة أقوال: طائفة تقول إنه جسم، وطائفة تقول ليس بجسم، وطائفة تمسك عن إطلاقه نفيًا أو إثباتًا، وهذا لكونه بدعة في الشرع، أو لكونه في العقل يتناول حقًّا وباطلاً، فمنهم من يكف عن التكلم في ذلك، ومنهم من يستفصل المتكلم، فإن ذكر في النفي أو الإثبات معنى صحيحًا قبله، وعبَّر عنه بعبارة شرعية، ولا يعبر عنها بعبارة مبتدعة في الشرع، وإن ذكر معنى باطلاً ردَّه، وذلك أن لفظ الجسم فيه اشتراك بين معناه في اللغة ومعانيه المصطلح عليها، وفي المعنى مصطلحات عقلية فيطلقه كل قوم بحسب اصطلاحاتهم وحسب اعتقاداتهم»[(١)].

«فيقال لمن أطلقه: ما أردت بالجسم؟ فإن قال: أردت الجسم الذي معناه في لغة العرب البدن الكثيف الذي لا يسمى في اللغة جسم سواه، فهذا المعنى منفي عن الله تعالى عقلاً وسمعًا»[(٢)].

«وإن قال: أردت بالجسم ما كان مركبًا من الجواهر الفردة أو المادة والصورة، وأن هذا يقتضي أن يكون تجسيمًا والأجسام متماثلة. قيل له: أكثر العقلاء يخالفونك في تماثل الأجسام المخلوقة، وفي أنها مركبة، فلا يقولون: إن الهواء مثل الماء، ولا أبدان الحيوان مثل الحديد والجبال، فكيف يوافقونك على أن الرب تعالى يكون جسمًا مماثلاً لخلقه إذا أثبتوا له ما ورد في صحيح المنقول من صفاته تعالى»[(٣)].

---

(١) منهاج السنة لابن تيمية (٢/ ١٩٨).

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم (٣/ ٩٣٩).

(٣) انظر: الفتاوى لابن تيمية (١٧/ ٣١٧، ٣١٨).

وإن قال: أردت بالجسم ما يوصف بالصفات ويرى بالأبصار، ويتكلم ويكلم ويسمع ويبصر ويرضى ويغضب، فهذه المعاني ثابتة لله تعالى، وهو موصوف بها، فلا ننفيها عنه تعالى بتسميتك للموصوف بها جسمًا، كما أننا لا نسُبُّ الصحابة لأجل تسمية الروافض لمن يحبهم ويواليهم نواصب، ولا نرد خبر الصادق عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله لتسمية أعداء الحديث لنا حشوية!! ولا نجحد صفات خالقنا وعلوه على خلقه واستواءه على عرشه لتسمية الفرعونية المعطلة لمن أثبت ذلك جسمًا مشبهًا!!

فإن كان تجسيمًا ثبوت استوائه ... على عرشه إني إذًا لمجسم
وإن كان تشبيهًا ثبوت صفاته ... فمن ذلك التشبيه لا أتكتم
وإن كان تنزيهًا جحود استوائه ... وأوصافه أو كونه يتكلم
فعن ذلك التنزيه نزهت ربنا ... بتوفيقه والله أعلى وأعظم[(١)]

وإن أردت بالجسم ما يشار إليه إشارة حسية، فقد أشار أعرف الخلق بأصبعه رافعًا إلى السماء بمشهد الجمع العظيم مستشهدًا له لا للقبلة.

وإن أردت بالجسم ما يقال: أين هو؟ فقد سأل أعلم الخلق به بأين منبهًا على علوه على عرشه، وسمع السؤال بأين وأجاب عنه، ولم يقل هذا السؤال إنما يكون للجسم.

وإن أردت بالجسم ما يلحقه من وإلى، فقد نزل جبريل عليه السلام من عنده، وعرج برسوله ﷺ إليه، وإليه يصعد الكلم الطيب وعبده المسيح رفع إليه.

وإن أردت بالجسم ما له وجه ويدان وسمع وبصر، فنحن نؤمن بوجه ربنا الأعلى، وبيديه وسمعه وبصره، وغير ذلك من صفاته التي أطلقها على نفسه[(٢)].

٣ ـ حلول الحوادث والأعراض:

لقد نفى القرطبي والمازري ـ تبعًا للأشاعرة ـ صفات الله تعالى الفعلية

---

(١) هذه الأبيات لابن القيم رحمه الله. انظر: الصواعق المرسلة (٣/ ٩٤٠).

(٢) انظر: الصواعق المرسلة لابن القيم (٣/ ٩٣٩، ٩٤٣).

بحجة أن إثباتها يؤدي إلى حلول الحوادث بالله تعالى، وقالوا: ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث[١].

قال شارح الطحاوية: «حلول الحوادث بالرب تعالى المنفي في علم الكلام المذموم لم يرد نفيه ولا إثباته في الكتاب ولا في السنة، وفيه إجمال، فإن أريد بالنفي أنه لا يحلُّ في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن، فهذا نفي صحيح، وإن أُريد به نفي الصفات الاختيارية من أنه لا يفعل ما يريد ولا يتكلم بما شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته فهذا نفي باطل.

وأهل الكلام يطلقون نفي حلول الحوادث فيسلم السني للمتكلم ذلك على ظن أنه نفى عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله، فإذا سلم له هذا النفي ألزمه نفي الصفات الاختيارية وصفات الفعل وهذا غير لازم له»[٢].

وقال شيخ الإسلام في رد هذه الشبهة: «لفظ الأعراض والحوادث لفظان مجملان، فإن أريد بذلك ما يعقله أهل اللغة من أن هذه الأعراض والحوادث هي الأمراض والآفات كما يقال: فلان عرض له مرض شديد، وفلان قد أحدث حدثًا عظيمًا... ويقال: فلان به عارض من الجن، وفلان حدث له مرض فهذه من النقائص التي ينزه الله عنها»[٣].

ثم بيَّن أنه إن أريد بنفي الأعراض والحوادث نفي صفات الله تعالى التي أثبتها سبحانه لنفسه، فإن هذا غير صحيح فجعل هذه الصفات أعراضًا وأحداثًا اصطلاح أحدثه علماء الكلام، والعلماء باللغة وبكتاب الله لا يفقهون من هذه الألفاظ هذا المعنى الذي اصطلحوا عليه ونفوا به صفات كماله وجلاله[٤].

ولا يلزم من إثبات الصفات الاختيارية لله تعالى كالخلق والإحياء

---

(١) انظر: التبصير في الدين للاسفراييني ص (٩٦،٩٧) والملل والنحل (١/ ٩٥).
(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٩٧).
(٣) الفتاوى لابن تيمية (٦/ ٩٠).
(٤) انظر: الفتاوى (٦/ ٩١).

والغضب والرضا ونحو ذلك، مما وصف الله به نفسه حلول الحوادث بالله تعالى؛ لأن الله سبحانه عندما يخلق أو يتكلم أو يغضب أو يرضى لا يكون الكلام قد حدث له بعد أن كان ممتنعًا عليه؛ لأنه سبحانه لم يزل متصفًا بصفات الكمال.

فحدوث الكلام والخلق والتصوير في وقت دون وقت «غير ممتنع ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلمًا بالأمس لا يقال: إنه حدث له الكلام ولو كان غير متكلم لآفةٍ كالصغر والخرس ثم تكلم يقال: حدث له الكلام، فالساكت لغير آفةٍ يسمى متكلمًا بالقوة بمعنى أنه يتكلم إذا شاء، وفي حال تكلمه يسمى متكلمًا بالفعل وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل ولا يخرج عن كونه كاتبًا في حال عدم مباشرته للكتابة»[(١)].

٤ ـ الجهة والتحيز:

وقد توصلوا بهذين اللفظين إلى نفي علو الله تعالى على خلقه، واستوائه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا[(٢)].

فيقال لهم: لفظ الجهة من الألفاظ المجملة التي تحتمل حقًّا وباطلاً، فيقال لمن أطلقه: ماذا تقصد بلفظ «الجهة» الذي تنفيه عن الله تعالى؟

فإن أردت بذلك نفي السفل أو نفي أن يكون الله تعالى في داخل المخلوقات تحيط به فهذا المعنى صحيح، ولكن إطلاق لفظ جهة لا يوافق عليه؛ لأنه لم يرد في كتاب ولا سنة فلا يجوز إطلاقه، وإلاَّ فمن المعلوم أن الله تعالى عالٍ على خلقه مستوٍ على عرشه، ليس في داخل المخلوقات ولا تحيط به سبحانه وتعالى عن ذلك فهو مباين لخلقه غير مختلط بهم.

وأما إن أردت بنفي الجهة نفي علو الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه، فهذا باطل مخالف للعقل والنقل؛ لأن هذه الصفات لله تعالى ثابتة بالأدلة القاطعة، فلا يكون هذا اللفظ الحادث سببًا في نفي ما ثبت لله تعالى

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٩٧).

(٢) انظر: التبصير في الدين للأسفراييني ص (٩٨) والفرق بين الفرق للبغدادي ص(٣٣٣).

من صفات الكمال»(١).

وأمَّا التحيز فيقال: إن أردتم به أن الله تعالى يحوزه شيء فالله تعالى منزه عن هذا، إذ ما ثم إلاَّ الخالق والمخلوق، وقد علم بصريح العقل أن الله لا يحل في خلقه، ولا يحله شيء من خلقه، فإذا كان كذلك واستحال أن يوصف بجهة السفل ـ كما يوافق الأشعرية على ذلك ـ لم يبق إلاَّ أن يوصف بالعلو. وأما التحيز العدمي ـ فهذا قد يطلقونه ـ كما هو الشأن في العالم، فقد يقولون إن العالم متحيز ـ أي ليس داخلاً في عالم آخر ـ وعليه فإن الحيز هنا أمر عدمي، والعدم ليس بشيء، فإذا كان كذلك، فإن الله تعالى بهذا الاعتبار منحاز عن خلقه»(٢).

ولكن يجب إطلاق كلمة العلو والاستواء لا هذا اللفظ الذي لم يرد في الكتاب أو السنة، إنما أرادوا بإطلاقه نفي ما ثبت لله سبحانه وتعالى من علوه على خلقه واستوائه على عرشه، ونزوله إلى سمائه الدنيا تعالى الله تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

وقولهم هذا بدعوى تنزيه الله تعالى أوقعهم بضد هذا التنزيه الذي ادعوه إذ هذا التنزيه المزعوم جعلهم يقولون: بأنه لا داخل العالم ولا خارجه، فجمعوا بهذا بين النقيضين إذ يستحيل أن يكون الموجود لا داخل العالم ولا خارجه، وما ثم إلاَّ الخالق والمخلوق، والمخلوق هو العالم، فإذا قيل ليس داخل العالم لزم أن يكون خارجه(٣).

ويلزم من قولهم هذا تشبيه الله تعالى بالممتنعات والمعدومات؛ لأنها يصدق عليها: لا داخل العالم ولا خارجه، فيكونون قد فروا من شيء توهموه شرًا، إلى ما هو أشرُّ منه(٤).

---

(١) انظر: نقض أساس التقديس لابن تيمية (٢/١١٧ـ ١١٩) ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية(١/٢٥٣، ٢٥٥)

(٢) انظر: نقض أساس التقديس (٢/١١٧، ١١٩) ودرء تعارض العقل والنقل (١/٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) انظر: التدمرية لابن تيمية ص(٣٦) وشرح النونية للهراس (١/١٧٦، ١٧٧).

(٤) انظر: التدمرية ص(٦١، ٦٤).

٥ ـ الحد :

الحد من الألفاظ المحدثة المحتملة للحق والباطل، ولذا نقل عن السلف إثباته ونفيه.

قيل لعبدالله بن المبارك: كيف تعرف الله عز وجل؟ قال: على العرش بحد[١].

وورد إثبات هذا اللفظ عن الدارمي وغيره[٢].

وقد أنكره بعض السلف ولم يروا إطلاقه، وجاء عن الإمام أحمد إثبات الحد ونفيه[٣].

والصحيح أنه لا تعارض بين القولين، إذ النافي نفى المعاني الباطلة، والمثبت قصد إثبات ما تنفيه المعطلة، والرد على الجهمية القائلين بالحلول.

قال شيخ الإسلام: «ولما كان الجهمية يقولون ما مضمونه إن الخالق لا يتميز عن الخلق فيجحدون صفاته التي تميز بها، ويجحدون قدره.. فبين ابن المبارك أن الرب سبحانه على عرشه مباين لخلقه منفصل عنه، وذكر الحد؛ لأن الجهمية كانوا يقولون: ليس له حد، وما لا حد له لا يباين المخلوقات، ولا يكون فوق العالم؛ لأن ذلك مستلزم للحد»[٤].

وقال عن الروايتين الواردتين عن الإمام أحمد: «حيث نفاه نفى تحديد الحادِّ له، وعلمه بحده، وحيث أثبته أثبته في نفسه، ولفظ الحد يقال على حقيقة المحدود، صفة أو قدرًا، أو مجموعهما، ويقال على العلم والقول الدال على المحدود»[٥].

فيكون الحد في كلام السلف على ثلاثة معان:

---

(١) رد الدارمي على المريسي (١/ ٢٢٤).
(٢) المرجع السابق.
(٣) انظر: أساس التقديس لابن تيمية (١/ ٤٣٠، ٤٣٣).
(٤) المرجع السابق (١/ ٤٤٣).
(٥) المرجع السابق (٢/ ١٧٤).

١ـ ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، وعلى هذا نقول إن الله تعالى غير حالٍّ في خلقه، ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه، المقيم لما سواه، فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلاً، فإنه ليس وراء نفيه إلاَّ نفي وجود الرب، ونفي حقيقته[١].

٢ـ ويطلق على معنى الكيفية، ويدل عليه قول الإمام أحمد: «ولا يصفه الواصفون ولا يحده أحد، تعالى الله عما يقول الجهمية والمشبهة»[٢].

فالله تعالى بهذا المعنى له حد، لكن لا يجوز لأحد أن يحده؛ لأنه غير معلوم، فلصفات الله كيفية، لكنها غير معلومة لنا، كما قال الإمام الدارمي: «والله تعالى له حد لا يعلمه أحد غيره.. ولكن نؤمن بالحد، ونكل علم ذلك إلى الله»[٣].

٣ـ ويطلق على معنى حكاية غاية ونهاية تنتهي إليها صفات الله تعالى، فهذا ممنوع لأن صفات الله تعالى كقدرته وإرادته لا تحد بغاية، ويدل على ذلك قول الإمام أحمد «سميع بصير بلا حد ولا تقدير»[٤].

٦ ـ لفظ الأعضاء والأركان والجوارح :

احتج نفاة صفات الله تعالى الذاتية، كاليد والوجه والقدم، وغيرها، بأن إثباتها لله تعالى يلزم منه إثبات الأعضاء والجوارح لله تعالى[٥].

ولا شك أن هذا زعمٌ باطلٌ، وقولٌ مردودٌ، إذ جاء إثبات هذه الصفات في الكتاب والسنة، فلا ندعها لقول هؤلاء، ولذا فأهل السنة يقولون عن هذا الزعم: لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء أو جوارح، أو أدوات أو أركان؛ لأن الركن جزء الماهية، والله تعالى هو الأحد الصمد، لا يتجزأ، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية، والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع، وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٦٣).
(٢) نقض أساس التقديس (٢/ ١٦٥).
(٣) رد الدارمي على المريسي(١/ ٢٢٣، ٢٢٤).
(٤) نقض أساس التقديس (١/ ٤٣١).
(٥) انظر: التبصير في الدين للأسفراييني ص (٩٦) والملل والنحل (١٠٥١).

المنفعة ودفع المضرة، وكل هذه المعاني منتفية عن الله، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى»[١].

المطلب الرابع : رمي السلف بالتشبيه والتجسيم :

إن متابعة القرطبي والمازري للمتكلمين في قواعدهم التي أحدثوها لنفي صفات الله سبحانه وتعالى جعلتهم يرمون أهل السنة بألقاب ذميمة هم منها براء، وذلك كتسميتهم بالحشوية، والمجسمة، إذ كل من أثبت الصفات لله سبحانه كما جاءت بها النصوص رموه بهذه الألقاب والأوصاف للتنفير منه.

وتسميتهم بالحشوية أرادوا أنهم من حشو الناس وسقطهم، فلا يعتد بكلامهم، أو لإثباتهم العلو والاستواء، وهذا بزعمهم يؤدي إلى أن يكون الله تعالى في السماء مظروفًا محشوًا تعالى الله عن ذلك.

قال ابن القيم:

ومن العجائب قولهم لمن اقتدى ... بالوحي من أثر ومن قرآن
حشوية يعنون حشوًا في الوجو ... د وفضلة في أمة الإنسان
ويظن جاهلهم بأنهم حشوا ... رب العباد بداخل الأكوان
لا تبهتوا أهل الحديث به فما ... ذا قولهم تبًّ لذي البهتان
كم ذا مشبهة وكم حشوية ... فالبهت لا يخفى على الرحمن[٢]

فأولى أن يتصف هؤلاء المتكلمون بالحشو؛ لأنهم حشوا الأوراق وسودوها بزبالات عقولهم، وأفسدوها بالبدع، والضلالات المخالفة للقرآن والسنة[٣]. وسموهم بالمجسمة؛ لأنهم أثبتوا الصفات التي نفاها المتكلمون بعقولهم التي قدموها على نصوص الوحي، وأهل السنة أثبتوها لله تعالى من غير تشبيه له سبحانه وتعالى بخلقه.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٦٤).
(٢) القصيدة النونية مع شرحها للهراس (١/ ٣٣٣).
(٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص(٨٠، ٨٢).

قال ابن القيم:

كم ذا مشبهة مجسمة نوا بتة مسبة جاهل فتان
أسماء سميتم بها أهل الحـ ـديث وناصري القرآن والإيمان
ما ذنبهم والله إلاَّ أنهم أخذوا بوحي الله والفرقان
وأبوا يدينوا بالذي دنتم به من هذه الآراء والهذيان[١]

وعند شرح القرطبي لقوله ﷺ: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّاهم الله فاحذروهم**»[٢] قال: يعني يتبعونه ويجمعونه طلبًا للتشكيك في القرآن، وإضلالاً للعوام، كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون في القرآن. أو طلبًا لاعتقاد ظواهر المتشابه كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ماوقع في الكتاب والسنة مما يوهم ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن الباري تعالى جسم مجسم، وصورة مصورة، ذات وجه وعين ويد وجنب[٣] ورجل وإصبع، تعالى الله عن ذلك، فحذر النبي ﷺ عن

---

(١) القصيدة النونية مع شرحها للهراس (١/ ٣٣٦).

(٢) وذلك بعد ما قرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ . . .﴾ الآية[سورة آل عمران، آية: ٧] رواه البخاري في كتاب التفسير، باب «منه آيات محكمات» ح(٤٥٤٧) (٨/ ٥٧)، ومسلم في كتاب العلم،« باب رفع العلم وقبضه» ح(٢٦٧٣) (١٦/ ٤٦٥).

(٣) أهل السنة لايقولون بأن الجَنْب صفة من صفات الله تعالى لعدم ورود ذلك بالكتاب أوالسنة أما قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الزمر، آية: ٥٦].
فمعناه: قصرت في طاعة الله، قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: قوله«على مافرطت في جنب الله» يقول: على ماضيعت من العمل بما أمرني الله به وقصرت في الدنيا في طاعة الله انظر: تفسير الطبري(١١/ ١٩). وقال الدارمي في رده على المريسي: وأدعيت علينا زورًا وبهتانًا أننا نقول أنَّ الجنب الوارد في الآية هوالعضو فإن كنت صادقًا فأشر إلى أحد من بني آدم قاله؟! إنما تفسيرها: تحسر الكافرين على مافرطوا في الإيمان والفضائل التي تدعو إلى ذات الله تعالى واختاروا عليها الكفر، ولا يجهل هذا المعنى كثير من عوام المسلمين فضلاً عن علمائهم ، انظر: رد الدارمي على المريسي (٢/ ٨٠٧). قال ابن تيمية: لايعرف عالم مشهور عند المسلمين ولا طائفة مشهورة من طوائف المسلمين أثبتوا لله جنبًا نظير جنب الإنسان وهذا اللفظ جاء في القرآن في قوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة =

سلوك طريقهم، فأما القسم الأول: فلا شك في تكفيرهم وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة. وأما القسم الثاني: فالصحيح القول بتكفيرهم إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام والصور، ويستتابون، فإن تابوا، وإلاَّ قتلوا، كما يفعل بمن ارتد»(١).

وعند شرحه للحديث الذي فيه إثبات القدم لله تعالى قال: «قد ضلَّ بظاهر هذا اللفظ من أذهب الله عقله، وأعدم فهمه، وهم المجسمة المشبهة، فاعتقدوا أن لله تعالى رِجْلاً من لحم وعصب تشبه أرجلنا، كما اعتقدوا في الله تعالى أنه: جسم يشبه أجسامنا، ذو وجه وعينين، وجنب، ويد، ورجل، وهكذا، وهذا ارتكاب جهالة خالفوا بها العقول وأدلة الشرع المنقول، وما كان سلف هذه الأمة عليه من التنزيه عن المماثلة والتشبيه، وكيف يستقر هذا المذهب الفاسد في قلب من له أدنى فكرة ومن العقل أقل مسكة»(٢).

وعند شرحه لقوله ﷺ: **«إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله**

= وصفاتها القائمة بها ماليس بصفة له باتفاق الخلق كقوله تعالى: «بيت الله»و«ناقة الله»و«عبادالله» بل وكذلك «روح الله» عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم ولكن إذا أضيف إليه ماهو صفة له وليس بصفة لغيره مثل: كلام الله وعلم الله ويدالله ونحو ذلك كان صفة له وفي القرآن مايبين أنه ليس المراد بالجنب ما هو نظير جنب الإنسان فإنه قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ والتفريط ليس في شيء من صفات الله عزوجل والإنسان إذا قال: فلان قد فرط في جنب فلان، أو جانبه لايريد به أنَّ التفريط وقع في شيء من نفس ذلك الشخص بل يريد به أنه فرط في جهته اللفظ وفي حقه فإذا كان هذا اللفظ إذا أضيف إلى المخلوق لايكون ظاهره أنَّ التفريط في نفس جنب الإنسان المتصل بأضلاعه بل ذلك التفريط لم يلاصقه فكيف يظن أنَّ ظاهره في حق الله أنَّ التفريط كان في ذاته.

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ٤١٥).

وقد ذكر ابن الجوزي عند تفسيره لهذه الآية خمسة أقوال لجنب الله هي: طاعة الله وحق الله وأمر الله وذكر الله وقرب الله. زاد المسير(٧/ ٦٠). على أنَّ صديق حسن خان رحمه الله قد ذكر الجنب من صفات الله تعالى وهو وهم منه رحمه الله. انظر: قطف الثمر في عقيدة أهل الأثر لصديق حسن ص (٦٧).

(١) المفهم (٦/ ٦٧٠).

(٢) المفهم (٧/ ١٩٤).

خلق آدم على صورته»[١].

قال: «قد أعادت المشبهة هذا الضمير على الله تعالى، فالتزموا القول بالتجسيم، وذلك نتيجة العقل السقيم، والجهل العميم، وقد بيَّنا جهلهم وحقَّقنا كفرهم، فيما تقدم»[٢].

وقال عند حديثه عن فتنة الدجال: «وكل ما يظهره الله على يدي الدجال من الخوارق للعادة محن امتحن الله بها عباده، وابتلاء ابتلاهم به ليميز أهل التنزيه والتوحيد بما يدل عليه العقل السديد من استحالة الإلهية على ذوي الأجسام، وإن أتوا على دعواهم بامتثال تلك الطوام أو ليغتر أهل الجهل باعتقاد التجسيم حتى يوردهم ذلك نار الجحيم»[٣].

وقال أيضًا: «الغالب على اليهود أنهم يعتقدون الجسمية، وأن الله تعالى شخص ذو جوارح، كما تعتقده غلاة الحشوية في هذه الملة»[٤].

وقال المازري بعد ذكره لعدة تأويلات لصرف ما ثبت في الحديث الصحيح من إثبات القدم لله تعالى: «وإذا أمكن حمل الحديث على هذه التأويلات الصحيحة الجائزة على الله سبحانه لم يصح حمله على ما تقوله المجسمة من إفادته إثبات الجارحة لله، تعالى الله عن قولهم، وقد قام الدليل القاطع على استحالة ذلك عليه جل وعلا وهذا واضح فتأمله»[٥].

ولا شك أن رميهم أهل السنة بهذه الألقاب من التعدي والظلم الذي لا يرضاه الله تعالى إضافة إلى إلزامهم لمن يثبت هذه الصفات لله تعالى كما وردت بالتشبيه وأهل السنة من هذا براء[٦].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب النهي عن ضرب الوجه ح(٢٦١٢) (١٦/ ٤٠٤).

(٢) المفهم (٦/ ٥٩٨).

(٣) المفهم (٧/ ٢٧٣) وانظر: أيضًا (٧/ ٢٩٣).

(٤) المفهم (٧/ ٣٨٩).

(٥) المعلم (٣/ ٢٠١).

(٦) ويتبين هذا في هذا المبحث أي: مبحث منهجهما في الصفات حيث صرفوا عامة النصوص الواردة في الصفات الفعلية والذاتية عن ظاهرها والزموا من أثبتها بالتجسيم والتشبيه.

قال الإمام الدارمي في رده على المريسي: «وكيف استجزت أن تسمى أهل السنة وأهل المعرفة بصفات الله المقدسة مشبهة إذا وصفوا الله بما وصف به نفسه في كتابه بالأسماء التي أسماؤها موجودة في صفات بني آدم بلا تكييف»[١].

المطلب الخامس: منهجهما في سائر صفات الله تعالى:

صفة العلم:

العلم صفة ذاتية لازمة لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾[٣]. وقال ﷺ: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاَّم الغيوب**»[٤]. والأدميون وإن كانوا يوصفون بالعلم، فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان[٥].

وعلم الله ليس كعلم المخلوقين، تعالى الله سبحانه عن مشابهة خلقه، وقد أثبت الأشاعرة هذه الصفة مع باقي الصفات السبع التي أثبتوها مع مخالفة لأهل السنة في إثباتها[٦]، وتابعهم القرطبي على ذلك، حيث قال عند تعريفه للإيمان بالله تعالى: «الإيمان بالله: هو التصديق بوجوده تعالى، وأنه لا يجوز عليه العدم، وأنه تعالى موصوف بصفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والحياة، وأنه تعالى منزه عن صفات النقص التي هي أضداد تلك الصفات»[٧].

وقال عن علم الله تعالى: «الله عالم بما كان وبما يكون وبما لا

---

(١) رد الدارمي على المريسي (١/ ٣٠١).
(٢) سورة الأنعام، آية: ٧٣.
(٣) سورة الطلاق، آية: ١٢.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة ح(٦٣٨٢) (١١/ ١٨٧)
(٥) شأن الدعاء للخطابي ص(٥٧).
(٦) انظر: اللمع للأشعري ص(٢٨ـ ٣٢) والإنصاف للباقلاني ص(٣٨، ٣٩).
(٧) المفهم (١/ ١٤٤).

يكون: أن لو كان كيف كان يكون»[١].

وقال أيضًا: «الله تعالى علم مقادير الأشياء وأحوالها، وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا محدث في العالم العلوي والسفلي إلاَّ وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته»[٢].

صفة القدرة:

صفة ذاتية لازمة لله تعالى، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا . . .﴾[٤]. وقال ﷺ: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»[٥]، وقال ﷺ في حديث الاستخارة: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر**»[٦].

والقرطبي أثبت هذه الصفة متابعة للأشاعرة؛ لأنها من الصفات السبع التي يثبتها الأشاعرة، وقد سبق نقل إثبات القرطبي لهذه الصفات، وذلك في صفة العلم.

وقد بين حكم من أنكر هذه الصفة فقال: اختلف في تكفير من اعترف بأن الله قادر بلا قدرة، وعالم بلا علم، ومريد بلا إرادة، فهل يكفر أم لا؟ ولا يختلف المسلمون أن من جهل أو شك في كون الباري تعالى عالمًا به، وقادرًا على إعادته كافر حلال الدم في الدنيا، مخلد في النار في الآخرة؛ لأن ذلك معلوم من الشرع بالضرورة، وجحده أو الشك فيه تكذيب للرسول ﷺ قطعًا»[٧].

---

(١) المفهم (٦/ ٢١٦).
(٢) المفهم (١/ ١٣٢).
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٠.
(٤) سورة الأنعام، آية: ٦٥.
(٥) رواه مسلم في كتاب السلام، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء ح(٢٢٠٢) (١٤/ ٤٣٩).
(٦) سبق تخريجه ص(٣٧٩).
(٧) المفهم (٧/ ٧٥).

صفة الإرادة :

صفة ذاتية لازمة لله تعالى، قال جل وعلا: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾(١)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾(٢). وقال ﷺ: «**إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم**»(٣).

والقرطبي قد أثبت هذه الصفة تبعًا للأشاعرة، بل إن الأشاعرة صرفوا كثيرًا من صفات الله تعالى إلى هذه الصفة، فقالوا عن محبة الله: إنها إرادة إكرام من يحب، وعن غضبه تعالى: إرادة الانتقام، وهكذا.

وقد سبق في صفة العلم والقدرة نقل النصوص عن القرطبي في إثبات هذه الصفة، وفي تكفير من قال: إن الله مريد بلا إرادة.

وقد أنكر القرطبي والمازري تسمية إرادة الله تعالى عزمًا، حيث قال القرطبي: «عزم الله لي. أي: خلق فيَّ قصدًا مؤكدًا، وهو العزم، لا أن إرادة الله تسمى عزمًا لعدم الإذن في ذلك»(٤).

وقال المازري عند قول مسلم «عزم الله لي»: «لا يظن بمسلم أنه أراد لو عزم الله لي عليه لأن إرادة الله سبحانه لا تسمى عزمًا ولعله أراد سهل لي سبيل العزم، أو خلق فيَّ قدرة عليه»(٥).

وقد جاء هذا اللفظ في قول أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ في صحيح مسلم قالت: «. . فلما توفي أبوسلمة قلت: من خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ، ثم عزم الله لي فقلتها(٦). قالت: فتزوجت رسول الله

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٥.
(٢) سورة المائدة، آية: ١.
(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ح(٢٨٧٩) (١٧/ ٢١٥).
(٤) المفهم (٢/ ٥٧).
(٥) المعلم (١/ ١٨٢).
(٦) أي قالت: اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**مامن مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلفني خيرًا منها: إلّا أخلف الله له خيرًا منها**» وهو نفس الحديث =

ﷺ»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وهل يجوز وصفه بالعزم؟ فيه قولان: أحدهما: المنع كقول القاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى. والثاني: الجواز وهو أصح فقد قرأ جماعة من السلف ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٢] بالضم، وفي الحديث الصحيح من حديث أم سلمة: «**ثم عزم الله لي**»، وكذلك في خطبة مسلم: «**فعزم لي**»[٣].

والعزم في حق المخلوقين عقد القلب على إمضاء الأمر، ولا نقول في حق الله كيف؟ بل نثبته على وجه يليق بجلاله وعظمته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[٤][٥].

ولكن مع إثبات الأشاعرة للصفات السبع، فهم لا يتفقون في إثباتهم مع أهل السنة، وذلك أنهم قالوا بنفي حلول الحوادث بذات الله تعالى، أي: نفي ما يتعلق بالله من الصفات الفعلية والاختيارية التي تقوم بذاته، وهذا قالوه بناء على دليل حدوث الأجسام، وأن ما حلت به الحوادث فهو حادث، ووجدوا أن إثبات هذه الصفات ـ عدا الحياة ـ يلزم منه حلول الحوادث بالله؛ لأنه مع وجود المخلوقات توجد معلومات ومرادات ومسموعات ومبصرات ومقدرات، وكذا إذا كلم بعض رسله أو أوحى إليهم، وصلة هذه بالله تعالى يلزم منها ما يسمونه بحلول الحوادث بالله تعالى؛ لأن علم الله بالشيء بعد وجوده ليس هو نفس علمه بعد وجوده، لم يتجدد له فيه نعت ولا صفة، وإلاَّ صار جهلاً، وهكذا بقية الصفات، فحاولوا حل هذه المعضلة ـ بزعمهم ـ بأن قالوا بأزلية هذه الصفات، وأنها لازمة لذات الله أزلاً وأبدًا، وقالوا: إنه لا يتجدد لله عند وجود هذه

= المخرج بعده.

(١) رواه مسلم في كتاب الجنائز باب مايقال عند المصيبة ح(٩١٨) (٦/ ٤٧٦).

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٣) الفتاوى (١٦/ ٣٠٣).

(٤) سورة الشورى، آية: ١١.

(٥) صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة لعلوي السقاف ص(١٨١).

الموجودات نعت ولا صفة، وإنما يتجدد مجرد التعلق بين العلم والمعلوم فقط، ولا شك أن هذا من مخالفة العقل والنقل؛ لأن العلم بالشيء بعد وجوده ليس كالعلم به قبل وجوده، وقد ذكر الله تعالى علمه بما يكون في بضعة عشر موضعًا مع أنه تعالى قد أخبر أن علمه قد أحاط بكل شيء قبل كونه»[١].

وقد رد عليهم شيخ الإسلام بتخبطهم هذا بكلام يطول ذكره[٢].

صفة الكلام :

صفة الكلام من أكثر الصفات التي وقع فيها النزاع والجدل، وابتلي بسببها عدد من أئمة الإسلام إذ ثبتوا على الحق فيها، وما حادوا عن الصواب، فواجهوا بسبب ذلك ما كان سببًا في رفع درجاتهم، وإعلاء مكانتهم، واختلف الناس في هذه الصفة على أقوال، منها:

- ما ذهب إليه المعتزلة والجهمية من أن معنى كون الله تعالى متكلمًا أنه خلق الكلام في غيره، وليس الكلام صفة قائمة به[٣].

- وأما الكلابية والأشاعرة، فأثبتوا صفة الكلام لله عز وجل، وأن كلامه قائم بذاته أزلاً وأبدًا، لا يتعلق بمشيئته وقدرته، وقالوا: إن ذلك الكلام معنى واحد في الأزل هو الأمر بكل مأمور، والنهي عن كل محظور، والخبر عن كل مخبر عنه، فإن عبَّر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبَّر عنه بالعبرانية كان توراة، وإن عبَّر عنه بالسريانية كان إنجيلاً[٤]. فجعلوا صفة الكلام صفة ذاتية لله تعالى، وليست فعلية؛ لأن الله تعالى - بزعمهم - ليس له فعل قائم به، وإنما فعله مفعوله، والمفعول منفصل عنه، وكلام الله ليس منفصلاً عنه[٥].

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٣/ ١٠٥٤).

(٢) انظر: رسالة في تحقيق علم الله، لابن تيمية، جامع الرسائل (١/ ١٧٧)، والفتاوى (٨/ ٨) (١٦/ ٣٠١) والرد على المنطقيين ص(٤٦٥).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٢٣٣، ٢٦٧).

(٤) انظر: الفتاوى لابن تيمية(١٢/ ٥٨٣).

(٥) انظر: الإنصاف للباقلاني ص (٧١) والتبصير في الدين للأسفراييني ص (١٠١).

- وأمَّا أهل السنة، فأثبتوا صفة الكلام صفة ذاتية لله تعالى، وفعلية، بمعنى أنه باعتبار أصله صفة ذاتية؛ لأنه تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته وقدرته[١].

الكلام النفسي:

القرطبي وافق الأشاعرة في قولهم في صفة الكلام، وأنه كلام نفسي ليس بحرف ولا صوت. فعند حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - الذي قال فيه: «**بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلَّا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أقال: لا إله إلَّا الله وقتلته؟ قال: قلت: يارسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا**»[٢].

قال القرطبي: «قوله: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟، أي: أقالها بقلبه، وتكلم بها مع نفسه، ففيه دليل لأهل السنة على أن حديث النفس كلام وقول، فهو رد على من أنكر ذلك من المعتزلة وأهل البدع»[٣].

قلت: هذا ليس قولاً لأهل السنة، بل للأشاعرة المخالفين لأهل السنة في هذه المسألة، وليس في هذا دليل لهم بل عليهم؛ لأن هذا الرجل تكلم بهذه الكلمة، ونطق بها بلسانه، فالمنكر والمسؤول عنه هل اعتقد بقلبه معناها أم أن هذا القول على سبيل الكذب والتمويه، خوفًا من السلاح؟.

قال شيخ الإسلام: «مما لا نزاع فيه أن القول والحديث ونحوهما مع التقييد يضاف إلى النفس والقلب، كما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تجاوز لأمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل**»[٤] لكن النزاع في شيئين: أحدهما: أن الكلام على الإطلاق من غير

---

(١) انظر: القواعد المثلى للشيخ محمدالعثيمين ص(٢٥).

(٢) سبق تخريجه ص(١١٢).

(٣) المفهم (١/٢٩٦).

(٤) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان ح(٦٦٦٤) =

إضافة إلى نفس أو قلب أو نحو ذلك هل هو اسم لمجرد المعنى أو لمجرد الحروف أو لمجموع المعاني والحروف؟ والذي عليه السلف والفقهاء والجمهور أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعًا، وقيل: بل مسماه هو اللفظ، والمعنى ليس جزءًا من مسماه، بل هو مدلول مسماه، وهذا قول كثير من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين للسنة وقيل: بل مسماه هو المعنى وإطلاق الكلام عليه مجازٌ؛ لأنه دالٌّ عليه، وهذا قول ابن كلاب ومن تبعه»[1].

وقال أيضًا: «إذا قيد القول بالنفس كانت دلالة المقيد خلاف دلالة المطلق، والدليل قوله ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتي عمَّا حدَّثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل**»[2].

وهذا ردٌّ عليهم مطلقًا لأنه قال: «ما لم تتكلم» فدل على أن حديث النفس ليس هو الكلام المطلق[3].

أما قول العربي: «كان في نفسي كلام» ونحو ذلك، فلا يُخالفُ في صحته لكن ليس على مراد الأشعرية، إنما على مراد أهل السنة من كون لفظ «الكلام» إذا جاء مقيَّدًا كان التقييد قرينة دالة على إخراجه من إطلاقه حيث قد تُراد به المعاني أو الألفاظ بالقرائن، فلما قيَّده العربي هـٰهُنَا بالنفس أخرجه من مطلق الكلام فكيف تحتج الأشاعرة بما هو مجاز على قواعدهم لتقرير ما هو الحقيقة؟ وذلك أنهم يقولون: ما تصرفه القرائن عن حقيقته إنما هو مجاز[4].

فأهل السنة يرون أن إثبات الكلام النفسي هو إضافة نقص إلى الله تعالى إذ أن الأخرس له خواطر يريد أن يتكلم بها، ولكنه مع ذلك لا

= (١١/٥٥٧) ومسلم في كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس ح(١٢٧) (٢/٥٠٦).

(١) انظر: الفتاوى (٧/ ١٣٤ـ ١٣٦).

(٢) سبق تخريجه ص(٣٨٣).

(٣) انظر: الفتاوى (٧/ ١٣٣).

(٤) العقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبدالله بن يوسف الجديع ص(٣٥١، ٣٥٢).

يستطيع، فالله سبحانه وتعالى منزَّه عن مثل هذا العجز، الذي يعتبر نقصًا في المخلوق، والله تبارك وتعالى منزه عن كل نقص، بل أولى بالتنزه عن ذلك النقص من المخلوق، فهو سبحانه متصف بصفات الكمال، ومتكلم بمشيئته وقدرته وإرادته متى شاء وكيف شاء»[١].

ثم نعلم جميعًا أن المتكلم بالألفاظ والمعاني أكمل ممن يقوم المعنى في نفسه، وهو لا يقدر على التعبير عنه وهذا إن وجد في المخلوق الضعيف كان نقصًا بيِّنًا فكيف تصفون الله بأن كلامه هو المعنى الذي يكون في نفسه، وأن الله عز وجل يفهمه من شاء من خلقه، كما أفهمه جبريل، وجبريل يكون ـ على قولكم هذا ـ أكمل من الله؛ لأنه فهم المعنى، وأمكنه التعبير عنه، تعالى الله عن قولكم علوًّا كبيرًا، بل أي فرق بين الله وبين الآلهة التي لا ترجع إلى عابديها قولاً؟»[٢].

«فالذين قالوا بهذا القول لم يتصوروا ماهيته وعجزوا عن بيانه بتعريف منضبط»[٣].

قال شيخ الإسلام: «الكلام النفساني الذي أثبتُّموه لم تثبتوا ما هو؟ بل ولا تصورتموه وإثبات الشيء فرع تصوره فمن لم يتصور ما يثبته كيف يجوز أن يثبته؟ ولهذا كان أبوسعيد بن كلاَّب ـ رأس هذه الطائفة وإمامها في هذه المسألة ـ لا يذكر في بيانها شيئًا يعقل، بل يقول: هو معنى يناقض السكوت والخرس، والسكوت والخرس إنما يتصوران إذا تصور الكلام، فالساكت هو الساكت عن الكلام، والأخرس هو العاجز عنه، أو الذي حصلت له آفة في محل النطق تمنعه عن الكلام، وحينئذ فلا يعرف الساكت والأخرس حتى يعرف الكلام ولا يعرف الكلام حتى يعرف الساكت والأخرس فتبين أنهم لم يتصوروا ما قالوه ولم يثبتوه»[٤].

---

(١) البيهقي وموقفه من الإلهيات للدكتور أحمد عطية الزهراني ص(٢٠٠).
(٢) العقيدة السلفية في كلام رب البرية، للجديع ص(٣٦٧، ٣٦٨) بتصرف.
(٣) المرجع السابق ص(٣٦٧).
(٤) الفتاوى (٦/ ٢٩٦).

قولهم كلام الله ليس بحرف ولا صوت:

ذهب الأشاعرة إلى القول بأن كلام الله تعالى ليس بحرف ولا صوت، وقالوا: إذا كان المتكلم ذا مخارج سمع كلامه ذا حروف وأصوات، والباري جل ثناؤه ليس بذي مخارج وكلامه ليس بحرف ولا صوت[(١)].

قال القرطبي: «لا خلاف بين أهل السنة في أن موسى سمع كلام الله الذي لا يشبهه كلام البشر الذي ليس بصوت ولا حرف، ولو سمعه بالحرف والصوت لما صحت خصوصية الفضيلة لموسى بذلك إذ قد سمع كلامه تعالى بواسطة الحرف والصوت المشترك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[(٢)]»[(٣)].

وعند شرحه لقوله ـ عليه السلام ـ في بيان كيف يأتيه الوحي: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ**. . .»[(٤)].

قال: «والذي عندي في هذا الحديث: أن هذا تشبيه لأصوات خفق أجنحة الملائكة، فيعني أنها متتابعة متلاحقة، لا أن الله تعالى يتكلم بصوت، فإن كلامه تعالى ليس بحرف ولا صوت كما هو مبرهن عليه في موضعه فإن أراد هذا القائل: أن كلام الله تعالى القائم به صوت يسمع بحاسة الأذن فهو غلط فاحش، وما هذا اعتقاد أهل الحق، وإن أراد: أن الملائكة تسمع كلام ملك آخر يبلغهم عن الله بصوت فصحيح»[(٥)].

سئل شيخ الإسلام عن كلام الله تعالى هل هو بحرف وصوت، أم لا؟ فقال: الصواب الذي عليه سلف الأمة كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح في كتاب خلق أفعال العباد وغيره وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٢٨).

(٢) سورة التوبة، آية: ٦.

(٣) المفهم (١/ ٤٣٣).

(٤) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ح (٢) (١/ ٢٥). ومسلم في كتاب الفضائل باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي ح(٢٣٣٣) (١٥/ ٩٥).

(٥) المفهم(٦/ ١٧١).

اتباع النصوص الثابتة، وإجماع سلف الأمة، وهو أن القرآن جميعه كلام الله حروفه ومعانيه، ليس شيء من ذلك كلامًا لغيره، ولكن أنزله على رسوله، وليس القرآن اسمًا لمجرد المعنى، ولا لمجرد الحرف بل لمجموعهما، وكذلك سائر الكلام، ليس هو الحرف فقط، ولا المعنى فقط... وأن الله يتكلم بصوت كما جاءت به الأحاديث الصحاح»[١].

وقد نصَّ أئمة الإسلام أحمد ومن قبله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسنة من أن الله ينادي بصوت، وأن القرآن كلامه تكلم به بحرف وصوت، ليس منه شيء كلامًا لغيره لا جبريل ولا غيره»[٢].

فقول الأشاعرة هذا ليس عليه دليل سوى زعمهم أن إثبات الصفة يقتضي تشبيه الله تعالى بخلقه؛ لأن الحرف والصوت من صفات كلام المخلوقين.

وأهل السنة يثبتون هذه الصفة لله تعالى من غير تشبيه له بخلقه، ويبطلون زعم الأشاعرة أن إثبات الصوت يلزم منه إثبات المخارج وغير ذلك من اللوازم الباطلة التي نطقوا بها.

وقد ردَّ عليهم الإمام أحمد في هذه المسألة فقال: «أما قولهم: إن الكلام لا يكون إلاَّ من جوف وفم وشفتين ولسان، أليس الله قال للسموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[٣] وقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾[٤] أتراها سبحت بجوف وفم ولسان وشفتين؟ والجوارح إذا شهدت على الكافر فقالوا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[٥] أتراها أنها نطقت بجوف وفم ولسان، ولكن الله أنطقها كيف شاء من غير أن يقول بجوف ولا فم ولا شفتين ولا لسان»[٦].

---

(١) الفتاوى (١٢/ ٢٤٣، ٢٤٤).
(٢) المرجع السابق (١٢/ ٥٨٤).
(٣) سورة فصلت، آية: ١١.
(٤) سورة الأنبياء، آية: ٧٩.
(٥) سورة فصلت، آية: ٢١.
(٦) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ص(٣٥).

فهذه النصوص تدل على أن المتكلم ليس من شرطه أن يكون ذا مخارج فبطل ما زعموا.

أما قول القرطبي لو كان سمع موسى كلام الله تعالى بحرف وصوت لم تكن له خصوصية إذ قد سمعه بحرف وصوت جميع الناس ثم استدل بالآية على ما سبق ذكره.

فيقال: «موسى عليه السلام وحده هو الذي سمع كلام الله تعالى بحرف وصوت، والخطأ في عدم التفريق بين كلام الله تعالى وبين الأصوات المسموعة من القراء كما هو فهم الأشاعرة حيث حسبوا أهل السنة بإثباتهم لكلام الله تعالى بصوت يقولون: إن أصوات التالين هي صفة كلام الله وأهل السنة يقولون: أن أصوات القراء بالقرآن من أفعالهم وهي مضافة إليهم، وأفعالهم مخلوقة فأصوات القراء ليست صفة لكلام الله. ولكن الصوت الذي هو صفة لكلام الله تعالى هو الذي سمعه موسى عليه السلام حين ناداه ربه وكلَّمه وسمعه جبريل ـ عليه السلام ـ حين يوحي إليه بالوحي ويسمعه العباد يوم القيامة»[١].

قال شيخ الإسلام: «كثير من الخائضين في هذه المسألة لا يفرق بين صوت العبد وصوت الرب، بل يجعل هذا هو هذا، فينفيهما جميعًا أو يثبتهما جميعًا، والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه، ونادى موسى بصوت نفسه، كما ثبت بالكتاب والسنة، وإجماع السلف، وصوت العبد ليس هو صوت الرب، فالعباد يقرؤونه بأصوات أنفسهم، وأفعالهم، فالصوت المسموع من العبد صوت القارىء، والكلام كلام البارىء. وقد قال ﷺ: «**زيِّنوا القرآن بأصواتكم**»[٢] فبين أن الصوت صوت القارىء والكلام كلام البارىء كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[٣] وهو سبحانه نادى موسى بصوت سمعه موسى، قال

---

(١) انظر: العقيدة السلفية ص(٣٨٢، ٣٨٣).

(٢) رواه أبوداود في أبواب الوتر، باب كيف يستحب الترتيل في القرآن، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ص (٦٦٩)برقم (٣٥٨٠).

(٣) سورة التوبة، آية: ٦.

تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤﴾[٢]، ففرق بين إيحائه للنبيين وبين تكليمه لموسى، فمن قال إن موسى لم يسمع صوتًا، بل ألهم معناه لم يفرق بين موسى وغيره، قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾[٤] فقد فرّق بين الإيحاء والتكلم من وراء حجاب، كما كلم الله موسى، فمن سوّىٰ بين هذا وهذا كان ضالاً»[٥].

وخاتمة المطاف أن نعلم أن السلف يثبتون أن الله تعالى يتكلم بصوت يسمع كما دلَّت عليه النصوص من الكتاب والسنة، وأن صوته سبحانه لا يشبه أصوات خلقه كما أن ذاته لا تشبه ذواتهم ومن قال بغير هذا فقد ضل سواء السبيل.

صفتا السمع والبصر:

السمع والبصر صفتان ذاتيتان ثابتتان لله عز وجل بالكتاب والسنة والعقل والفطرة، وإجماع الأمة، ولم يخالف في ذلك إلاَّ شواذ من المنحرفة كالجهمية وبعض المعتزلة[٦]. قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝١٣٤﴾[٧] وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[٨].

وأخرج أبوداود في سننه عن أبي يونس مولى أبي هريرة، قال: سمعت أباهريرة يقرأ هذه الآية: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾

(١) سورة النازعات، آية: ١٥.
(٢) سورة النساء، آية: ١٦٤.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٥٣.
(٤) سورة الشورى، آية: ٥١.
(٥) الفتاوى (١٢/ ٥٨٣، ٥٨٨) بتصرف.
(٦) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ١٨٢).
(٧) سورة النساء، آية: ١٣٤.
(٨) سورة الشورى، آية: ١١.

إلى قوله: ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾[١] قال: رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهَامَهُ على أُذُنِهِ والتي تليها على عينه قال أبوهريرة: **رأيت رسول الله ﷺ يقرؤُها ويضعُ إصبعيه** قال ابن يونس: قال المقري: يعني أن الله سميع بصير: يعني أن لله سمعًا وبصرًا»[٢].

قال أبوداود ـ بعد ذكره للحديث ـ: «وهذا ردٌّ على الجهمية».

وقال البيهقي: «أراد بهذه الإشارة تحقيق إثبات السمع والبصر لله ببيان محلهما من الإنسان يريد أن له سمعًا وبصرًا، لا أن المراد به العلم، فلو كان كذلك لأشار إلى القلب؛ لأنه محل العلم، ولم يرد بذلك الجارحة[٣] فإن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقين»[٤].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «فإذا نطق الكتاب العزيز ووردت الأخبار الصحيحة بإثبات السمع والبصر، والعين، والوجه، والعلم، والقوة، والقدرة، والعظمة، والمشيئة، والإرادة، والقول، والكلام، والرضى، والسخط، والحب، والبغض، والفرح، والضحك، وجب اعتقاد حقيقته من غير تشبيه بشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، والانتهاء إلى ما قاله الله ـ سبحانه وتعالى ـ ورسوله ﷺ من غير إضافة ولا زيادة عليه ولا تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف، ولا تبديل ولا تغيير، وإزالة لفظ عما تعرفه العرب، وتصرفه عليه، والإمساك عما سوى ذلك»[٥].

قال القرطبي في إثبات صفتي السمع والبصر: «نقول: إن الله تعالى

---

(١) سورة النساء، آية: ٥٨.

(٢) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب الجهمية وقال الحافظ ابن حجر سنده قوي على شرط مسلم، انظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٥) وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود: صحيح الإسناد (٣/ ١٩٥).

(٣) الأولى: ترك مثل هذه العبارة لأنها ليست من عبارات السلف الذين يثبتون الصفات لله تعالى من غير تشبيه ولا تعرض لمثل هذه العبارات.

(٤) انظر: الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٤٦٣).

(٥) العقائد لابن كثير نقلاً عن كتاب «علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين» للدكتور رضا نعسان ص(٨٢).

يدرك المدركات ويبصر المبصرات ويسمع المسموعات على الوجه اللائق بجماله وكماله وتقدسه عن شبه المخلوقات»[١].

والأشاعرة وإن وافقوا أهل السنة في إثبات السمع والبصر، إلاَّ أنهم يخالفونهم في قولهم إنه يسمع المسموعات ويبصر المبصرات بسمع واحد قديم، وأنه لا يتجدد له سمع ولا بصر عند حدوث المسموعات والمبصرات، وإنما يتجدد التعلق، وهذا قولهم في جميع الصفات التي يثبتونها[٢]، وذلك بناءً على أصلهم في امتناع قيام الحوادث بذاته؛ لأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث كما زعموا، وهذا أصل فاسد التزموا لأجله بنفي قيام الأفعال الاختيارية بذات الله تعالى، كالاستواء والنزول والفرح والضحك وغيرها. قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «قد دلَّ الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة، ودلائل العقل على أنه سميع بصير، والسمع والبصر لا يتعلق بالمعدوم فإذا خلق الأشياء رآها سبحانه وإذا دعاه عباده سمع دعاءهم وسمع نجواهم كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾[٣] أي تشتكي إليه وهو يسمع التحاور ـ والتحاور تراجع الكلام ـ بينها وبين الرسول ـ عليه السلام ـ فالله تعالى إذا خلق العباد وعملوا وقالوا: فإما أن نقول إنه يسمع أقوالهم ويرى أعمالهم، وإما لا يرى ولا يسمع فإن نفى ذلك فهو تعطيل لهاتين الصفتين وتكذيب للقرآن، وهما صفتا كمال لا نقص فيه»[٤].

«فأهل السنة والجماعة يثبتون لله سمعًا وبصرًا أزليين يسمع ويبصر بهما كل مسموع وكل مبصر عند حدوثه وهذا هو الحق الذي يدل عليه الكتاب والسنة ويقبله العقل السليم»[٥].

---

(١) المفهم (٣/ ٢١٥).

(٢) انظر: الفرق بين الفرق ص (٣٣٤) والإنصاف للباقلاني ص (٣٨، ٣٩).

(٣) سورة المجادلة، آية: ١.

(٤) انظر: الرد على المنطقيين ص(٤٦٥) و الفتاوى (٦/ ٢٢٨).

(٥) انظر: جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ١٥ـ ١٧).

صفة العلو:

علو الله تعالى من أعظم صفاته التي تضافرت على إثباتها الأدلة من الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة. إلاَّ أن آثار علم الكلام الذي شوَّه صفاء العقيدة وغير سلامة الفطرة جعل بعض من ركب علم الكلام وخاض في هذه الأوهام ينكر علو الله تعالى، ويصرف ما جاء في ذلك من النصوص إلى علو القهر أو الشأن.

وهذا ما ذهب إليه القرطبي والمازري تبعًا لمتأخري الأشاعرة في نفيهم لعلو الله تعالى. ولا شك أن الكتاب والسنة والعقل والفطرة يشهد بضد ما ذهبوا إليه وما قالوا به.

ويتبين هذا من تكلفهم في تأويل النصوص وحيرتهم من كثرة الأدلة.

ومن أصرح الأدلة وأوضحها في إثبات علو الله تعالى حديث الجارية، إلاَّ أن القرطبي ـ رحمه الله ـ تكلَّف في تأويله وأجهد نفسه في ذلك، ويتضح هذا من خلال كلامه عليه حيث قال: «قوله ﷺ للجارية: «**أين الله؟**»[1] هذا السؤال من النبي ﷺ تنزل مع الجارية على قدر فهمها إذ أراد أن يُظهر منها ما يدل على أنها ليست ممن يعبد الأصنام ولا الحجارة التي في الأرض، فأجابت بذلك، وكأنها قالت: إن الله ليس من جنس ما يكون في الأرض و«أين» ظرف يسأل به عن المكان... وهو لا يصح إطلاقه على الله تعالى بالحقيقة إذ الله تعالى منزه عن المكان كما هو منزه عن الزمان، بل هو خالق الزمان والمكان، ولم يزل موجودًا ولا زمان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، ولو كان قابلاً للمكان لكان مختصًّا به، ويحتاج إلى مخصص، ولكان فيه إما متحركًا وإما ساكنًا، وهما أمران حادثان، وما يتصف بالحوادث حادث، ولما صدق قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[2] إذ كانت تماثله الكائنات في أحكامها، والممكنات في إمكانها، وإذا ثبت ذلك ثبت أن النبي ﷺ إنما أطلقه على الله بالتوسع والمجاز لضرورة إفهام

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب تحريم الكلام في الصلاة ح(٥٣٧) (٥/٢٣).

(٢) سورة الشورى، آية: ١١.

المخاطبة القاصرة الفهم الناشئة مع قوم معبوداتهم في بيوتهم فأراد النبي ﷺ أن يتعرف منها هل هي ممن يعتقد أن معبوده في بيت الأصنام أم لا؟ فقال لها: أين الله؟ فقالت: في السماء، فقنع منها بذلك، وحكم بإيمانها إذ لم تتمكن من فهم غير ذلك، وإذ نزهت الله تعالى عن أن يكون من قبيل معبوداتهم وأصنامهم ورفعته عن أن يكون في مثل أمكنتهم، وحملها على ذلك أنها رأت المسلمين يرمقون أبصارهم وأيديهم إلى السماء عند الدعاء فتُركت على ذلك في تلك الحال لقصور فهمها، إلى أن يتمكن فهمها وينشرح صدرها، إذ لو قيل لها في تلك الحال: الله يستحيل عليه المكان والزمان، لخيف عليها أن تعتقد النفي المحض والتعطيل، إذ ليس كل عقل يقبل هذا ويعقله على وجهه، بل إنما يعقله العالمون الذين شرح الله صدورهم لهدايته، ونور قلوبهم بنور معرفته، وأمدهم بتوفيقه ومعونته، وأكثر الخلق تغلب عليهم الأوهام وتكلّ منهم الأفهام، وقيل في تأويل هذا الحديث: إن النبي ﷺ سألها بـ«أين» عن الرتبة المعنوية التي هي راجعة إلى جلاله تعالى، وعظمته التي بها باين كل من نسبت إليه الإلهية، وهذا كما يقال: أين الثريا من الثرى؟! والبصر من العمى؟! أي: بعد ما بينهما واختصت الثريا والبصر بالشرف والرفعة، وعلى هذا يكون قولها «في السماء» أي في غاية العلو والرفعة، وهذا كما يقال: فلان في السماء ومناط الثريا وهذا كما قال:

وإن بني عوفٍ كما قد علمتم مناط الثُّرَيَّا قد تعالت نُجُومها[1]

أقول هذا والله ورسوله أعلم والتسليم أسلم.

تنبيه: ثم اعلم أنه لا خلاف بين المسلمين قاطبةً محدِّثِهم وفقيههم ومتكلمهم ومقلدهم ونُظَّارهم أن الظواهر الواردة بذكر الله تعالى في السماء كقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[2] ليست على ظاهرها وأنها متأولة عند جميعهم أما من قال منهم بالجهة فتلك الجهة عنده جهة الفوق التي عبر عنها بالعرش وهي فوق السموات كما جاء في الأحاديث فلابد أن يتأول

(١) لم أقف عليه.
(٢) سورة الملك، آية: ١٦.

كونه في السماء، وقد تأولوا تأويلات وأشبه ما فيه: أن في: بمعنى: على كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[١] أي: على جذوع النخل ويكون العلو بمعنى الغلبة، وأما من يعتقد نفي الجهة في حق الله تعالى، فهو أحق بإزالة ذلك الظاهر وإجلال الله تعالى عنه وأولى الفرق بالتأويل، وقد حصل من هذا الأصل المحقق: أن قول الجارية «في السماء» ليس على ظاهره باتفاق المسلمين فيتعين أن يعتقد فيه أنه مُعرَّضٌ لتأويل المتأولين وأن من حمله على ظاهره فهو ضالٌّ من الضّالين»[٢].

ومع صراحة هذا الحديث وسؤال الرسول ﷺ للجارية بأين، إلاَّ أن القرطبي أنكر جواز ذلك، فقال: «الله يحكم ما يشاء... فلا يتوجه في فعله لم وكيف؟ كما لا يتوجه عليه في وجوده أين»[٣].

وقد نقل هذا الكلام الحافظ ابن حجر في فتح الباري، وسكت عنه، وتعقبه الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه الله ـ فقال: «الصواب عند أهل السنة وصف الله سبحانه بأنه في جهة العلو، وأنه فوق العرش، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة، ويجوز عند أهل السنة السؤال عنه بأين كما جاء في صحيح مسلم»[٤].

وكذا المازري نفى علو الله تعالى عند شرحه لهذا الحديث فقال: «إنما أراد النبي ﷺ أن يتطلب دليلاً على أنها موحدة فخاطبها بما تفهم به قصده، إذ من علامات الموحدين التوجه إلى السماء عند الدعاء، وطلب الحوائج؛ لأن العرب التي تعبد الأصنام تطلب حوائجها من الأصنام والعجم من النيران، فأراد ﷺ الكشف عن معتقدها: هل هي من جملة من آمن؟ فأشارت إلى السماء وهي الجهة المقصودة عند الموحدين، كما ذكرنا، وقيل: إنما وجه السؤال بـ«أين» هٰهنا سؤال عما تعتقده من جلال الباري وعظمته وإشارتها إلى السماء إخبار عن جلالته تعالى في نفسها،

---

(١) سورة طـه، آية: ٧١.
(٢) المفهم (٢/ ١٤٢ـ ١٤٥) وانظر: (٣/ ١١١) (٤/ ٣٠٥).
(٣) المفهم (٦/ ٢١٦).
(٤) فتح الباري (١/ ٢٦٦). هامش (١).

والسماء قبلة الداعين، كما أن الكعبة قبلة المصلين، فكما لم يدل استقبال الكعبة على أن الله جلَّت قدرته فيها لم يدل التوجه إلى السماء والإشارة على أن الله سبحانه حالٌّ فيها»[١].

فالقرطبي والمازري نفيا علو الله تعالى، وهو في الحديث نصٌّ صريح لا يقبل التأويل والعجب من كلام القرطبي هذا؛ إذ مضمونه: أن إجابة الجارية: باطل وضلال، وكيف يرضى الرسول ﷺ بإقرارها على هذا الباطل هي ومن حضر أو نقل له هذا الحديث إلى قيام الساعة، وهو عليه الصلاة والسلام الذي بُعث لدفع الباطل وإقرار الحق ونشره وتصحيح تصورات العباد في ربهم تعالى.

مع ما كان عليه ﷺ من إنكار المنكر وعدم التواني في ذلك، ولذا عد العلماء إقراره ﷺ وسكوته من التشريع، ولكن الذي دفع القرطبي لهذا القول ـ المخالف للقواعد والأصول والذي يُعرَفُ ضلاله ببداهة العقول ـ التزامه بالقواعد الفاسدة التي رتبها المتكلمون لنفي صفات الله تعالى كما صرح بذلك في كثير من المواضع، ثم قوله هنا مخالف لما قرره عند رده على المتكلمين في قولهم بأن أول واجب على العبد النظر، حيث بين فساد قولهم ولازمه تكفير عامة المسلمين؛ لأنهم ليس عندهم أهلية النظر التي قصرها المتكلمون على أصحاب العقل والفهم. وهذا ما وقع فيه هنا إذ بين أن قول الجارية ضلال وأن الحق بضده، ولكن تقصر عامة العقول والأفهام عن معرفته فلا يقبله أو يفهمه كل عقل بل هو مقصور على العلماء دون أكثر الخلق. وهذا كقول المتكلمين في مسألة أول واجب على المكلف، إذ معنى قوله هذا أن عامة الخلق على ضلال في اعتقادهم بالله تعالى، وأن الرسول ﷺ أقرهم على هذا الضلال ـ حاشاه ﷺ من ذلك ـ.

وأمَّا قوله: إن إثبات هذا يقتضي مشابهة المخلوقات، وأن الله تعالى لو كان قابلاً للمكان لكان مختصًا به ويحتاج إلى مخصص وأيضًا يقتضي وصف الله تعالى بالحوادث، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، وغيرها

---

(١) المعلم(١/ ٢٧٥).

من قواعد المتكلمين، فقد سبق الإجابة عليها بالتفصيل، فلتراجع.

وأما قوله: «إن هذا من باب التوسع والمجاز» فهو باطل؛ إذ المجاز عندهم هو قسيم الحقيقة أي: بمعنى الشيء المقابل للحقيقة، والقول بالمجاز قول محدث، قد حدث بعد القرون المفضلة، وكان منشؤه من جهة المعتزلة، كما نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

وقد سبق الرد عليهم في قولهم بالمجاز. فجعل هذا من المجاز تأويل منافٍ لسياق الكلام والأدلة كثيرة وصريحة على علو الله تعالى وفوقيته.

وأما تأويل هذا على أن المراد به علو الرتبة المعنوية[١]، فلا يسلم له؛ لأن أهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالى العلو بأقسامه الثلاثة: علو الشأن، وعلو القهر، وعلو الفوقية (علو الذات)، فيعتقدون أن الله تعالى في السماء فوق جميع المخلوقات، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، عالٍ عليهم غير مختلط بهم.

وألفاظ العلو لم تستعمل في القرآن عند الإطلاق، إلاَّ في معنى علو الذات، وهذا المعنى مستلزم لمعاني العلو الأخرى»[٢].

وقد بسط العلماء ـ رحمهم الله ـ أدلة العلو في كتبهم فقد نقل شيخ الإسلام عن بعض أكابر الإمام الشافعي أنه قال: «في القرآن ألف دليل أو أزيد تدل على أن الله تعالى عالٍ على الخلق، وأنه فوق عباده، وقال غيره: فيه ثلاثمائة دليل تدل على ذلك»[٣].

وقد ذكر ابن القيم في «الصواعق المرسلة» ثلاثين دليلاً من أدلة العقل والفطرة على علو الله تعالى[٤].

قال الإمام الدارمي: «فالله تبارك وتعالى فوق عرشه فوق سمواته، بائن من خلقه، فمن لم يعرفه بذلك لم يعرف إلهه الذي يعبد، وعلمه من

---

(١) وانظر: أيضًا المفهم (١/ ٤٠٥).

(٢) انظر: الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٣٥٩).

(٣) الفتاوى لابن تيمية (٥/ ١٢١).

(٤) الصواعق المرسلة لابن القيم(٤/ ١٢٧٩ـ ١٣٤٠).

فوق العرش بأقصى خلقه وأدناهم واحد، لا يبعد عنه شيء.. والآثار في ذلك عن رسول الله ﷺ كثيرة، والحجج متظاهرة والحمد لله على ذلك»[(١)].

وقال ابن قدامة: «فإن الله تعالى وصف نفسه بالعلو في السماء، ووصفه بذلك رسوله ﷺ خاتم الأنبياء، وأجمع على ذلك جميع العلماء من الصحابة الأتقياء والأئمة الفقهاء، وتواترت الأخبار بذلك على وجه حصل به اليقين وجمع الله تعالى عليه قلوب المسلمين، وجعله مغروزًا في طباع الخلق أجمعين، فتراهم عند نزول الكرب بهم يلحظون السماء بأعينهم، ويرفعون نحوها للدعاء أيديهم، وينظرون مجيء الفرج من ربهم ينطقون بذلك بألسنتهم»[(٢)].

وقال ابن تيمية: «فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص، وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى، وهو فوق كل شيء، وهو على كل شيء، وأنه فوق العرش وأنه فوق السماء»[(٣)].

فمن الأدلة على علو الله تعالى من الكتاب: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[(٥)]، وقوله عز وجل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾[(٦)]، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[(٧)]، والآيات في هذا كثيرة.

ومن السنة حديث الجارية السابق، وقوله ﷺ: **«ألا تأمنونني وأنا أمين**

---

(١) الرد على الجهمية للدارمي ص(٤٧).
(٢) إثبات صفة العلو لابن قدامة ص(٤١).
(٣) الفتاوى (٥/ ١٢).
(٤) سورة الأنعام، آية: ١٨.
(٥) سورة النحل، آية: ٥٠.
(٦) سورة الملك، آية: ١٦.
(٧) سورة فاطر، آية: ١٠.

من في السماء»[١].

ومنها حديث المعراج الطويل، وفيه تجاوز النبي ﷺ سماءً سماءً، حتى انتهى إلى ربه تعالى، فقرَّبه وأدناه، وفرض عليه خمسين صلاة، فلم يزل يتردد بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين ربه ـ تبارك وتعالى ـ ينزل من عند ربه إلى موسى فيسأله كم فرض عليه، فيخبره، فيقول: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فيصعد إلى ربه فيسأله التخفيف[٢]. فهذه النصوص وغيرها قد تضافرت مع دلالة العقل والفطرة[٣] على إثبات علو الله تعالى على خلقه.

وأما قوله باتفاق المسلمين على أن الظواهر الواردة بذكر الله تعالى في السماء ليست على ظاهرها، فهذه الشبهة هي التي جعلتهم ينفون علو الله تعالى وفوقيته مع اعترافهم بأن جهة العلو أشرف من غيرها، وذلك أنهم تصوروا أن النصوص التي نطقت بأن الله في السماء تدل بظاهرها على أنه تعالى مظروف في جوف السماء، فشبهوه بمخلوق داخل مخلوق آخر[٤]. فأرادوا أن يفروا من هذا التشبيه الذي أوقعهم فيه سوء الفهم، فوقعوا في التعطيل.

قال القرطبي: «مذهب أهل الحق والتحقيق أنهم يحيلون على الله تعالى أن يكون في السماء أو في الأرض إذ لو كان في شيء لكان محصورًا محدودًا ولو كان كذلك لكان محدثًا وعلى هذه القاعدة فقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[٥] وقول الأمة للنبي ﷺ حين قال لها: «أين الله؟» فقالت: «في السماء» ولم ينكر عليها ذلك، وما قد روي عن بعض السلف

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي باب بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ح(٤٣٥١)(٧/ ٦٦٥) ومسلم في كتاب الزكاة باب ذكرالخوارج وصفاتهم ح(١٠٦٤) (٧/ ١٦٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات ح(١٦٢) (٢/ ٥٦٧).

(٣) انظر: الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٦٠) (٥/ ١٥٢، ٢٧٥، ٢٧٦).

(٤) الصفات لإلٰهية لمحمد أمان الجامي ص(٢٣٥).

(٥) سورة الملك، آية: ١٦.

أنهم كانوا يطلقون ذلك ليس على ظاهره بل هو مؤول تأويلات صحيحة قد أبدأها كثير من أهل العلم في كتبهم لكن السلف ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ كانوا يجتنبون تأويل المتشابهات ولا يتعرضون لها مع علمهم بأن الله تعالى يستحيل عليه سمات المحدثات ولوازم المخلوقات»[١].

فالنصوص لا تدل على ما فهموا، بل تدل على ما يليق بالله تعالى، وقد ردَّ شيخ الإسلام هذه الشبهة، فقال: «من توهم كون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب ـ إن نقله عن غيره ـ ضال ـ إن اعتقده في ربه ـ وما سمعنا أحدًا يفهم هذا من اللفظ، ولا رأينا أحدًا يفهم هذا من اللفظ، ولا رأينا أحدًا نقله عن واحد، ولو سئل سائر المسلمين، هل تفهمون من قول الله ورسوله: «إن الله في السماء» أن السماء تحويه؟ لبادر كل واحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا، وإذا كان الأمر هكذا، فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئًا محالاً لا يفهمه الناس منه، ثم يريد أن يتأوله بل عند الناس «أن الله في السماء» و«هو على العرش» واحد، إذ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنى أن الله في العلو لا في السفل، وقد علم المسلمون أن كرسيه سبحانه وتعالى وسع السموات والأرض، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبه له إلى قدرة الله وعظمته، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقًا يحصره ويحويه؟ وقد قال سبحانه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[٢] وقال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[٣] بمعنى «على» ونحو ذلك، وهذا كلام عربي حقيقة لا مجازًا، وهذا يعلمه من عرف حقائق معاني الحروف، وأنها متواطئة في الغالب لا مشتركة[٤].

ولهذه الشبهة التي انقدحت في أذهانهم ذهب القرطبي إلى نفي العلو وتأويل كل دليل يدل عليه.

---

(١) المفهم(١/ ٣٣٥).

(٢) سورة طه، آية: ٧١.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٧.

(٤) الفتاوى (٥/ ١٠٦).

فعند شرحه لقوله ﷺ: «**يُرفَعُ إليه عَمَلُ الليل قبل عَمَلِ النهار، وعمل النهار قبلَ عملِ الليل**»[١] وهو من أدلة العلو. قال: «قوله: «يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل» يعني: أن الملائكة الموكلين بنا تحصى علينا عمل اليوم، فترفعه في آخره لقرب الليل وكذلك في الليل ترفعه بقرب النهار، ولذلك جاء في الرواية الأخرى «يُرفع إليه عملُ الليل بالنهار وعمل النهار بالليل» فجعل الباء مكان «قبل» وهذا الحديث كقوله «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار**»[٢] والهاء في «إليه» عائدة إلى الله تعالى لكن على طريقة حذف المضاف والمراد به: المحل الذي تنتهي الملائكة إليه بأعمال العباد، ولعله سدرة المنتهى، وهذا كما تقول: رفع المال إلى الملك أي: إلى خزائنه، وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[٣] وقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[٤] أي: مقاماتهم في حضرته وإنما احتجنا إلى إبداء هذا التأويل، لئلا يتخيل الجاهل أنه مختص بجهة فوق، فيلزمه التجسيم، ويكفيك مما يدل على نفي الجهة في حقه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٥]»[٦].

وهذه التأويلات التي ذكرها القرطبي لهذه النصوص باطلة؛ لأنها خروج بالنصوص عن حقيقتها إلى معانٍ فاسدة لا تحتملها من دون دليل، ولا صحيح تعليل، دفعه لذلك دعوى التنزيه وعدم الوقوع في التشبيه، وهي دعوى ساقطة، الأدلة بضدها وأهل السنة والجماعة أثبتوا علو الله تعالى بهذه الأدلة وبغيرها من النصوص الكثيرة التي يقف أمامها أهل التأويل في

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب في قوله عليه السلام«إنَّ الله لاينام» وفي قوله «حجابه النور» ح(١٧٩) (٣/ ١٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة العصر ح(٥٥٥) (٢/ ٤١) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما ح(٦٣٢) (٥/ ١٣٨).

(٣) سورة فاطر،آية: ١٠.

(٤) سورة المعارج، آية: ٤.

(٥) سورة الحديد،آية: ٤.

(٦) المفهم (١/ ٤١٠).

حيرة من كثرتها وصراحتها على ما ينفون. بل الفطرة دالة على علو الله تعالى على خلقه لأن الله تبارك وتعالى فطر الخلق كلهم، العرب والعجم، حتى البهائم على الإيمان به، وبعلوه، فما من عبد يتوجه إلى ربه بدعاء أو عبادة، إلاَّ وجد من نفسه ضرورة بطلب العلو، وارتفاع قلبه إلى السماء لا يلتفت إلى غيره يمينًا، ولا شمالاً، ولا ينصرف عن هذه الفطرة، إلاَّ من اجتالته الشياطين والأهواء، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الجارية التي سألها «أين الله؟» فقالت: في السماء، مؤمنة؛ لأنها لم تقل إلاَّ الحق، وكان أبوالمعالي يقول في مجلسه: كان الله ولا شيء، وهو الآن على ما كان عليه ـ يعرِّض بإنكار استواء الله على عرشه ـ فقال أبوجعفر الهمذاني[1]: دعنا من ذكر العرش ـ أي لأنه ثبت بالسمع ـ وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ما قال عارف قط: يا الله إلاَّ وجده من قلبه ضرورة بطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف تدفع هذه الضرورة من قلوبنا فصرخ أبوالمعالي ولطم رأسه وقال: حيَّرني الهمذاني حيرني الهمذاني»[2].

ولهذا كان ﷺ في خطبة حجة الوداع يرفع بإصبعه «السبابة» إلى السماء وينكبها إلى الناس ويقول: «**اللهم اشهد اللهم اشهد**»[3] وكان ﷺ كثيرًا ما يرفع يديه عند الدعاء، فجعل العلماء هذا من الأدلة الفطرية الشرعية على علو الله تعالى، ولكن القرطبي أوَّلَ هذا كغيره من الأدلة حيث قال عند شرحه لحديث أبي بردة ـ رضي الله عنه ـ الذي قال فيه: «**ثم دعا رسول الله ﷺ بماءٍ فتوضأ منه ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه**»[4].

قال القرطبي: «قوله: ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه» دليل على استحباب الرفع عند الدعاء، وقد فعل النبي ﷺ ذلك يوم بدر، وفي

---

(١) محمد بن أبي الحسن بن محمد الهمذاني أبو جعفر إمام حافظ رحل كثيرًا في طلب العلم قال الذهبي: كان من أئمة أهل الأثر ومن كبراء الصوفية توفي سنة(٥٣١هـ). سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٠١). شذرات الذهب (٤/ ٩٧).

(٢) شرح الطحاوية (٢/ ٣٩٠).

(٣) رواه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ ح(١٢١٨) (٨/ ٤٢٠).

(٤) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين رضي الله عنهما ح(٢٤٩٨) (١٦/ ٢٩٢).

الاستسقاء، وقد رويت كراهية ذلك عن مالك، ويمكن أن يقال: إنما كره أن يتخذ ذلك سنة راتبة على أصله في هذا الباب، أو مخافة أن يعتقد الجهال مكانًا لله تعالى، والذي يزيل هذا الوهم: أن يقال: لا يلزم من مدِّ الأيدي إلى السماء أن يكون مكانًا لله ولا جهة كما لا يلزم من استقبال الكعبة أن يكون الله تعالى فيها، بل السماء قبلة الدعاء، كما أن الكعبة قبلة الصلاة[1]. وقال عن الحديث الأول: هذه الإشارة منه ﷺ إلى السماء؛ لأنها قبلة الدعاء، وإما لعلو الله المعنوي؛ لأن الله تعالى لا يحويه مكان، ولا يختص بجهة[2].

وقد أجاب عن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بجواب مفصل اشتمل على أربعين وجهًا ـ وصلت إلينا في الجزء المطبوع من نقض التأسيس ـ. والحمد لله.

وقد ركَّز شيخ الإسلام في هذه الأوجه على بيان أن الاستدلال برفع الأيدي والأبصار إلى السماء عند الدعاء إنما هو حجة أهل الإثبات من السلف والخلف، وإن من هؤلاء الأشعري، وأئمة أصحابه، وقد نقل شيخ الإسلام كلامهم في ذلك فالمعترض إنما يعترض على شيوخه الأشاعرة، وهم باستدلالهم يردون عليه، والإشارة إلى الله في العلو باليد، والأصابع، أو العين، أو الرأس، قد تواترت به السنن عن الرسول ﷺ، والنهي عن رفع البصر في الصلاة؛ لأنه من باب الخشوع الذي أثنى الله على أهله، ولو كان الله ليس في الفوق، بل هو في السفل كما هو في الفوق لم يكن رفع البصر إلى السماء ينافي الخشوع بل يكون بمنزلة خفضها.

والناس على اختلاف عقائدهم وأديانهم يشيرون عند الدعاء إلى السماء؛ لأن هذا شيء يجدونه في فطرهم.

ودعوى أن السماء قبلة الدعاء كالكعبة قبلة للصلاة باطل معلوم بالاضطرار بطلانه من وجوه منها أن المسلمين مجمعون على أن قبلة الداعي

---

(١) المفهم (٦/ ٤٥٠).

(٢) المفهم (٣/ ٣٣٥).

هي قبلة الصلاة، ومنها أن كون السماء أو العرش قبلة لا يثبت بغير الشرع، وليس في النصوص أي دليل على ذلك، ومنها أن القبلة أمر يدخله النسخ ولذلك تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ولو كانت القبلة هي العرش أو السماء لجاز تغييرها وتبديلها ولجاز أن يدعو الإنسان ربه إلى سائر الجهات، وهذا فضلاً عن أنه باطل فإن العباد مفطورون على أن لا يتوجهوا إلا إلى جهة العلو، ومنها: أن القبلة ما يستقبله الإنسان بوجهه أما ما يرفع الإنسان إليه يده أو رأسه أو بصره، فهذا باتفاق الناس لا يسمى قبلة، ومعلوم أن مستقبل القبلة يستدبر ما يقابلها، أما الداعي فإنه لا يكون مستقبلاً للسماء مستدبرًا للأرض، بل يكون مستقبلاً لبعض الجهات، إلى غيرها من الأوجه.

فتبين من هذه الأوجه وغيرها سلامة احتجاج السلف على العلو بما فطر الناس عليه من رفع أيديهم إلى السماء عند الدعاء والحاجة[١].

فالحاصل أن الحق ما دلت عليه النصوص الكثيرة وشهد به العقل والفطرة وأجمع عليه سلف الأمة من أن الله تعالى له العلو المطلق من كل وجه علو الشأن وعلو القهر وعلو الذات[٢].

صفة العزة:

صفة ذاتية ثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٤] وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[٥]. وقال ﷺ: «**العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذَّبته**»[٦]، وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بعزتك**»[٧] قال الشيخ

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٣/ ١٢٤٧، ١٢٤٨).

(٢) وقد جاءت مصنفات كاملة خصصت لهذه الصفة مثل«إجتماع الجيوش الإسلامية لغزو المعطلة والجهمية» لابن القيم ، «العلو للعلي الغفار» للذهبي و«العلو» لابن قدامة وغيرها.

(٣) سورة النساء، آية: ١٣٩.

(٤) سورة يونس،آية: ٦٥.

(٥) سورة فاطر، آية: ١٠.

(٦) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب تحريم الكبر ح(٢٦٢٠) (١٦/ ٤١١).

(٧) رواه مسلم في كتاب الذكروالدعاء باب التعوذ من شر ماعمل ومن شر مالم يعمل =

الغنيمان: «والعزة من صفات ذاته تعالى التي لا تنفك عنه، فغلب بعزته وقهر بها كل شيء، وكل عزة حصلت لخلقه فهي منه»(١).

قال القرطبي في إثبات صفة العزة لله تعالى: «العزة: القوة والغلبة، ومنه: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝﴾(٢) أي: غلبني ويقال أيضًا: عز الشيء إذا قلَّ، فلا يكاد يوجد مثله يعزُّ عزًّا وعزازة وعزَّ يعز عِزة إذا صار قويًّا بعد ضعف وذلة، فعزة الله تعالى قهره للجبابرة وقوته الباهرة، وهو مع ذلك عديم المثل والنظير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾(٣)»(٤).

وقال في موضع آخر: «العز والعظمة والكبرياء من أوصاف الله تعالى الخاصة به التي لا تنبغي لغيره، فمن تعاطى شيئًا منها أذله الله تعالى وصغَّره وحقَّره وأهلكه كما قد أظهر الله تعالى من سننه في المتكبرين السابقين واللاحقين»(٥).

والعزة التي هي صفة من صفات الله تعالى تكون بمعنى الامتناع على من يرومه من أعدائه وتكون بمعنى القهر والغلبة، وتكون بمعنى القوة والصلابة، وهذه المعاني ثابتة لله تعالى، وقد أشار ابن القيم إلى هذه المعاني في نونيته فقال:

وهو العزيز فلن يُرام جنابه ... أنّى يُرام جنابُ ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيءٌ هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان(٦)

= ح(٢٧١٦) (١٧/ ٤١).

(١) شرح كتاب التوحيد، من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ١٤٧).
(٢) سورة ص، آية: ٢٣.
(٣) سورة الشورى، آية: ١١.
(٤) المفهم (١/ ٤٤٣).
(٥) المفهم (١/ ٢٧٦).
(٦) القصيدة النونية مع شرحها للهراس (٢/ ٧٣).

صفتا العظمة والكبرياء:

صفتان ذاتيتان لله عز وجل، ثابتتان بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[٢]، وجاء في حديث الشفاعة أنه يقول عز وجل: «**وعزتي وجلالي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلَّا الله**»[٣]، وقال ﷺ: «**العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته**»[٤] وعند أبي داود بلفظ «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري**»[٥].

قال الأزهري: «من صفات الله عز وجل: العلي العظيم... وعظمة الله لا تكيف، ولا تحد، ولا تمثل بشيء، ويجب على العباد أن يعلموا أنه عظيم كما وصف نفسه، وفوق ذلك بلا كيفية ولا تحديد»[٦].

وقال الغنيمان: «من المعلوم أن الكبرياء من صفات الله تعالى، ولا يجوز للعباد أن يتصفوا بها... ووصف الله تعالى بأن العظمة إزاره والكبرياء رداؤه كسائر صفاته، تثبت على ما يليق به، ويجب أن يؤمن بها على ما أفاده النص دون تحريف ولا تعطيل»[٧].

قال القرطبي في هاتين الصفتين: «الكبرياء والكبر: كلاهما مصدر: كبر في نفسه يكبر وأصله: من كبر السن، أو كبر الجرم، لكن صار ذلك بحكم عرف الاستعمال عبارة عن حصول كمال الذات يستلزم ترفيعًا لها على الغير، ومن هٰهنا كان الكبر قبيحًا ممنوعًا في حقنا واجبًا في حق الله تعالى، وبيانه: أن الكمال الحقيقي المطلق لا يصح إلاَّ لله تعالى، وكمال

---

(١) سورة الواقعة، آية: ٩٦.
(٢) سورة الجاثية، آية: ٣٧.
(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ح(٧٥١٠)(١٣/ ٤٨١) ومسلم في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ح(١٩٣) (٣/ ٥٤).
(٤) سبق تخريجه ص(٤٠٣).
(٥) أخرجه أبو داود في كتاب اللباس باب ماجاء في الكبر.
(٦) تهذيب اللغة للأزهري (٢/ ٣٠٣).
(٧) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (٢/ ٥٥، ٥٦).

غيره إنما هو عرض نسبي، فإذا وصف الحق نفسه بالكبر ونسبه إليه كانت النسبة حقيقة في حقه، إذ لا أكمل منه ولا أرفع، فكل كامل ناقص، وكل رفيع محتقر بالنسبة إلى كماله وجلاله، والعظمة بمعنى الكبرياء غير أنها لا تستدعي غيرًا يتعاظم عليه، كما يستدعيه الكبر كما بيَّنا، وأيضًا فقد يستعمل الكبير فيما لا يستعمل فيه العظيم فيقال: فلان كبير السن، ولا يقال: عظيم السن»[١].

وقال في موضع آخر: «الكبرياء والعظمة من أوصاف كمال الله تعالى، واجبان له، إذ ليست أوصاف كمال الله وجلاله مستفادة من غيره، بل هي واجبة الوجود لذواتها، بحيث لا يجوز عليه العدم ولا النقص، ولا يجوز عليه تعالى نقيض شيء من ذلك، فكماله وجلاله حقيقة له، بخلاف كمالنا فإنه مستفاد من الله تعالى، ويجوز عليه العدم وطروء النقيض والنقص، فإذا كان هذا فالتكبر والتعاظم خرق منا، ومستحيل في حقنا، ولذلك حرمهما الشرع وجعلهما من الكبائر»[٢].

فالقرطبي هنا أثبت هاتين الصفتين لله تعالى كما يليق به سبحانه كما جاء عن السلف.

وصف الله تعالى بالصورة:

ثبت وصف الله تعالى بالصورة في عدة أحاديث، منها ما جاء في الحديث الطويل في رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وفيه: «**وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه**»[٣].

---

(١) المفهم (١/ ٤٤٣).
(٢) المفهم (١/ ١٨٦).
(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ح(٧٤٣٩) (١٣/ ٤٣١) ومسلم في كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية ح(١٨٣)(٣/ ٢١).

وفي الحديث الآخر، قال ﷺ: «**إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته**»[(١)]، وقال ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعًا**»[(٢)]، فأثبت جمهور السلف بهذه الأحاديث وصف الله بالصورة، إلاَّ أن بعض علماء السنة خالف في ذلك، منهم ابن خزيمة وابن منده[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير في هذا الحديث[(٤)] عائدٌ إلى الله تعالى، فإنه مستفيض من طرق متعددة عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك... لكن لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة جعل طائفة الضمير فيه عائدًا إلى غير الله تعالى، حتى نقل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة كأبي ثور[(٥)]، وابن خزيمة، وأبي الشيخ الأصبهاني[(٦)]، وغيرهم، ولذلك أنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم من علماء السنة»[(٧)].

وقد أنكر القرطبي والمازري وصف الله تعالى بالصورة، وذكرا تأويلات عديدة لهذه الأحاديث، وأطال المازري جدًّا عند حديثه عن هذه المسألة على غير عادته.

---

(١) سبق تخريجه ص(٢٧٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإستئذان باب بدء السلام ح(٦٢٢٧) (١١/ ٥) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ح(٢٨٤١) (١٧/ ١٨٤).

(٣) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة (١/ ٨٤ـ ٩٤) والتوحيد لابن منده (١/ ٢٢٢، ٢٢٤).

(٤) وهو حديث «خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعًا...».

(٥) إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي البغدادي إمام حافظ فقيه من أصحاب الشافعي مفتي العراق في زمنه كان من العلماء الورعين والأئمة المجتهدين توفي سنة(٢٤٠هـ) سير أعلام النبلاء(١٢/ ٧٢). طبقات الحفاظ ص(٢٤٧) ترجمة(٥٠٦).

(٦) عبدالله بن محمد بن جعفر الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ له العديد من المصنفات منها كتاب «العظمة» وغيره توفي سنة (٣٦٩هـ). سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٧٦)، معجم المؤلفين (٢/ ٢٧٧).

(٧) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٥٣٨، ٥٣٩) وقد نقله من كتاب «نقض أساس التقديس» لابن تيمية (٣/ ٢٠٢) فما بعدها.

قال القرطبي عند شرحه لحديث: «**يأتيهم الله في صورته**»: «أما الصورة الثانية التي يعرفون عندما يتجلى لهم الحق، فهي صفته تعالى التي لا يشاركه فيها شيء من الموجودات، ولا يشبهه شيء من المصورات... ولا يستبعد إطلاق الصورة بمعنى الصفة، فمن المتداول أن يقال: صورة هذا الأمر كذا، أي: صفته»(١).

وعند شرحه لقوله ﷺ: «**فإن الله خلق آدم على صورته**» قال: «أي على صورة وجه المضروب... وهذا هو ظاهر الحديث، ولا يكون في الحديث إشكال يوهم في حق الله تعالى تشبيهًا، وإنما أشكل ذلك على من أعاد الضمير في صورته على الله تعالى، وذلك ينبغي ألاَّ يصار إليه شرعًا ولا عقلاً، أما العقل فيحيل الصورة الجسمية على الله تعالى، وأما الشرع فلم ينص على ذلك نصًّا قاطعًا، ومحال أن يكون ذلك، فإن النص القاطع صادق، والصادق لا يقول المحال، فيتعين عود الضمير على المضروب؛ لأنه هو الذي سبق الكلام لبيان حكمه، وقد أعادت المشبهة هذا الضمير على الله تعالى، فالتزموا القول بالتجسيم، وذلك نتيجة العقل السقيم والجهل الصميم، وقد بيَّنا جهلهم، وحقَّقنا كفرهم فيما تقدم، ولو سلمنا: أن الضمير عائدٌ على الله تعالى فللتأويل فيه وجه صحيح، وهو أن الصورة قد تطلق بمعنى الصفة، كما يقال: صورة هذه المسألة كذا، أي: صفتها، وصوَّر لي فلان كذا، فتصورته. أي: وصفه لي ففهمته، وضبطتُ وصفه في نفسي وعلى هذا فيكون معنى قوله: «**إن الله خلق آدم على صورته**» أي: خلقه موصوفًا بالعلم الذي فصل به بينه وبين جميع أصناف الحيوانات وخصه منه بما لم يخص به أحدًا من ملائكة الأرضين والسموات، وقد قلنا فيما تقدم: إن التسليم في المتشابهات أسلم، والله ورسوله أعلم»(٢).

وفي حديث: «**خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعًا**» قال: «هذا الضمير عائدٌ على أقرب مذكور، وهو آدم، وهو أعمُّ، وهذا الأصل في عود

---

(١) المفهم (١/٤١٨).

(٢) المفهم (٦/٥٩٧).

الضمائر، ومعنى ذلك أن الله تعالى أوجده على الهيئة التي خلقه عليها، لم ينتقل في النشأة أحوالاً، ولا تردد في الأرحام أطوارًا، إذ لم يخلقه صغيرًا فكبر، ولا ضعيفًا فقوي، بل خلقه رجلاً كاملاً سويًّا قويًّا، بخلاف سُنَّة الله في ولده، ويصح أن يكون معناه للإخبار عن أن الله تعالى خلقه يوم خلقه على الصورة التي كان عليها بالأرض، وأنه لم يكن في الجنة على صورة أخرى، ولا اختلفت صفاته، ولا صورته، كما تختلف صور الملائكة والجن، والله تعالى أعلم، ولو سلَّمنا أن الضمير عائدٌ على الله تعالى لصح أن يقال هنا: إن الصورة بمعنى الصفة»[١].

وأما المازري فعند شرحه لقوله ﷺ: «**إذا قاتل... فإن الله خلق آدم على صورته**» قال: هذا الحديث ثابت عند أهل النقل، وقد رواه بعضهم: «**إن الله خلق آدم على صورة الرحمن**»[٢] ولا يثبت هذا عند أهل النقل، ولعلَّه نُقِلَ من راويه بالمعنى الذي توهمه، وظن أن الضمير عائدٌ على الله سبحانه، فأظهره، وقال: على صورة الرحمن.

واعلم أن هذا الحديث غلط فيه ابن قتيبة وأجراه على ظاهره، وقال: فإن الله سبحانه له صورة، لا كالصور، وأجرى الحديث على ظاهره، والذي قاله لا يخفى فساده؛ لأن الصورة تفيد التركيب، وكل مركب محدث، والباري سبحانه ليس بمحدث، فليس بمركب، وما ليس بمركب فليس بمصور، وهذا من جنس قول المبتدعة: إن الباري عز وجل جسم لا كالأجسام، لما رأوا أهل السنة يقولون: الباري سبحانه شيء لا كالأشياء طردوا هذا، فقالوا: جسم لا كالأجسام، وقال ابن قتيبة: صورة لا كالصور، وعجبًا لابن قتيبة في قوله: صورة لا كالصور، مع كون هذا الحديث يقتضي ظاهره عند خلق آدم على صورته، فقد صارت صورة الباري سبحانه على صورة آدم ـ عليه السلام ـ على ظاهر هذا على أصله، فكيف يقول على صورة آدم، ويقول: إنها لا كالصور، هذا تناقض، ويقال له أيضًا: إن أردت بقولك صورة لا كالصور، أنه ليس بمؤلف ولا مركب،

---

(١) المفهم (٧/ ١٨٣).

(٢) سيأتي تخريجه عند رد الحافظ ابن حجر على المازري في رده لهذا الحديث.

فليس بصورة على الحقيقة، وأنت مثبت تسمية تفيد في اللغة معنى مستحيلاً عليه تعالى مع نفي ذلك المعنى، فلم تعط اللفظ حقه، ولم تجره على ظاهره، فإذا سلمت أنه ليس على ظاهره، فقد وافقت على افتقاره إلى التأويل، وهذا الذي نقول به، فإذا ثبت افتقاره إلى التأويل قلنا: اختلف الناس في تأويله، فمنهم: من أعاد الضمير إلى المضروب، وذكر أن في بعض طرق الحديث أنه سمع ﷺ يقول: قبح الله وجهك، ووجه من أشبهك، أو نحو هذا، فقال ﷺ ما قال، أما على هذه الرواية وهي شتم من أشبهه، فبيَّن وجه هذا التعليل؛ لأنه إذا شتم من أشبهه فكأنه شتم آدم وغيره من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وقال آخرون: إن الضمير عائد على آدم نفسه، وعورض هؤلاء بأن هذا يجعل الكلام غثاً لغوًا لا فائدة تحته، وردوا على هذا الاعتراض بأن فيه فائدة وهو الرد على الطبائعيين الذين يعتقدون أن تصوير آدم كان على بعض تأثيرات النجوم، أو على الدهريين بقولهم: ليس ثم إنسان أول، إنما الإنسان من نطفة، والنطفة من إنسان، هكذا أبدًا إلى غير أول، أو على القدرية في قولهم: إن كثيرًا من أعراض آدم وصفاته خلق لآدم، ولكن لا يحسن مع ذكر سبب الحديث، وهو قوله: «**إذا قاتل أحدكم أخاه. . .**» وقال آخرون: الضمير يعود إلى الله ويكون له وجهان: أحدهما أن يراد بالصورة الصفة، كما يقال: صورة فلان عند السلطان كذا، أي صفته، وذلك لصفات الكمال التي تميز بها آدم عليه السلام.

والثاني: أن تكون إضافة الصورة إضافة تشريف واختصاص كما قيل في الكعبة بيت الله، وقيل ناقة الله»[١].

فمن خلال هذه النقولات عن القرطبي والمازري في هذه الصفة تبين تأويلهم لها، وحرصهم على صرفها عن ظاهرها.

فالقرطبي جعل إطلاق الصورة في حديث: «**فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون**» بمعنى الصفة.

وأما في الحديثين الآخرَين وهو قوله: «**إذا قاتل. . . فإن الله خلق آدم**

---

(١) المعلم (٣/ ١٦٩) بتصرف.

على صورته»، وقوله: «**خلق الله آدم على صورته ستون ذراعًا**» فأعاد الضمير في الحديث الأول على المضروب، والضمير في الحديث الثاني إلى آدم نفسه. وبيَّن أنه لو سلم بعودة الضمير فيهما إلى الله فيكون معنى صورته أي: صفته، وأما المازري فقد رد حديث: «**إن الله خلق آدم على صورة الرحمن**» ورد على ابن قتيبة في إثباته الصورة، وقوله: صورة لا كالصور. ثم بيَّن التأويلات في هذا الحديث، وهو قوله ـ عليه السلام ـ: «**إذا قاتل.. فإن الله خلق آدم على صورته**» فجعل الضمير إما يعود إلى المضروب، أو إلى آدم نفسه، وبيَّن أنه لو فرض عودته إلى الله تعالى لكان المقصود بالصورة، إما الصفة أو قصد بذلك التشريف.

فيكون الرد هنا أولا على المازري في رده لحديث: «**إن الله خلق آدم على صورة الرحمن**» وفي رده على ابن قتيبة ثم نتبع ذلك بالرد على هذه التأويلات التي ذكرها القرطبي والمازري بما يبطلها من كلام أهل السنة.

أما رد المازري لحديث: «**إن الله خلق آدم على صورة الرحمن**» فقد قال الحافظ ابن حجر بعد نقله لكلام المازري السابق في الفتح: «وقد أنكر المازري ومن تبعه صحة هذه الزيادة» ثم قال: «وعلى صحتها فيحمل على ما يليق بالباري سبحانه وتعالى».

قلت ـ أي: ابن حجر ـ: الزيادة أخرجها ابن أبي عاصم في «السنة»[١] والطبراني[٢] من حديث ابن عمر بإسناد رجاله ثقات، وأخرجها ابن أبي عاصم أيضًا من طريق أبي يونس عن أبي هريرة بلفظ يرد التأويل الأول[٣] قال: «**من قاتل فليجتنب الوجه فإن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن**»[٤].

وأما رد المازري على ابن قتيبة، فذلك بناء على قواعد المتكلمين

---

(١) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٣٠).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ٤٣٠) وقد أخرجه ابن خزيمة في التوحيد(١/ ٨٧) وأعله بثلاث علل وضعفه الألباني في تخريجه لكتاب السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٣٠).

(٣) وهو إعادة الضمير على المضروب.

(٤) فتح الباري (٥/ ٢١٧).

الفاسدة في جعل إثبات الصفات لله تعالى يستلزم التجسيم والتشبيه، وأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، وقد سبق تفنيد هذه الشبه وإبطالها.

وأنكر على ابن قتيبة قوله: صورة لا كالصور، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة الذين يثبتون الصفات بالنصوص الصحيحة من الكتاب والسنة من غير تحريف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تكييف ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[1] فمع إيمانهم بالصفات الثابتة لله تعالى، فهم ينفون وينكرون تشبيه الله تعالى بخلقه، ولو اتفقت المسميات، فكما أن ذاته ليست كذوات المخلوقين، فصورته سبحانه ليست كصور المخلوقين، وكذلك يقال في الوجه واليد والأصابع، وسائر صفات الله سبحانه وتعالى.

فأهل السنة والجماعة يجمعون بين الإيمان بالنصوص، وتنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقين.

وقد ردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية على هؤلاء الذين يزعمون أن إثبات هذا الحديث، وهو قوله ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورة الرحمن**» مع قولهم: صورة لا كالصور من باب التناقض، حيث قال: «فإن قيل بأن هذا تصريحٌ أن وجه الله يشبه وجه الإنسان فيقال: لا ريب أن كل موجودين لابد أن يتفقا في شيء يشتركان فيه، وأن أحدهما أكمل فيه وأولى من الآخر، وإلا إذا قدر أنهما لا يتفقان في شيء أصلاً ولا يشتركان فيه، لم يكونا موجودين، وهذا معلوم بالفطرة البديهية، وهذا الذي جاءت به السنة من ثبوت الشبه من بعض الوجوه، وقد أخبر به الرسول ﷺ فوجب قبوله والإيمان به، والله تعالى هو الذي خلق آدم على صورته، وهذا لا يناقض قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ لأن المماثلة منفية عن الله تعالى على كل حال، وهذا لا يمنع المشابهة من بعض الوجوه البعيدة، كالوجود والعلم والحياة ونحو ذلك، مع أن المحذور الذي فروا منه إلى تأويل الحديث على أن الصورة بمعنى الصفة يلزمهم فيما أثبتوه نظير ما فروا منه

(١) سورة الشورى، آية: ١١.

فإن كان مثل هذا لازمًا على التقديرين لم يجز ترك مقتضى الحديث ومفهومه مع أنه لا محذور فيه.

والتشبيه المنفي بالنص والإجماع والأدلة العقلية الصحيحة منتف على التقديرين، فلابد أن يكون بين الذات والذات مشابهة إذا كان على الصفة المعنوية، فكون هذا عالمًا قادرًا، وهذا عالمًا قادرًا، وهذا ذاتًا لها صفات، وهذا ذاتًا لها صفات، لابد أن يثبت التشابه. فوجود ذات ليس لها صفات ممتنع في العقل، وثبوت الصفات الكمالية معلوم بالشرع والعقل. كذلك ثبوت ذات لا تشبه الموجودات بوجه من الوجوه ممتنع في العقل، وثبوت المشابهة من بعض الوجوه في الأمور الكمالية معلوم بالشرع والعقل»[(١)].

«وقد بيَّن أهل السنة أن إعادة الضمير في حديث «**خلق الله آدم على صورته**» على غير الله هو قول الجهمية، قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ: من قال: إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي، وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه»[(٢)].

قال شيخ الإسلام: «أما عود الضمير إلى غير الله فباطل من وجوه:

ـ ما في الصحيحين ابتداءً «**أن الله خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعًا**» وفي أحاديث أخر: «**إن الله خلق آدم على صورته**» ولم يقدم ذكر أحد يعود الضمير إليه، وما ذكر بعضهم: من أن النبي ﷺ رأى رجلاً يضرب رجلاً، ويقول: قبَّح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فقال: «**خلق الله آدم على صورته**» أي صورة هذا المضروب، فهذا شيء لا أصل له، ولا يعرف في شيء من كتب الحديث.

ـ أن الحديث الآخر لفظه: «**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته**» وليس في هذا ذكر أحد يعود الضمير إليه.

ـ أنه في مثل هذا لا يصلح إفراد الضمير، فإن الله خلق آدم على

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٥٥٨، ٥٦١) بتصرف وقد نقله من كتاب « نقض أساس التقديس» لابن تيمية (٢/ ٢٧٣، ٢٨٥).
(٢) إبطال التأويلات لأبي يعلى(١/ ٨٨).

صورة بنيه كلهم، فتخصيص واحد لم يتقدم له ذكر بأن الله خلق آدم على صورته في غاية البعد لاسيما وقوله: «**إذا قاتل أحدكم**» و«**إذا ضرب أحدكم**» عامٌّ في كل مضروب، والله خلق آدم على صورهم جميعًا، فلا معنى لإفراد الضمير.

ـ أن ذرية آدم خُلِقُوا على صورة آدم، لم يخلق آدم على صورهم.

ـ أنه لو أُريد مجرد المشابهة لآدم وذريته لم يحتج إلى لفظ «خلق» على كذا، فإن هذه العبارة إنما تستعمل فيما فعل على مثال غيره.

ـ أن يقال: كون الوجه يشبه وجه آدم مثل كون سائر الأعضاء تشبه أعضاء آدم، لو صح أن هذا علة منع الضرب لوجب هذا الحكم لسائر الأعضاء وهذا لا يقوله أحد.

وأمَّا عود الضمير على آدم ففاسد؛ لأنه كون آدم خلق على صورة آدم ليس له معنى، وليس في ذلك مناسبة للنهي عن ضرب وجوه بنيه، ولا عن تقبيحها، كذلك الله خلق سائر أعضاء آدم على صورة آدم، فيكون هذا مانعًا من ضرب سائر الأعضاء، وهذا معلوم الفساد.

أما تأويلهم الحديث على أن آدم لم يخلق من نطفة وعلقة، ولم يتكون في مدة طويلة، فلو كانت هذه العلة هي المانعة من ضرب الوجه وتقبيحه، كونه خلق على هذا الوجه، وهذه العلة منتفية في بنيه، فينبغي أن يجوز ضرب وجوه بنيه وتقبيحها لانتفاء العلة إذ هم لم يخلقوا على صورهم التي هم عليها إضافة إلى أن هذا القول لا دليل عليه، وليس في هذه الأحاديث ما يدل عليه بحال من الأحوال»(١).

وقد أطال شيخ الإسلام في رد هذه التأويلات بما يبطلها فاكتفينا بنقل بعضه مختصرًا خشية الإطالة.

أما قولهم: إن المراد بالصورة: الصفة فهو فاسد؛ لأن الصورة هي الصورة الموجودة في الخارج ولفظ: «صَوَرَ» يدل على ذلك، وما من

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٥٤٠،٥٤٥) بتصرف وإختصار وقد نقله من كتاب «نقض التأسيس» لابن تيمية (٣/ ٢٠٢) فما بعدها.

موجود من الموجودات إلاَّ وله صورة في الخارج. أما الصفة فهي: مصدر وصفت الشيء أصفه وصفًا ثم يسمون المفعول باسم المصدر صفة. فتفسير الصورة بمجرد الصفة التي تقوم بالأعيان كالعلم والقدرة فاسد؛ لأن قول القائل: صورة فلان لا يقصد مجرد الصفات القائمة به من العلم والقدرة وغيرها، بل هذا من الجناية على اللغة وأهلها. وإذا دلَّ لفظ الصورة على صفة قائمة بالموصوف أو بالذهن واللسان فلابد مع ذلك أن يدل على الصورة الخارجية، كما يمكن أن يقال لمن يقول بهذا: المشاركة في بعض الصفات واللوازم البعيدة إما أن يصحح قول القائل: إن الله خلق آدم على صورة الله، أو لا يصحح ذلك، فإن لم يصحح ذلك بطل قولك. وإن كانت تلك المشاركة تصحح هذا الإطلاق جاز أن يقال: إن الله خلق كل ملك من الملائكة على صورته، بل خلق كل حي على صورته، إذ ما من شيء من الأشياء إلاَّ وهو يشاركه في بعض اللوازم البعيدة، كالوجود والقيام بالنفس وحمل الصفات، فعلى هذا يصح أن يقال في كل جسم وجوهر: إن الله خلقه على صورته، فبطل هذا التأويل على التقديرين[1].

وأما القول بأن هذا من إضافة التشريف كناقة الله، وبيت الله، فقد رد شيخ الإسلام هذا القول فقال: «إضافة المخلوق جاءت في الأعيان القائمة بنفسها، كالناقة والبيت، فأما الصفات القائمة بغيرها مثل العلم والقدرة والكلام والمشيئة إذا أضيفت كانت إضافة صفة إلى موصوف، فالأعيان القائمة بنفسها قد علم المخاطبون أنها لا تكون قائمة بذات الله تعالى فيعلمون أنها ليست إضافة صفة، وعلى هذا فالصورة قائمة بالموصوف بها المضافة إليه، فصورة الله كوجه الله، ويد الله وعلم الله، ويمتنع أن تقوم بغيره، كما أنه لابد أن يكون في العين المضافة إلى الله تعالى معنى يختص بها تستحق به الإضافة، وأما الصور المخلوقة، فهي مشاركة لجميع الصور في كون الله خلقها من جميع الوجوه، فما الموجب لتخصيصها بالإضافة إلى الله تعالى؟ وأيضًا فسائر الأعضاء مشاركة للصورة التي هي الوجه في

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٥١٠، ٥٣١، ٥٥٣، ٥٥٧، بتصرف وقدنقله من كتاب «نقض أساس التقديس» لابن تيمية (٣/ ٢٠٢). فما بعدها.

كون الله تعالى خلق ذلك جميعه فينبغي أن يضاف سائر الأعضاء إلى الله بهذا الاعتبار»[١].

وبهذا يعرف أن الحق هو ما عليه جماهير أهل السنة والجماعة في إثبات وصف الله تعالى بالصورة كما جاء في هذه الأحاديث. ويتبين بطلان قول من وصف من أثبت الصورة بالتجسيم، والحكم عليهم بالكفر لأجل هذا الاعتقاد الذي وافقوا فيه النصوص. وهذا موقف المؤولة والنفاة من أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات، ولو تصوروا أن هذا الوصف الذي ألصقوه والحكم الذي أطلقوه يشمل: الصحابة والتابعين وسلف الأمة من عباد الله الصالحين الذين كانوا على هذا الاعتقاد لخاف على نفسه ورجع عن قوله.

قال ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ: «والذي عندي والله أعلم أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين، وإنما وقع الألف لتلك لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد»[٢].

وهذا هو الحق والصواب الذي عليه الأدلة واضحة من الكتاب والسنة.

صفة الوجه:

صفة ذاتية ثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[٥]، وقال ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يُرفعُ إليه عمل الليل قبل عمل**

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٥٦٣، ٥٦٦) بتصرف وقد نقله من كتاب «نقض أساس التقديس» لابن تيمية ص(٣/ ٢٧٣، ٢٨٥).

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص(٢٢٠).

(٣) سورة القصص، آية: ٨٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٧٢.

(٥) سورة الرحمن، آية: ٢٧.

النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[١]. وعندما نزل قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾[٢] قال ﷺ: «**أعوذ بوجهك**»[٣] فالوجه صفة ثابتة لله عز وجل أثبتها أهل السنة والجماعة للنصوص الكثيرة المتواترة من الكتاب والسنة في إثباتها وأثبتوها على ما يليق به سبحانه وتعالى.

والقرطبي مع تأويله لهذه الصفة وصرفها عن ظاهرها في عدة مواضع إلاَّ أنه في بعض المواضع تردد بين التأويل والتفويض حيث قال عند شرحه للحديث الأول: سبحات وجه ربنا: جلاله والهاء في بصره عائدة على الله تعالى على أحسن الأقوال، وهو الذي عاد عليه ضمير «وجهه» وكذلك ضمير «خلقه»... وقد أكثر الناس في تأويل هذا الحديث، وأبعدوا، لاسيما من قال: إن الهاء في وجهه تعود على المخلوق، فإنه يحيل مساق الكلام ويخل بالمعنى، والأشبه ما ذكرناه أو التوقف كما قال السلف: «اقرؤوها كما جاءت» يعنون المشكلات[٤].

وقال في موضع آخر: «لطفه وكرمه بعباده المؤمنين ورحمته لهم وعوده عليهم يقتضي أن يمن عليهم بأن يريهم وجهه إبلاغًا في الإنعام، وإكمالاً للامتنان، فإذا كشف عنهم الموانع وأراهم وجهه الكريم، فقد فعل معهم خلاف مقتضى الكبرياء، فكأنه قد رفع عنهم حجابًا يمنعهم ووجه الله تعالى هل هو عبارة عن وجوده المقدس أو عن صفة شريفة عظيمة معقولة؟ في ذلك لأئمتنا قولان»[٥].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام«إنَّ الله لاينام»ح(١٧٩). (٣/١٦).

(٢) سورة الأنعام، آية: ٦٥.

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله عزّوجل﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ح(٧٤٠٦) (١٣/ ٤٠٠).

(٤) المفهم (١/ ٤١١).

(٥) المفهم(١/ ٤١٢).

وقال عند قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[(١)] أي: يخلصون في عباداتهم وأعمالهم لله تعالى ويتوجهون إليه بذلك لا لغيره ويصح أن يقال: يقصدون بأعمالهم وجهه الكريم أي: وجوده المنزه المقدس عن صفات المخلوقين»[(٢)].

وعند قوله تعالى: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[(٣)] قال: «أي جهة الله يعني القبلة وأضافها الله تعالى إليه تشريفًا، وقيل: رضاه، وقيل: رحمته كما قال في الحديث «**فإن الرحمة تواجهه**»[(٤)] وقال الفراء: العمل كما قال الشاعر:

أستغفر الله ذنبًا لستُ مُحصيه ... رب العباد إليه الوجه العملُ[(٥)]

وفي قوله نظر فإن الوجه المذكور في الشعر ليس هو العمل بدليل ذكر العمل بعده، وإنما معناه: القصد أي: إليه القصد والعمل ويمكن حمل الوجه في الآية على هذا والله أعلم»[(٦)].

وقال المازري في شرحه للحديث الأول الذي سبق: الضمير الذي في «وجهه» يعود على المخلوق لا على الخالق إذ الحجاب بمعنى الستر إنما يكون على الأجسام المحدودة والباري جلَّت قدرته، ليس بجسم ولا محدود والحجاب في اللغة: المنع ومنه سمى المانع من الأمير: حاجبًا لمنعه الناس عنه ومنه الحاجب في الوجه؛ لأنه يمنع الأذى عن العين. . . وأما تفسير السبحات، فقال الهروي: سبحات وجهه: نور وجهه تعالى في كتاب العين: سبحة من نور وجهه وجلاله، وإنما نقلنا هذا ليعلم قول أهل اللغة في هذه اللفظة لا على اتباعهم فيما يرجع الضمير إليه وإطلاق اللفظ الذي قالوه»[(٧)].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٥٢.
(٢) المفهم (٦/ ٢٨٥).
(٣) سورة البقرة، آية: ١١٥.
(٤) رواه الترمذي في أبواب الطهارة باب ماجاء في كراهية مسح الحصى في الصلاة وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب مسح الحصى في الصلاة وضعفه الألباني في ضعيف ص(٨٨) الجامع الصغير برقم(٦١٣).
(٥) لم أقف عليه.
(٦) المفهم (٢/ ٣٤١).
(٧) المعلم (١/ ٢٢٤).

ويتضح أن ماورد عن القرطبي والمازري مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة الذين يثبتون هذه الصفة كما جاءت من غير تشبيه، وأما ما ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ ﴾[١] فقد ذهب كثير من علماء السنة إلى أن هذه الآية ليست من آيات الصفات، بل المراد بها قبلة الله، وقد بيَّن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حيث قال: المراد بالوجه هنا القبلة فإن «الوجه» هو الجهة في لغة العرب، يقال: قصدت هذا الوجه وسافرت إلى هذا الوجه أي: إلى هذه الجهة، وهذا كثير مشهور، فالوجه هو: الجهة وهو الوجه كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ ﴾[٢] أي: متوليها، فقوله تعالى: ﴿ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ ﴾ كقوله: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ ﴾ كلا الآيتين في اللفظ والمعنى متقاربان، وكلاهما في شأن القبلة والوجه والجهة، وهو الذي ذكر في الآيتين: إنا نوليه: نستقبله، والسياق يدل عليه؛ لأنه قال: أينما تولوا، وأين من الظروف، وتولوا: أي تستقبلوا، فالمعنى: أي موضع استقبلتموه، فهنالك وجه الله، فقد جعل وجه الله في المكان الذي يستقبله هذا بعد قوله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ ﴾ وهي الجهات كلها، كما في الآية الأخرى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾[٣] فأخبر أن الجهات له فدل على أن الإضافة إضافة تخصيص وتشريف، كأنه قال: جهة الله وقبلة الله، ولكن من الناس من يسلم أن المراد بذلك جهة الله، أي: قبلة الله، ولكن يقول هذه الآية تدل على الصفة، وعلى أن العبد يستقبل ربه، كما جاء في الحديث: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه**»[٤] ويقول أن الآية دلّت على المعنيين»[٥].

هذا بالنسبة لهذا الدليل، وأما ما سواه من الأدلة فهي نصٌّ في إثبات

(١) سورة البقرة،آية: ١١٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٤٢.

(٤) رواه البخاري في كتاب الصلاة باب حسك البزاق باليد من المسجد ح(٤٠٦) (١/٦٠٦)،ومسلم في كتاب المساجد وموضع الصلاة باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرهاح(٥٤٧) (٥/٤١).

(٥) الفتاوى (٦/١٦).

هذه الصفات، والسلف بإجماعهم على الاستدلال بها، قال الإمام ابن خزيمة: «فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق، والشام، ومصر، مذهبنا: أنَّا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا، ونصدق ذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين عزَّ ربنا عن أن يشبه المخلوقين وجلَّ ربنا عن مقالة المعطلين»[١].

ومما يدل على إبطال مذهب التأويل في هذه الصفة، قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[٢] فأضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت إلى الوجه، فقال: «ذو» ولو كان ذكر الوجه صلة، ولم يكن صفة للذات لقال: ذي الجلال، فلما قال: «ذو الجلال» علمنا أنه نعت للوجه، وأن الوجه صفة للذات[٣].

وقال الدارمي في رده على المريسي: «لو كان وجه الله قبلته، أو الأعمال التي يبتغى بها وجهه أفيجوز أن يقال للقبلة والأعمال ذو الجلال والإكرام؟ فقد علم المؤمنون من خلق الله أنه لا يقدس وجه بذي الجلال والإكرام غير وجه الله.

ثم قوله في الحديث: «**أحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره**» أفيستقيم: أن يتأول هذا أنه أحرقت سبحات وجهه الأعمال الصالحة، ووجه القبلة كل شيء أدركه بصره؟ ما يشك مسلم في استحالة هذا، ثم قوله ﷺ: «**أعوذ بوجهك**» وقوله: «**أسألك لذة النظر إلى وجهك**»[٤]. أفيجوز أن يتأول هذا: أعوذ بثوابك والأعمال التي يبتغى بها وجهك، وبوجه القبلة؟ فإنه لا يجوز أن يستعاذ بوجه شيء غير وجه الله تعالى، وكذلك لا يجوز أن تقول: لذة النظر إلى قبلتك، وإلى الأعمال التي ابتغى بها وجهك ـ وبعد ذكر

---

(١) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٦).

(٢) سورة الرحمن، آية: ٢٧.

(٣) انظر: التوحيد لابن خزيمة (١/ ٥١)

(٤) أخرجه النسائي في السنن الكبرى كتاب صفة الصلاة باب (٩٦) وابن حبان في صحيحه في باب صفة الصلاة، ذكر جواز دعاء المرء في الصلاة بماليس في كتاب الله وصححه الألباني في صحيح الجامع ص (٢٧٩) برقم (١٣٠١).

النصوص في صفة الوجه والرد على جميع التأويلات فيها ـ قال: وعلى تصديق هذه الآثار والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والعلم ولولا كثرة من يستنكر الحق ويستحسن الباطل، ما اشتغلنا كل هذا الاشتغال بتثبيت وجه الله ذي الجلال والإكرام»[١].

فإثبات الوجه لله تعالى واجب على الحقيقة بما يليق به سبحانه وتعالى. هذا هو المذهب السلفي الواضح النقي.

صفة اليد:

لقد جاءت النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة بإثبات اليد لله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[٤].

وجاء في السنة أحاديث كثيرة، منها: قوله ﷺ: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**»[٥] وفي حديث الشفاعة وفيه: «**فيأتونه فيقولون: ياآدم أنت أبوالبشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه**»[٦].

وأهل السنة والجماعة أثبتوا أن لله سبحانه وتعالى يدين تليقان به سبحانه وتعالى من غير تشبيه بخلقه، تعالى الله عن ذلك.

قال الإمام ابن خزيمة: «باب: ذكر إثبات اليد للخالق البارىء جل وعلا، والبيان أن الله تعالى له يدان كما أعلمنا في محكم تنزيله» ثم سرد

---

(١) رد الدارمي على المريسي (٢/٧٠٨، ٧٢٣) بتصرف، وانظر: الحجة في بيان المحجة (١/٢١٧) وأصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي(٣/٤٥٧).

(٢) سورة آل عمران، آية: ٧٣.

(٣) سورة المائدة، آية: ٦٤.

(٤) سورة ص، آية: ٧٥.

(٥) رواه مسلم في كتاب التوبة باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت ح(٢٧٥٩) (١٧/٨٣).

(٦) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ ح(٣٣٤٠)(٦/٤٢٨) ومسلم في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ح(١٩٤)(٣/٦٦).

جملة من الآيات تدل على ذلك، ثم قال: «باب: ذكر البيان من سنة النبي ﷺ على إثبات يد الله عز وجل موافقًا لما تلونا من تنزيل ربنا لا مخالفًا، قد نزه الله نبيه وأعلى درجته ورفع قدره عن أن يقول إلاَّ ما هو موافق لما أنزل الله عليه من وحيه»[١].

وذكر أبوالحسن الأشعري أن من جملة ما عليه أهل الحق والسنة: أن لله يدين بلا كيف[٢]. ورد على أهل البدع في تأويلها[٣].

وقال اللالكائي: «سياق ما دل من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ على أن من صفات الله عز وجل: الوجه والعين واليدين»[٤] ثم سرد بعد ذلك الأدلة على ثبوت هذه الصفات[٥].

وقد كانت هذه الصفة من أكثر ما تعرض له القرطبي في «المفهم»، والمازري في «المعلم» ولكنهما صرفا النصوص عن ظاهرها، والتزما بتأويل جميع النصوص الواردة في ذلك في تكلف ظاهر.

ففي شرح القرطبي لحديث الشفاعة قال: «اعلم أن الله تعالى منزه عن يد الجارحة، واليد في كلام العرب تطلق على القدرة والنعمة والملك. واللائق هنا حملها على القدرة، وتكون فائدة الاختصاص لآدم: أنه تعالى خلقه بقدرته ابتداءً من غير سبب ولا واسطة خلق ولا أطوار قَلَبَهُ فيها وذلك بخلاف غيره من ولده، ويحتمل أن يكون شرفه بالإضافة إليه كما قال «بيتي» وقد قدمنا أن التسليم في المشكلات أسلم»[٦].

وقال عند قوله ﷺ: **«وكلتا يديه يمين»**[٧]: «يفهم من إضافة اليدين

---

(١) التوحيد لابن خزيمة(١/١١٨، ١١٩).
(٢) الإبانة عن أصول الديانة للأشعري ص(١٠٦).
(٣) المرجع السابق (١٢٥، ١٤٠).
(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة(٣/ ٤٥٧).
(٥) المرجع السابق.
(٦) المفهم (١/ ٤٢٧).
(٧) رواه مسلم في كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل ح(١٨٢٧) (١٢/ ٤٥٢).

إليه تعالى قدرته على المخلوقات»[١].

وعند شرحه لقوله ﷺ: «**إن الله يبسط يده بالليل...**»[٢] قال: «هذا الحديث أُجري مجرى المثل الذي يفهم منه دوام قبول التوبة واستدامة اللطف والرحمة»[٣].

وقال المازري في قوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٤]: «أي: نعمتاه على تأويل اليد هـٰهُنا على النعمة، ونعم الله لا تحصى، فالتثنية للتأكيد لا حقيقية»[٥].

وقال في شرحه لقوله ﷺ: «**إن الله يبسط يده...**»: «المراد بهذا: القبول على التائب؛ لأنه قد جرت العادة أن الإنسان إذا نُوول ما يقبله بسط يده إليه، وإذا نوول ما يكره قبض يده فخاطب العرب من حيث تعلم، وذكر أمثالاً محسوسة ليؤكد معنى ما يريده في النفس وأما يد الجارحة فمستحيلة على الله سبحانه والقبض والبسط من صفات الأجسام، واليد قد تطلق في اللغة على النعمة، وهذا المعنى المشهور في اللسان يقارب ما قلناه؛ لأن ما يفعله سبحانه من قبول توبة عباده من أحد نعمه عليهم وكذلك ما يفعله من النعم بالتائبين، وأما إثبات اليدين لله سبحانه من غير أن تكون يدي جارحة بل صفتين من الصفات قديمة أزلية فأثبتها أبوبكر القاضي ابن الطيب وغيره من أئمتنا لقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٦] فأثبت اليدين هـٰهُنا صفتين قديمتين؛ لأن صرف اليد هـٰهُنَا عنده إلى النعمة لا يليق بهذا الموضع؛ لأن النعمة مخلوقة، ولا يخلق مخلوق بمخلوق، وصرفها إلى القدرة يمنع منه التثنية، والقدرة واحدة بلا خلاف، وأبوالمعالي مال إلى نفي ذلك وحمل القرآن على التجوز وأن المراد أن الله خلق آدم بغير واسطة بخلاف غيره من

---

(١) المفهم (٣/ ٣٧).
(٢) سبق تخريجه ص(٤٢١).
(٣) المفهم(٧/ ١٠٦).
(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٥) المعلم(٢/ ٤٧).
(٦) سورة ص،آية: ٧٥.

بنيه، فكنَّىٰ عن ذلك بأنه خلقه بيديه، لأنا إذا لم يكن بيننا وبين ما يكون من الأفعال وسائط عبر عن ذلك بأن يقال: فعلته بنفسي، وتوليته بيدي، والقصد تمييز آدم بالاختصاص، وقد يجمع الشيء تفخيمًا، وإن كان واحدًا، والعرب تفعل ذلك، فهذا المعنى سلك الأئمة في هذه الآية وإن قلنا بإثبات اليد على طريقة القاضي، فلابد من تأويل الأحاديث على نحو ما قلناه، لذكر البسط فيه، وإنما يبقى النظر في معنى اليد، وإضافة هذا الأمر إليهما»[١].

وقال عند قوله ﷺ: «**يطوي الله سبحانه السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى**»[٢]: «تقدَّم القول في ذكر اليد واختلاف الأصوليين في إثباتها بمعنى الصفة، لا بمعنى الجارحة، وتنازعهم في مقتضى قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٣] وذكرنا تأويل ما وقع في ذكر اليد، ولكن لما ذكر هـٰهُنا اليمين والشمال كان آكد في إيهام الجارحة، فإذا ثبت استحالة يد الجارحة عليه ووصفه باليمين والشمال، فلابد من حمل هذا على ما يجوز وأمثل ما تؤول عليه عندي: أن الله سبحانه أراد أنه يطوي السموات والأرضين بقدرته، وكنى عن ذلك بذكر اليد؛ لأن بها فعلنا نحن وبها تصرفنا فخاطب بما يفهم وبما يخرج إلى الحس والوجود ليكون أوكد وأرسخ في نفس السامع»[٤].

وهذه التأويلات التي ذكروها بناءً على مذهبهم الفاسد بأن إثبات الصفات يستلزم التجسيم والتشبيه، وهذا زعمٌ باطلٌ؛ لأن اللازم المذكور إنما يلزم من أثبت يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين، وأما من أثبت يدين تليقان بالله لا تشبهان أيدي المخلوقين، فإن هذا لا يلزمه ماذكروه؛ لأن إثبات يدين حقيقيتين تليقان بالله تعالى، هو مثل إثبات علم وقدرة وحياة وسمع وبصر يليق بالله تعالى، أما تأويل اليدين بالقوة أو القدرة، أو النعمة،

---

(١) المعلم (٣/ ١٩٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ح(٢٧٨٨)(١٧/ ١٣٨).

(٣) سورة ص، آية: ٧٥.

(٤) المعلم (٣/ ١٩٥).

فهذا مذهب الكلاَّبية والأشاعرة، وغيرهم، ممن ينفي صفات الله تعالى الخبرية، ولو فرض مجيء اليد بمعنى القدرة، فلا يجوز إطلاق هذا المعنى إلاَّ في حق من اتصف باليد على الحقيقة، ولذلك لا يقال: يد الهوى ولا يد الماء»[١].

وقد ورد ذكر اليدين في الآية بصيغة التثنية، وتأويلها بالقدرة لا يمكن لأن قدرة الله تعالى صفته، وهي مفردة، وقد قال تعالى لإبليس: ﴿مَامَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٢] إشارة إلى المعنى الذي أوجب السجود، فلوكانت اليد بمعنى القدرة لم يكن بين آدم وإبليس فرق لتشاركهما فيما خُلق كل منهما به وهي قدرته ولقال إبليس: وأي فضيلة له عليَّ وأنا خلقتني بقدرتك كما خلقته بقدرتك، فلما قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾[٣] دلَّ على اختصاص آدم بأن الله خلقه بيديه.

ولا جائز أن يراد باليدين النعمتان لاستحالة خلق المخلوق بمخلوق؛ لأن النعم مخلوقة[٤].

وأما جعل قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٥] من باب العناية بخلق آدم عليه السلام، وتشريفه بالإضافة إليه، فهذا كلام باطل؛ لأنه يقتضي أن اليدين ليستا من الصفات الحقيقية بل من الصفات المعنوية، وهذا مخالف لسياق الآية، ولفهم السلف، وذلك أن الفعل إذا أُضيف إلى الفاعل، وعُدِّيَ الفعل إلى اليد بحرف الباء كقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ كان نصًّا في أنه فعل الفعل بيديه، فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان ذلك زيادة محضة من غير فائدة، وكلام الله تعالى منزَّه عن ذلك»[٦].

وأهل السنة والجماعة قد أجمعوا على إثبات اليدين لله تعالى فيجب

---

(١) الفتاوى لابن تيمية(٦/ ٣٧٠).
(٢) سورة ص، آية: ٧٥.
(٣) سورة ص،آية: ٧٦.
(٤) فتح الباري لابن حجر(١٣/ ٤٠٥) وقد نقل هذا عن ابن بطال.
(٥) سورة ص، آية: ٧٥.
(٦) انظر: الفتاوى لابن تيمية(٦/ ٣٦٦).

إثباتهما بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف، ولا تمثيل، وهما يدان حقيقيتان، تليقان به سبحانه وتعالى.

إطلاق اليمين والشمال على يد الله تعالى:

جاءت النصوص من الكتاب والسنة بوصف يد الله سبحانه وتعالى بأنها يمين. قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[(1)]، وقال ﷺ: «**يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة**»[(2)]، وقال ﷺ: «**يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض**»[(3)]، وقال ﷺ: «**ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلَّا الطيب إلَّا أخذها الرحمن بيمينه**»[(4)]، وقوله ﷺ: «**إن المقسطين عند الله تعالى على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين**»[(5)].

فإطلاق اليمين على يد الله تعالى بإجماع السلف لهذه النصوص الكثيرة الصريحة بإثباتها ولا يلتفت لمن خالف هذا ممن حاد عن مذهب السلف فعطل صفات الله تعالى.

والقرطبي والمازري، كما أوَّلا صفة اليد، فكذلك صرفا ما جاء في إثبات اليمين عن ظاهرها إلى تأويلات باطلة.

قال القرطبي عند شرحه لقوله ـ عليه السلام ـ: «**عن يمين الرحمن**»،

---

(١) سورة الزمر، آية: ٦٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء، وهو رب العرش العظيم» ح(٧٤١٩)(١٣/ ٤١٥) ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة ح(٩٩٣)(٧/ ٨٤).

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى «ملك الناس» ح(٧٣٨٢)(١٣/ ٣٧٩) ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ح(٢٧٨٧)(١٧/ ١٣٧).

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ ح(٧٤٣٠)(١٣/ ٤٢٦) ومسلم في كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ح(١٠١٤)(٧/ ١٠٢).

(٥) سبق تخريجه ص(٤٢٢).

«قال ابن عرفة[١]: يقال: أتاه عن يمين: إذا أتاه من الجهة المحمودة. قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧﴾[٢] أي: أصحاب المنزلة الرفيعة وقيل غير هذا في الآية.

... وقد توسعت العرب في اليمين فأطلقوه ولا يريدون به يمين الجارحة بل الجهة المحمودة والظفر بالخصلة الشريفة المقصودة، كما قال شاعرهم:

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ   تلقَّاها عَرَابةُ باليمين[٣]

والمجد: الشرف، ورايته عبارة عما يظهر من خصاله، وهما معنويان، فاليمين التي تُتلقى به تلك الراية معنوي لا محسوس، فأشبه ما يحمل عليه اليمين في هذا الحديث ما قاله ابن عرفة»[٤].

وعند قوله ﷺ: «**يمين الله ملأى**» قال: «نسبة اليمين إلى الله تعالى نسبة مجازية توسعية عبر بها عن كثرة العطاء والقدرة عليه، وحمل على هذه الاستعارة عادة التخاطب وحصول التفاهم»[٥].

وقال المازري في شرح هذا الحديث: «هذا مما يتأول لأن اليمين التي هي جارحة إنما كانت يمينًا بنسبتها إلى الشمال فلا يوصف بها تعالى؛ لأنها تتضمن إثبات شمال، وهذا يؤدي إلى التحديد ويتقدس الباري سبحانه عن أن يكون جسمًا محدودًا، وإنما خاطبهم ﷺ بما يفهمونه إذ أراد الإخبار على أن الباري لا ينقصه الإنفاق، ولا يمسك خشية الإملاق، جلت قدرته وعظمت عن ذلك، وعبَّر عليه السلام عن قدرة الله سبحانه على توالي النعم بسح اليمين؛ إذ الباذل منَّا والمنفق يفعل ذلك بيمينه»[٦].

قال أبويعلى في إبطال هذه التأويلات: «فإن قيل قوله: «**عن يمين**

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني الحناطي المعلم توفي في حدود سنة(٤٢٠هـ). سير أعلام النبلاء (٢١٧/ ٤٢١).

(٢) سورة الواقعة، آية: ٢٧.

(٣) البيت للشاعر المخضرم الشماخ بن ضرار الذبياني انظر: ديوان الشماخ ص(٣٣٦).

(٤) المفهم (٤/ ٢٢) وانظر: (٣/ ٦٠).

(٥) المفهم(٣/ ٣٧).

(٦) المعلم (٢/ ١٤).

الرحمن» المراد به المنزلة الرفيعة، والمحل العظيم، قيل: هذا غلط؛ لأنه لو أراد ذلك لقال: المقسطون في يمين الرحمن، ولأنه قال: «**وكلتا يديه يمين**» فلو كان المراد به المنزلة لم يكن لذكر اليد معنى. فإن قيل: حمله على ظاهره يستحيل على الله سبحانه؛ لأنه يؤدي إلى وصفه بالحد والجهة، قيل: لا يفضي إلى ذلك كما أن قوله: «**ترون ربكم كما ترون القمر**» حملناه على ظاهره، وإن كنا نعلم أن رؤية القمر في جهة محدودة والله تعالى لا في جهة[١] ولا محدود»[٢].

ولا شك أن المذهب الحق هو ما عليه أهل السنة والجماعة من إثبات اليمين لله سبحانه وتعالى.

قال الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ رده على هذه التأويلات الباطلة المنكرة لوصف يد الله تعالى باليمين والتي ذكرها الحافظ ابن حجر في فتح الباري عند قوله ﷺ: «**ما تصدق أحد بصدقة... إلَّا أخذها الرحمن بيمينه**»[٣]: «هذه التأويلات ليس لها وجه، والصواب إجراء الحديث على ظاهره، وليس في ذلك بحمد الله محذور عند أهل السنة والجماعة؛ لأن عقيدتهم الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة الصحيحة من أسماء الله سبحانه وصفاته وإثبات ذلك لله على وجه الكمال مع تنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقات، وهذا هو الحق الذي لا يجوز العدول عنه. وفي هذا الحديث دلالة على إثبات اليمين لله سبحانه، وعلى أنه يقبل الصدقة عن الكسب الطيب ويضاعفها»[٤].

وأما إثبات الشمال أو اليسار لله تعالى فقد وقع الخلاف فيه بين أهل السنة: فذهب البعض إلى جواز ذلك للحديث الذي أخرجه مسلم وهو قوله ﷺ: «**يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم**

---

(١) نفي الجهة عن اللهمن الألفاظ المحدثة التي تحتمل الحق والباطل وسيأتي التفصيل في ذلك.

(٢) ابطال التأويلات (١/ ١٨١، ١٨٢) بتصرف.

(٣) سبق تخريجه ص(٤٢٦).

(٤) فتح الباري(٣٢٩) هامش (١).

يقول: أين الجبَّارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله. . .»[١]، وقالوا: إن وصف إحدى اليدين باليمين كما جاءت في الأحاديث يقتضي أن الأخرى ليست يمينًا، فتكون شمالاً، وفي بعض الأحاديث تذكر اليمين ويذكر مقابلها: «بيده الأخرى» وهذا يعني أن الأخرى ليست اليمين فتكون الشمال، فيكون موافقًا لما جاء في هذا الحديث. وممن قال بهذا الدارمي وأبويعلى، وصديق خان[٢]، والهراس، والغنيمان وغيرهم[٣].

وقالوا: إن قوله ﷺ: «**كلتا يديه يمين**» لبيان تنزيهه تعالى عن النقص والضعف كما في أيدينا، الشمال من النقص وعدم البطش، فهو من إجلال الله وتعظيمه[٤].

وقال آخرون: منهم: ابن خزيمة، والبيهقي، والألباني[٥]، وغيرهم[٦]

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٢٤).

(٢) محمد صديق بن حسن الحسيني البخاري القنوجي المعروف بصديق حسن خان من العلماء الأمراء الذين سلكوا منهج السلف ودافعوا عنه في القرن الثالث عشر الهجري وساهم في نشره ماتولاه من مناصب رفيعة في حكومة بهوفال بالهند. مكثر من التأليف من مصنفاته: «فتح البيان في مقاصد القرآن»، «الدين الخالص»، «الروضة الندية شرح الدرة البهية»وغيرها توفي سنة(١٣٠٧هـ)معجم المؤلفين (٣/ ٣٥٨)،الأعلام(٦/ ١٦٧).

(٣) قال الشيخ محمد خليل هراس: يظهر أن المنع من إطلاق اليسار على الله عزوجل إنما هو على جهة التأدب فقط فإن إثبات اليمين وإسناد بعض الشؤون إليها كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ وكما في قوله عليه السلام: «**إن يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار**» يدل على أن اليد الأخرى المقابلة لها ليست يمينًا انظر تعليقه على كتاب التوحيد، وانظر أقوال الآخرين في رد الدارمي على المريسي (٢/ ٦٩٨) وإبطال التأويلات لأبي يعلى (١/ ١٧٨) وقطف الثمر لصديق خان ص(٦٦) وشرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٣٠٦).

(٤) انظر رد الدارمي على المريسي (٢/ ٦٩٨).

(٥) هوالشيخ العلم العلامة محدث العصر محمد ناصر الدين الألباني ولد سنة (١٣٣٢هـ) في ألبانيا ثم نزح إلى سوريا وتلقى العلم هناك حتى برز خصوصًا في علم الحديث جاء إلى المملكة مدرسًا في الجامعة الإسلامية سنة(١٣٨١هـ) في أول تأسيسها ثم رجع إلى سوريا ثم استقر في الأردن له العديد من المؤلفات منها«سلسلة الأحاديث الصحيحة» «سلسلة الأحاديث الضعفية» «التوسل أنواعه وأحكامه» «جلباب المرأة المسلمة» وغيرها، توفي رحمه الله في «عمَّان» بالأردن يوم السبت (٢٢/ ٦/ ١٤٢٠هـ).

(٦) سئل الشيخ الألباني رحمه الله: كيف نوفق بين رواية «بشماله» الواردة في حديث ابن =

بأن كلتا يدي الله يمين لا شمال ولا يسار فيهما.

قال القرطبي في وصف يد الله تعالى بالشمال: «قوله: «**ثم يطوي الأرض بشماله**» كذا جاء في الرواية بإطلاق لفظ الشمال على يد الله تعالى، ولا يكاد يوجد في غير هذه الرواية، وإنما الذي اشتهر في الأحاديث «**وبيده الأخرى**» كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري، وقد تحرز النبي ﷺ من إطلاق لفظ الشمال على الله تعالى، فقال: «**وكلتا يديه يمين**» لئلا يتوهم نقص في صفة الله تعالى، فإن الشمال في حقنا أضعف من اليمين وأنقص، فنفى النبي ﷺ عن الله ذلك، لكنه جاء في هذا الحديث كما ترى على المقابلة المتعارفة في حقوقنا والله تعالى أعلم»[(١)].

وقال المازري عند شرحه للحديث الذي فيه إثبات الشمال: «لما علم سبحانه أنا نحن نتناول ما نكرم باليمين، وما دونه بالشمال، وأنا نقوى بأيماننا على أشياء لا نقوى عليها بشمائلنا، وكانت السموات أعظم بما لا يتقارب ولا يتدانى من الأرضين، أضاف فعله فيها إلى اليمين وفعله في الأرض إلى الشمال على حسب ما قلناه، من أنا نحاول الأصعب باليمين، والأخف بالشمال، وإن كان الله سبحانه ليس شيء عليه أخف من شيء، ولا شيء أصعب من شيء، ولكنه تعالى خاطبنا بما نفهم، ولما ذكر اليد تمثيلاً أتم المعنى على التمثيل بعينه، ولا يبعد أن يكون في السموات ما هو أفضل من الأرض وكل ما فيها، لاسيَّما إذا قلنا بتفضيل الملائكة، أو يكون

= عمر رضي الله عنهما وبين قوله ﷺ «وكلتا يديه يمين».

فقال لاتعارض بين الحديثين بادىء بدء فقوله ﷺ «وكلتا يديه يمين» تأكيد لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ فهذا الوصف الذي أخبر به رسول الله ﷺ تأكيد للتنزيه فيد الله ليست كيد البشر: شمال ويمين ولكن كلتا يديه سبحانه يمين.

وأمر أخر أن رواية «بشماله» شاذة كما بينتها في تخريج المصطلحات الأربعة الواردة في القرآن»، (رقم١) للمودودي.

ويؤكد هذا أن أباداود رواه وقال: «بيده الأخرى» بدل «بشماله» وهو الموافق لقوله ﷺ «وكلتا يديه يمين» والله أعلم. مجلة الأصالة العدد الرابع ص(٦٨).

وانظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة(١/ ١٥٩) والأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ١٣٨).

(١) المفهم(٧/ ٣٩٢).

الباري سبحانه يفضل السموات لأمور تخفى عنا، فيكون أضافها إلى اليمين لما قلنا من اختصاص اليمين بالأشرف، والشمال بما هو دونها، وجرى في ذلك على حكم التمثيل الذي به افتتح فختم عليه، وهذا الذي ظهر إليَّ في هذا الحديث»[١].

صفة الأصابع :

الأصابع ثابتة لله عز وجل بالسنة الصحيحة، فقد جاء من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «**جاء رجلٌ من أهل الكتاب إلى رسول الله ﷺ فقال: ياأبا القاسم إن الله يمسك السموات على إصبع والأرضين على أصبع، والشجر والثرى على أصبع، ثم يقول: أنا الملك، أنا الملك. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال:** ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[٢]»[٣].

وجاء عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء**»[٤]. قال ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ: «باب إثبات الأصابع لله عز وجل»[٥] ثم ذكر بالأسانيد ما يثبت ذلك[٦].

وقال الآجري: «باب الإيمان بأن قلوب الخلائق بين إصبعين من أصابع الرب عز وجل بلا كيف»[٧].

وقال البغوي: «والإصبع المذكور في الحديث صفة من صفات الله عز وجل، وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل من صفات الله

---

(١) المعلم (٣/ ١٩٦).

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٧.

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قوله تعالى: «لما خلقت بيدي» ح(٧٤١٥) (١٣/ ٤٠٤) ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ح(٢٧٨٦) (١٧/ ١٣٥).

(٤) رواه مسلم في كتاب القدر باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء ح(٢٦٥٤) (١٦/ ٤٤٣).

(٥) كتاب التوحيد لابن خزيمة (١/ ١٨٧).

(٦) المرجع السابق (١/ ١٨٧ـ ١٩٢).

(٧) الشريعة للآجري (٣/ ١١٥٦).

عز وجل كالنفس والوجه والعين واليد والرجل. . .»[١].

ومع هذه النصوص الصريحة في إثبات الأصابع لله تعالى على الوجه الذي يليق به سبحانه من غير تشبيه كما هو مذهب أهل السنة، إلاَّ أن القرطبي والمازري سارا على المذهب المخالف لمذهب السلف في تأويل هذه الصفات، وصرف هذه النصوص عن ظواهرها بتأويلات بعيدة لا تحتملها ألفاظ النصوص الواردة.

قال القرطبي في شرحه للحديث الأول: «قول اليهودي: إن الله يمسك السموات على إصبع. . . الحديث إلى آخره» هذا كله قول اليهودي لا قول النبي ﷺ، والغالب على اليهود أنهم يعتقدون الجسمية، وأن الله تعالى شخص، ذو جوارح، كما تعتقده غلاة الحشويَّة في هذه الملة، وضحك النبي ﷺ إنما هو تعجب من جهله، ألا ترى أنه قرأ عند ذلك: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[٢] أي: ما عرفوه حق معرفته، ولا عظموه حق تعظيمه، وهذه الرواية هي الرواية الصحيحة المحققة، فأما رواية من زاد في هذا اللفظ تصديقًا له، فليست بشيء؛ لأنها من قول الراوي، وهي باطلة؛ لأن النبي ﷺ لا يصدق الكاذب، ولاالمحال، وهذه الأوصاف في حق الله تعالى محال بدليل ما قدمناه غير مرة، وحاصله: أنه لو كان ذا يد وأصابع وجوارح على نحو ما هو المعروف عندنا لكان كواحدٍ منا، ويجب له من الافتقار والحدث والنقص والعجز ما يجب لنا، وحينئذ تستحيل عليه الإلهية، ولو جازت الإلهية لمن كان على هذه الأوصاف لجاز أن يكون كل واحد منا إلهًا ولصحت الإلهية للدجال، ولصدق في دعواه إياها، وكل ذلك كذب ومحال، والمفضي إليه كذب ومحال، فقول اليهودي كذب ومحال، ولذلك أنزل الله تعالى في الرد عليه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وإنما تعجب النبي ﷺ من جهله فوهم الراوي، وظن أن ذلك التعجب تصديق وليس كذلك، فإن قيل: فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن قلوب بني آدم**

---

(١) شرح السنة للبغوي (١/ ١٦٦).

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٧.

بين إصبعين من أصابع الرحمن»[١] فقد أخبر بأن له أصابع، فالجواب: أنه إذا جاءنا مثل هذا في كلام الصادق تأولناه، أو توقفنا فيه إلى أن يتبين وجهه مع القطع باستحالة ظاهره لضرورة صدق من دلت المعجزة على صدقه، فأما إذا جاءنا مثل هذا على لسان من يجوز عليه الكذب بل من أخبرنا الصادق عن نوعه بالكذب والتحريف، كذبناه وقبحناه، ثم لو سلمنا أن النبي ﷺ صدقه وقال له: صدقت، لما كان تصديقًا له في المعنى، بل: في النقل أي: في نقل ذلك عن كتابه أو عن نبيه، وحينئذ نقطع بأن ظاهره غير مراد، ثم هل نتوقف في تعيين تأويل ونسلِّم، أو نبدي تأويلاً له وجه في اللسان وصحة في العقل، على الرأيين اللذين لأئمتنا، وقد تقدما، وقد قلنا: إن الإصبع يصح أن يراد به القدرة على الشيء ويسارة تقليبه، كما يقول من استسهل شيئًا واستخفه مخاطبًا لمن استثقله: أنا أحمله على إصبعي، أو أرفعه بإصبعي، وأمسكه بخنصري، وكما يقول من طاعَ بحمل شيء: أنا أحمله على عيني، وأرفعه على رأسي يعني به: الطواعية وما أشبه ذلك مما في معناه، وهو كثير، ولما كان ذلك معروفًا عند العقلاء متداولاً بينهم خوطبوا بذلك جريًا على منهاجهم، وتوسعًا معلومًا عندهم، وعلى هذا فيمكن حمل الحديث وما في معناه على نحو من هذا، وبيان ذلك: أن السموات والأرض وهذه الموجودات عظيمة أقدارها في إدراكنا، وكبير خلقها في حقنا، فقد يسبق الوهم الغالب على الإنسان أن خلقها وإمساكها على الله كبير، وتكلفها عسير، فنفى النبي ﷺ هذا الوهم بهذا الحديث، وبيَّنه على طريق التمثيل بما تعارفناه، فكأنه قال: خلق بيده المذكورات العظيمة، وإمساكها في قدرة الله تعالى كالشيء الحقير الذي تجعلونه بين أصابعكم وتهزُّونه بين أيديكم، وتتصرفون فيه كيف شئتم، ولهذا أشار بقوله: «**ثم يقبض أصابعه ويبسطها**»[١]، وبقوله: «**ثم يهزهن**» أي: هن في قدرته كالحبة مثلاً في حق أحدنا، أي: لا يبالي بإمساكها ولا بهزها،

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٣١).

ولا تحريكها، ولا القبض والبسط عليها، ولا يجد في ذلك صعوبة ولا مشقة، ومن لا يقنعه هذا التفهيم فليس له إلاَّ سلامة التسليم، والله بحقائق الأمور عليم»(١).

وفي شرحه للحديث الثاني بين أن إثبات الإصبع لله محال، ثم ذكر تأويلات لهذا الحديث، وهي: أن هذا الإصبع يراد به بيان التمكن منه، والتصرف فيه، أو إن الإصبع في الحديث يراد به النعمة والتثنية لأجل نعمة النفع، ونعمة الدفع، فيصرفُ اللهُ عن القلوب ضرًّا ويوصل إليها نفعًا، ثم رد هذا بأنه نفع ودفع يختص بقلوب الصالحين، فتشكل قلوب الفساق والكفار، فرجح تأويله بالنعمة وختمه بقوله: التسليم هو الطريق السليم»(٢).

وقال المازري في شرح الحديث الأول: «الإصبع قد يراد به معنى الاقتدار، وقد يراد به معنى النعمة، وهذا الحديث، قد يراد به أن الله خلق السموات على عظمها مقتدرًا عليها، من غير أن يمسه تعب ولغوب، كما أن الإنسان منا لا يشق عليه ولا يتعبه ما يصرفه على إصبعه، والناس يذكرون الإصبع في مثل هذه المعاني احتقارًا، ويقولون: بإصبع واحدة أقتلك، أو أفعل كذا أوكذا، فقد يراد هَـٰهُنا هذا المعنى أن الله سبحانه لم يتعبه خلق ما ذكر ولا شق عليه على عظم مخلوقاته هذه، وقد قال بعض الناس: قد يكون بعض المخلوقات اسمه إصبع، فأخبر بخلق هذه الأشياء عليه، وقال بعضهم: يحتمل أن يُراد إصبع بعض خلقه، وهذا غير مستنكر في قدرة الله سبحانه، والغرض المنع أن يكون لله سبحانه إصبع الجارحة لإحالة العقل له، ثم بعد هذا يتأول على ما يجوز، وقد أرينا طرقًا من التأويل»(٣).

وقال عند شرحه للحديث الثاني: «هذا تجوز وتوسع كما يقول القائل: فلان في قبضتي، وبكفي، ولا يريد أنه حال بكفه، وإنما المراد أنه

(١) المفهم (٧/ ٣٨٩).
(٢) انظر: المفهم (٦/ ٦٧٢).
(٣) المعلم (٣/ ١٩٥).

تحت قدرتي، وكذلك يقال: ما أفعل هذا إلاَّ بإصبعي، أو فلان بين إصبعي أصرفه كيف شئت، ولا يريد أنه حالٌّ بين الإصبعين، وإنما يريد: أنه هين عليه القهر له، والغلبة، وتصريفه كيف شاء، فكذلك المراد بقوله: «**إصبعين من أصابع الرحمن**» أي: أنه متصرف بحسب قدرته ومشيئته سبحانه وتعالى لا يعتاص عليه، ولا يفوته ما أراد منه، كما لا يعتاص على الإنسان ما كان بين إصبعيه، ولا يفوته وخاطب العرب من حيث تفهم، ومثَّل بالمعاني المحسوسة تأكيدًا للمعاني في نفوسها، فإن قيل: فإن قدرة الله سبحانه واحدة، والإصبعان هٰهنا اثنان، قيل: قد أخبرنا أن ذلك مجاز واستعارة وتمثيل، فوقع الكلام على حسب ما اعتادوه في هذا الخطاب غير مقصود منه إلى تثنية أو جمع، ويحتمل أن يُراد بالإصبع هٰهنا النعمة ويقال: عندي لفلان إصبع حسنة، أي يد جميلة، ولكن يقال على هذا: فلم ثنَّىٰ النعمة؟ ونعم الله لا تحصى، قيل: لا تحصى آحادها، والأجناس قد تحصى، فيكون المراد بالنعمتين اللتين عبر عنهما بالإصبعين نعمة النفع ونعمة الدفع، فنعمة النفع هي الظاهرة، ونعمة الدفع هي الباطنة، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1]: إن الظاهرة نعمة النفع والباطنة نعمة الدفع، وقلب العبد للباري سبحانه عليه نعمة نفع ونعمة دفع، فلا يبعد أن يراد بالنعمتين هاتان أو غيرهما من الأجناس التي تليق بهذا»[2].

وكلام القرطبي والمازري في هذه الصفة يدل على التكلف الشديد والحرص الأكيد على صرف النص عن ظاهره لزعمهم أن إثباته يستلزم أن يكون من جنس أصابع المخلوقين، وهذا ظنٌّ سيء بالله تعالى، وبكلامه، وكلام رسوله ﷺ، وقعوا فيه بسبب تأثرهم بالمنهج الكلامي الفاسد المتناقض.

وأهل السنة ينفون التشبيه عن الله تعالى مع إيمانهم بالنصوص وتسليمهم بمقتضاها.

---

(١) سورة لقمان، آية: ٢٠.

(٢) المعلم (٣/ ١٧٩).

ونرى القرطبي قد صرف الحديث الأول عن الاستدلال به على هذه الصفة إذ جعل هذا من كلام اليهودي الذي أنكره الرسول ﷺ بضحك المعجب من جهله، وإن في تلاوته عليه الصلاة والسلام للآية ردٌّ عليه، ووهَّم الراوي في قوله ضحك «تصديقًا له».

ولا شك أن طعنه في الراوي مما لا يسلَّم له، إذ في هذا طعن بالثقات الأثبات من الرواة، وردٌّ للأخبار الثابتة حرصًا على أصولهم الفاسدة، ولو كان الأمر على خلاف ما ظن الراوي لكان الرسول ﷺ مُقرًّا له على الباطل، وحاشاه ﷺ من ذلك.

قال الإمام ابن خزيمة في رد هذا الرأي، وبيان فساده: «قد أجل الله قدر نبيه ﷺ عن أن يوصف الخالق البارىء بحضرته بما ليس من صفاته، فيسمعه فيضحك عنده ويجعل بدل وجوب النكير والغضب على المتكلم به ضحكًا تبدو نواجذه تصديقًا وتعجبًا لقائله. لا يصف النبي ﷺ بهذه الصفة مؤمن مصدق برسالته»(١).

ونعلم من وصفه ﷺ أنه كان شديد الغضب لله تعالى ومواقف إنكاره وغضبه ﷺ إذا انتهكت محارم الله لا تخفى على مُطَّلع على سنته وسيرته.

ثم صرف القرطبي والمازري لهذا الحديث وللحديث الآخر بتأويلات باطلة بعيدة، كقولهم: إن هذا من المجاز والاستعارة الجارية مجرى المثل، أو إن المقصود بالإصبع: القدرة، أو النعمة، أو المقصود: خلق من خلق الله اسمه «إصبع» أو إصبع بعض خلقه، وغيرها من التأويلات التي يغني عرضها عن نقدها.

وهما قد ترددا في ذلك، وبحثا عن كل مخرج إلاَّ الإثبات الذي عليه سلف الأمة وأتباعهم من الخلف.

وقد رد عليهم ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ هذه التأويلات بعد ذكره لقوله ﷺ: «**إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن**» حيث قال: «ونحن نقول إن هذا الحديث صحيح، وأن الذي ذهبوا إليه في تأويل الإصبع لا

---

(١) التوحيد لابن خزيمة (١/ ١٧٨).

يشبه الحديث؛ لأنه عليه السلام قال في دعائه: «**يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**» فقالت له إحدى أزواجه: أَوَتَخَاف يارسول الله على نفسك؟ فقال: «**إن قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الله عز وجل**»[١] فإن كان القلب عندهم بين نعمتين من نعم الله تعالى فهو محفوظ بتينك النعمتين، فلأي شيء دعا بالتثبيت؟ ولم احتج على المرأة التي قالت له: «أتخاف على نفسك؟» بما يؤكد قولها؟ وكان ينبغي أن لا يخاف إذا كان القلب محروسًا بنعمتين. فإن قال لنا: ما الإصبع عندك هـٰهُنا؟ قلنا: هو مثل قوله في الحديث الآخر: «**ويحمل الأرض على إصبع**»، وكذا «**على إصبعين**» ولا يجوز أن تكون الإصبع هـٰهُنا نعمة، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[٢] ولم يجز لك ولا نقول: إصبع كأصابعنا، ولا يد كأيدينا، ولا قبضة كقبضاتنا؛ لأن كل شيء منه عز وجل لا يشبه شيئًا منا»[٣].

وقال أبويعلى في إبطال هذه التأويلات: «فإن قيل: يحتمل أن يكون المراد بالأصابع: الملك والقدرة، ويكون فائدته أن قلوبهم في قبضته جارية على قدرته، وذكر هذا عليه السلام عن طريق المثل.

قيل: هذا غلطٌ؛ لأن حمله على الملك والقدرة والنعم، يسقط فائدة التخصيص بالقلب؛ لأن جميع الأشياء هذا حكمها، وأنها في ملكه وبنعمه. ولأنه لو أراد النعمتين، لكان القلب محفوظًا بها، ولم يحتج إلى الدعاء بالتثبيت، ولما دعا بالتثبيت، لم يصح حمله على النعمتين، وهذا جواب ابن قتيبة. وأما القول بالمجاز، فلا يصح في صفات الله تعالى؛ لأنه لا حقيقة للمجاز. وأما القول بأن المراد بقوله عليه السلام: «**يمسك السموات على إصبع...**» أي: على إصبع بعض خلق يخلقه، فلا يصح هذا؛ لأنه جاء في الحديث: «**وسائر الخلق على إصبع**» فاقتضى ذلك أنه لم يبق

---

(١) رواه الترمذي في أبواب الدعوات باب (٩٠) وقال: حديث حسن وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٧١).

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٧.

(٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتية ص(٢٠٩).

مخلوق إلاَّ وهو على الإصبع فلو كان المراد به إصبع بعض خلقه لخرج بعض الخلق عن أن يكون على الإصبع وهذا خلاف الخبر.

ثم إن المفسرين قالوا: إن هذا يكون عند فناء الخلق وإماتتهم، فلا يكون له مجيب غير نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ١٦﴾[1] فدل هذا على أنه لم يبق هناك خلق يضع السموات على إصبعه. فإن قيل: في الخبر ما يدل على القدرة، وهو قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[2] قيل: معناه ما عرفوا الله حق معرفته، وإذا كان هذا معناه لم يكن المراد به القدرة»[3].

والصواب في هذا ما عليه أهل السنة والجماعة من إثبات الصفة لله تعالى بهذه النصوص مع نفي المشابهة والتمثيل والابتعاد عن التكييف أو التعطيل والله الهادي إلى سواء السبيل.

صفة الرِّجْل والقَدَم:

صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله تعالى بالأحاديث الصحيحة، منها قوله ﷺ: «**فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله ـ وعند مسلم: قدمه ـ فتقول قط قط**»[4]، وقوله ﷺ: «**يُقال لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها، فتقول: قط قط**»[5]، هذا سوى الآثار الموقوفة على الصحابة في إثبات القدمين لله تعالى[6]، فأهل السنة يثبتون لله تعالى هذه الصفة على ما جاءت بها النصوص كما يليق به سبحانه من غير مشابهة لخلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) سورة غافر، آية: ١٦.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٧.

(٣) إبطال التأويلات لأبي يعلى (٢/ ٣١٧، ٣٢٤) بتصرف.

(٤) رواه البخاري في كتاب التفسير باب «وتقول هل من مزيد» ح(٤٨٥٠)(٨/ ٤٦٠) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ح(٢٨٤٦)(١٧/ ١٨٨).

(٥) رواه البخاري في كتاب التفسير باب، «وتقول هل من مزيد» ح(٤٨٤٩)(٨/ ٤٦٠) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ح(٢٨٤٨)(١٧/ ١٨٩).

(٦) انظر: التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٠٢) والدارمي في الرد على المريسي (١/ ٣٩٤).

ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[١].

قال القرطبي: «حتي يضع رب العزة فيها قدمه»، وفي اللفظ الآخر: «حتى يضع الله رجله» ولم يذكر لا فيها ولا عليها، وقد ضل بظاهر هذا اللفظ من أذهب الله عقله، وأعدم فهمه، وهم المجسمة المشبهة، فاعتقدوا: أن لله تعالى رجلاً من لحم وعصب تشبه أرجلنا كما اعتقدوا في الله تعالى أنه جسم يشبه أجسامنا، ذو وجه وعينين، وجنب، ويد، ورجل، وهكذا، وهذا ارتكاب جهالة، خالفوا بها العقول وأدلة الشرع المنقول، وما كان سلف هذه الأمة عليه من التنزيه عن المماثلة والتشبيه، وكيف يستقر هذا المذهب في قلب من له أدنى فكرة، ومن العقل أقل مسكة، فإن الأجسام من حيث هي كذلك متساوية في الأحكام العقلية، وما ثبت للشيء ثبت لمثله[٢]، وقد ثبت لهذه الأجسام الحدوث، فيلزم عليه أن يكون الله تعالى حادثًا، وهو محال باتفاق العقلاء والشرائع، ثم انظر غفلتهم وجهلهم بكلام الله تعالى وبمعانيه، فكأنهم لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[٣] ويلزم على قولهم: أن يكون كل واحد منا مثلاً له تعالى من جهة الجسمية والحيوانية والجوارح وغير ذلك من الأعضاء والأعصاب واللحم والجلود والشعور[٤] وغير ذلك وكل ذلك جهالات وضلالات ولله سرٌّ في إبعاد بعض العباد ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾[٥] وقد تأول علماؤنا ذلك الحديث تأويلات وأشبه ما فيها تأويلان:

أحدهما: أن النار تتغيظ وتتهيج حنقًا على الكفار والمتكبرين والعصاة، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[٦] وكما قال: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ

---

(١) سورة الشورى، آية: ١١.
(٢) سبق الرد على هذه الشبهة الفاسدة التي ينفون بسببها عامة الصفات الذاتية.
(٣) سورة الشورى، آية: ١١.
(٤) حتى المجسمة لم يقولوا بهذا ولكنه من باب التهويل.
(٥) سورة الرعد، آية: ٣٣.
(٦) سورة الملك، آية: ٨.

﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾[(١)] وكما قال في هذا الحديث: «**لاتزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟**» وكما قال: «**تخرج عنق من النار فتقول وكلت بالجبارين والمتكبرين**»[(٢)] فكأنها تعلو وتطغى حتى كأنها تجاوز الحد وفي بعض الحديث أنها تكاد أن تلتقم أهل المحشر فيكسر الله سورتها وحدتها وبردها ويذللها ذل متكبر وطيء بالقدم والرجل، فعبر عن تذليلها بذلك ويشهد لذلك قوله ﷺ: «**فيضع قدمه عليها**» وعلى هذا فيكون «فيها» في الرواية الأخرى بمعنى عليها كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[(٣)] أي: على جذوع النخل.

وثانيهما: أن القدم والرجل عبارة عمن تأخر دخوله في النار من أهلها وهم جماعات كثيرة؛ لأن أهل النار يلقون فيها فوجًا بعد فوج كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾[(٤)] ويؤيده قوله في الحديث: «**لايزال يلقى فيها**» فالخزنة تنتظر أولئك المتأخرين؛ إذ قد علموهم بأسمائهم وأوصافهم كما قد روي عن ابن مسعود أنه قال: ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مقمع ولا تابوت إلاَّ وعليه اسم صاحبه، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف اسمه وصفته فإذا استوفى كل واحد منهم ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد. قالت الخزنة: قط قط، أي: حسبنا حسبنا اكتفينا فحينئذ تنزوي جهنم على من فيها أي: تجتمع وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر فعبَّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرجل والقدم كما عبرت العرب عن جماعة الجراد بالرجل فتقول: جاء رجلُ من جراد، أي: جماعة منها ويشهد بصحة هذا التأويل قوله في آخر الحديث: «**ولايزال في الجنة فضل حتى ينشىء لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة**» والله بمراد رسوله أعلم

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٠.

(٢) رواه الترمذي في أبواب صفة جهنم باب صفة النار وهو بلفظ «يخرج عُنُقٌ من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبَّار عنيدٍ وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصورين» والحديث صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٣٢٠).

(٣) سورة طه، آية: ٧١.

(٤) سورة الملك، آية: ٨.

والتسليم في المشكلات أسلم»[١].

قلت: عفا الله عن القرطبي، ما أشدَّ هذا التكلف! وما أبعد هذا التأويل! لقد أقر الباطل بقوله هذا ودفع الحق، ونسب إلى السلف ما لم يقولوه، وألزمهم بما لم يعتقدوه مع رميه لهم بالتجسيم ووصفهم بالتشبيه.

لقد أجهد القرطبي نفسه في جمع ماستطاع لتأييد ما ذهب إليه من التأويل مع وضوح النصوص وجلاء دلالتها، وكان يسعه ماوسع السلف الماضين من الأئمة المرضيين، فقوله هذا من تحميل الصفة ما لا تحتمل، وقد جاءت هذه الألفاظ عن أفصح الخلق ﷺ وأنصحهم للأمة، وبمقتضى هذه النصوص الظاهرة الجلية آمن السلف بإثبات هذه الصفة لله تبارك وتعالى، واعتقدوا ذلك دون تأويل أو تفويض كحال هؤلاء، لكنها المناهج الفاسدة والآراء المبتدعة، والقواعد الباطلة التي هي سمة مذهبهم في الصفات، حيث عطلوا الله تعالى عن صفاته، ورموا من أثبتها بتشبيه ذاته بمخلوقاته، تعالى الله عن ذلك، وختم ـ عفا الله عنه ـ حديثه بقوله: «والتسليم أسلم» وليته سلَّم فسلم، والسلامة لا يعدلها شيء.

وكذلك المازري سلك هذا المسلك، فالتزم التأويل وصرف النص عن ظاهره من غير دليل، حيث قال: «هذا الحديث من مشاهير الأحاديث التي وقعت موهمة للتشبيه. ولمَّا نقله الأثبات، واشتهر عند الرواة، تكلف العلماء قديمًا وحديثًا الكلام عليه، والنظر في تأويله، فمنهم من حمل القدم على السابق المتقدم، ويقال: للمتقدم قدم، فيكون تقدير الكلام حتى يضع الجبار فيها من قدم لها من أهل العذاب، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٢] معناه: التقدم والسبق، لا قدم الرجل، فإذا وقع مثل ذلك في القرآن حملنا ما وقع في السنة عليه، وإلى هذا التأويل مال النضر بن شميل[٣]،

---

(١) المفهم (٧/ ١٩٣ـ١٩٦).

(٢) سورة يونس، آية: ٢.

(٣) النضر بن شميل بن خرشة المازني البصري إمام حافظ عالم بالحديث واللغة تولى القضاء بمرو توفي سنة (٢٠٣هـ). تهذيب التهذيب (٤/ ٢٢)، تذكرة الحفاظ للذهبي (١/ ٣١٤).

وقد أشار ابن الأعرابي[1] إلى أن القدم يعبر به عن هذا المعنى، ولكن في الشرف والجلالة، ويحتمل أن يكون المراد هـٰهُنا بالحديث قدم بعض خلقه، وتكون الإضافة هـٰهُنا إلى الله سبحانه إضافة فعل لا إضافة جارحة، وقد قال بعضهم: يحتمل أن يريد أن الله سبحانه يخلق في الآخرة خلقًا يسمى بهذه التسمية فلا تمتليء النار إلاَّ به.

ويحتمل وجه آخر على رواية من رواه «حتى يضع الجبار» أن يريد به الشيطان؛ لأنه أصل الجبارين أو يريد به أحد الكفرة من الجبابرة، فيكون المعنى: لا تمتليء حتى يضع إبليس فيها قدمه، أو هذا المشار إليه، وأما ما خرجه مسلم في بعض طرقه حتى يضع الله رجله، فقد أنكر هذه اللفظة بعض أهل العلم وزعم ابن فورك أنها غير ثابتة عند أهل النقل، ولكن لابد من تأويلها لأجل تخريج مسلم لها، وهو كما وصفناه في كتابنا هذا أولاً ووصفنا أحاديثه، فيصح أن يكون المراد هـٰهُنا رجل بعض خليقته وأضاف ذلك إليه عز وجل إضافة فعل لا إضافة جارحة كما قدمناه في القدم، ويصح فيه تأويل آخر أيضًا، وهو أن يكون المراد بالرجل هـٰهُنا الجماعة من الناس كما يقال: رجل من جراد أي جماعة من جراد، وقد وقع ذلك في أشعار كثيرة، وإذا أمكن حمل الحديث على هذه التأويلات الصحيحة الجائزة على الله سبحانه لم يصح حمله على ما تقوله المجسمة من إفادته إثبات الجارحة لله، تعالى عن قولهم، وقد قام الدليل القاطع العقلي على استحالة ذلك عليه جل وعلا، وهذا واضح فتأمله»[2].

وكل هذا التخبط لا يغني من الحق شيئًا فأهل السنة يثبتون القدم صفة لله عز وجل من غير تشبيه، ويردون هذه التأويلات الباطلة على أصحابها.

قال ابن خزيمة: «باب: ذكر إثبات الرِّجل لله عز وجل، وإن رغمت أنوف المعطلة الجهمية الذين يكفرون بصفات خالقنا ـ عز وجل ـ التي أثبتها

---

(١) محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي إمام في اللغة له عدة مصنفات ورع زاهد صاحب سنة واتباع، توفي سنة (٢٣١هـ). سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٨٧).

(٢) المعلم (٣/ ٢٠٠).

لنفسه في محكم تنزيله على لسان نبيه المصطفى ﷺ[١].

وقال أبويعلى مفندًا تأويلات المبتدعة لصفة القدم: فإن قيل: معنى القدم هـٰهُنا المتقدم من المشركين يضعه في النار؛ لأن العرب تقول للشيء المتقدم: قدم وعلى هذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٢] أي: سابقة صدق.. قيل: هذا غلط لوجهين:

أحدهما: أن قوله: «**يضع قدمه**» هاء كناية وهاء الكناية ترجع إلى المذكور، والمذكور في الخبر الله سبحانه، وفي لفظ آخر: «**الجبار**» وفي لفظ آخر: «**رب العزة**» فوجب أن يرجع إليه، فأما المتقدم من الكفار فلم يتقدم ذكرهم فلا يجب رجوع الهاء إليهم.

الثاني: أن هذا يسقط فائدة التخصيص بالنار؛ لأن المتقدم بفعل الخير يضعه في الجنة، فلو كان المراد بالقدم المتقدم لم يكن لتخصيصه بالنار فائدة، فوجب حمله على ظاهره ليفيد فائدة.

فإن قيل: المراد بالقدم هـٰهنا: خلق من خلق الله تعالى يخلقه الله تعالى يوم القيامة فيسميه: قدمًا ويضعه الله من طريق الفعل، والملك يضعه في النار. قيل هذا غلط لما تقدم من الوجهين.

فإن قيل: المقصود جنس الجبابرة وهم الكفرة المعاندون بقوله: «**يضع الجبار**» قيل هذا غلط؛ لأنه جاء في الحديث: «**رب العزة**» و«**يضع الله قدمه**»»[٣].

وقال ابن تيمية: «قد غلط في هذا الحديث المعطلة الذين أوّلوا «قدمه» بنوع من الخلق كما قالوا: الذين تقدم في علمه أنهم أهل النار حتى قالوا في قوله: «**رجله**» كما يقال: رِجل من جرادٍ وغلطهم من وجوه:

فإن النبي ﷺ قال: «**حتى يضع**» ولم يقل حتى يلقى كما قال في قوله: «**لايزال يلقي فيها**».

---

(١) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٠٢).

(٢) سورة يونس، آية: ٢.

(٣) إبطال التأويلات لأبي يعلى(١/ ١٩٧، ٢٠٠) بتصرف يسير.

الثاني: أن قوله «قدمه» لا يفهم منه هذا لا حقيقة ولا مجازًا كما تدل عليه الإضافة.

الثالث: أن أولئك المؤخرين إن كانوا من أصاغر المعذبين فلاوجه لانزوائها وانكفائها بهم، فإن ذلك إنما يكون بأمر عظيم وإن كانوا من أكابر المجرمين فهم في الدرك الأسفل، وفي أول المعذبين لا في أواخرهم.

الرابع: إن قوله: «**فينزوي بعضها إلى بعض**» دليل على أنها تنضم على من فيها فتضيق بهم من غير أن يلقى فيها شيء.

الخامس: أن قوله: «**لا يزال يلقي فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع فيها قدمه**» جعل الوضع الغاية التي إليها ينتهي الإلقاء ويكون عندها الانزواء فيقتضي ذلك أن تكون الغاية أعظم مما قبلها.

وليس في قول المعطلة معنى للفظ «قدمه» إلاَّ وقد اشترك فيه الأول والآخر والأول أحق به من الآخر»[(١)].

وبهذه النقول السلفية الصحيحة الصافية، المبنية على النصوص الشرعية، يتبين بطلان ما ذهب إليه المتأولون، وصحة ما ذهب إليه السلف الصالحون، من إثبات هذه الصفة على الوجه اللائق به سبحانه، إيمانًا واعتقادًا وتسليمًا، والسلامة في اتباع منهج السلف السالمين من التعطيل والتمثيل.

صفة السّاق:

صفة من صفات الله تعالى الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾[(٢)]، وقال ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «. . . **فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن**»[(٣)].

وإن كان في الآية خلاف من ناحية دلالتها على هذه الصفة فالحديث

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية ص(٨٢٩).

(٢) سورة القلم، آية: ٤٢.

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» ح(٧٤٣٩) (١٣/ ٤٣١) ومسلم في كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية ح(١٨٣) (٣/ ٣٠).

نص صريح في إثباتها ولذا فمذهب أهل السنة والجماعة إثبات هذه الصفة لله تعالى على الوجه الذي يليق به سبحانه.

وقد ذكر شيخ الإسلام هذا فقال عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: الصحابة قد تنازعوا في تفسير هذه الآية، هل المراد به الكشف عن الشدة، أو المراد أنه يكشف الرب عن ساقه؟ ولم تتنازع الصحابة والتابعون فيما ذكر من آيات الصفات إلاَّ في هذه الآية، بخلاف قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[2]... ونحو ذلك فإنه لم يتنازع فيها الصحابة والتابعون، وذلك أنه ليس في ظاهر القرآن أن ذلك صفة لله تعالى؛ لأنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ولم يقل: عن ساق الله ولا قال: يكشف الرب عن ساقه وإنما ذكر ساقًا نكرة غير معرفة، ولا مضافة، وهذا اللفظ بمجرده لا يدل على أنها ساق الله والذين جعلوا ذلك من صفات الله تعالى أثبتوه بالحديث الصحيح المفسر للقرآن وهو حديث أبي سعيد الخدري المخرج في «الصحيحين» الذي قال فيه: «**فيكشف الرب عن ساقه**»، وقد يقال: إن ظاهر القرآن يدل على ذلك من جهة أنه أخبر أنه يكشف عن ساق، ويدعون إلى السجود والسجود لا يصلح إلاَّ لله فعلم أنه هو الكاشف عن ساقه، وأيضًا فحمل ذلك على الشدة لا يصح؛ لأن المستعمل في الشدة أن يقال: كشف الله الشدة أي: أزالها، كما قال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾[3] وقال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾[4] وقال: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾[5] وإذا كان المعروف من ذلك في اللغة أن يقال: كشف الشدة، أي: أزالها، فلفظ الآية: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ وهذا يراد به الإظهار والإبانة، كما قال: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمُ﴾ وأيضًا فهناك تحدث الشدة لا يزيلها فلا يكشف الشدة

(١) سورة ص ، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٧
(٣) سورة الزخرف، آية: ٥٠
(٤) سورة الأعراف، آية: ١٣٥.
(٥) سورة المؤمنون، آية: ٧٥.

يوم القيامة لكن هذا الظاهر ليس ظاهرًا من مجرد لفظة «ساق» بل بالتركيب والسياق وتدبر المعنى المقصود[١].

والقرطبي عفا الله عنه أوّل هذه الصفة وصرفها عن ظاهرها بشرحه للحديث الصحيح الذي أجمع السلف على أن فيه إثباتًا لصفة «الساق» لله تعالى.

قال القرطبي: «فيكشف عن ساق، أي: يوضح الحق، ويتجلى لهم الأمر، فيرونه حقيقة معاينة، وكشف الساق: مثل تستعمله العرب في الأمر إذا حق ووضح، واستقر، تقول العرب: كشفت الحرب عن ساقها، إذا زالت مخارقها وحقت حقائقها وقال:

وكُنتُ إذا جاري دعا لمَضُوفَةٍ[٢] أُشمِّرحتى ينصُفَ الساقَ مِئزَري[٣][٤]

وأما العلماء الذين عدوا الآية من آيات الصفات فبين ابن القيم وجهتهم بقوله: «والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين والإصبع لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن، وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته، وهو حديث الشفاعة الطويل وفيه: «**فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجَّدًا**» ومن حمل الآية على ذلك قال: قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ مطابق لقوله ﷺ: «**فيكشف عن ساقه فيخرون له سجدًا**» وتنكيره للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يكشف عن ساق عظيمة جلّت عظمتها، وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثيل، أو شبيه قالوا: وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه، فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾[٥] وقال: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا

---

(١) نقض أساس التقديس لابن تيمية ورقة نقلاً عن صفات الله الواردة في الكتاب والسنة لعلوي السقاف ص(١٣٧) ووجدت كلامًا له قريبًا من هذا في دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية للدكتور محمد السيد الجليند (٣/ ٤٨٢) ولابن القيم أيضًا كلامًا مشابهًا لهذا في الصواعق المرسلة (١/ ٢٥٢).

(٢) أي: أمر شديد ضافه ونزل به وشق عليه.

(٣) البيت لأبي جندب الهذلي من شعراء الجاهلية. انظر: ديوان الهذليين (١/ ٣٥٨).

(٤) المفهم (١/ ٤١٧).

(٥) سورة الزخرف، آية: ٥٠.

﴿بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾[١] فالعذاب والشدة هو المكشوف، لا المكشوف عنه، وأيضًا فهناك تحدث الشدة وتشتد ولا تزال إلاَّ بدخول الجنة، وهناك لا يدعون إلى السجود، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة»[٢].

قال الشوكاني: «وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ﷺ كما عرفت، وذلك لا يستلزم تجسيمًا ولا تشبيهًا فليس كمثله شيء»[٣].

صفة الاستواء:

من صفات الله تعالى الفعلية، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[٥]، وقال ﷺ: «**لما فرغ الله من خلقه استوى على عرشه**»[٦]، وقد أجمع الصحابة والتابعون وأئمة المسلمين ومن تبعهم ولم يخالف فيه إلاَّ من هو متهم على الإسلام[٧]، أو مغرور بالتقليد لمن يحسن به الظن[٨]. على أنَّ الاستواء من الصفات المعلومة بالسمع لا بالعقل، أما العلو فهو معلوم بالسمع والعقل[٩].

وقد بيَّن السلف أن الاستواء صفة ثابتة لله تعالى، وأنه استواء حقيقي يليق بجلاله وعظمته.

وقد روى الدارمي أن رجلاً جاء إلى الإمام مالك بن أنس فقال: يا أبا

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٧٥.
(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).
(٣) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٧٨).
(٤) سورة طه، آية: ٥.
(٥) سورة يونس، آية: ٣.
(٦) الحديث ذكره الذهبي في «العلو» وقال: رواته ثقات العلو ص(٦٣) وقال ابن القيم: اسناده صحيح على شرط البخاري اجتماع الجيوش ص(٥٤).
(٧) قال شيخ الإسلام: القول «بأن الله تعالى ليس فوق العرش» أول من ابتدعه في الإسلام الجعد بن درهم والجهم بن صفوان وشيعتهما وهم عند الأمة من شرار أهل الأهواء. نقض أساس التقديس (١/ ١٢٧).
(٨) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٤٠١).
(٩) انظر: الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٢٢٧).

عبدالله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟ قال الراوي: فما رأينا مالكًا وَجَدَ من شيء كوجده من مقالته، وعلاه الرحضاء[١] وأطرق، وجعلنا ننتظر ما يأمر به فيه، قال: ثم سري عن مالك فقال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني لأخاف أن تكون ضالاً ثم أمر به فأُخرج[٢].

قال الإمام ابن خزيمة: «فنحن نؤمن بخبر الله جل وعلا أن خالقنا مستوٍ على عرشه، لا نبدل كلام الله، ولا نقول غير الذي قيل لنا كما قالت المعطلة والجهمية: أنه استولى على عرشه، لا استوى، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم»[٣].

وقال أبوالحسن الأشعري: نقول إن الله عز وجل يستوي على عرشه، استواءً يليق به»[٤].

وقال ابن تيمية: «فإن القول بأن الله فوق العرش هو مما اتفقت عليه الأنبياء كلهم، وذكر في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، وقد اتفق على ذلك سلف الأمة وأئمتها من جميع الطوائف»[٥].

وكما أنكر القرطبي العلو فكذلك أنكر الاستواء حيث قال: «إضافته إلى الله ـ أي العرش ـ على جهة الملك أو التشريف، لا لأن الله استقر عليه، أو استظل به، كما قد توهمه بعض الجهال في الاستقرار وذلك على الله محال، إذ يستحيل عليه الجسمية ولواحقها»[٦].

وقال في موضع آخر: «ومما يعلم استحالته: كون العرش حاملاً لله تعالى، وأن الله تعالى مستقرٌّ عليه، كاستقرار الأجسام، إذ لو كان محمولاً لكان محتاجًا فقيرًا لما يحمله، وذلك ينافي وصف الإلهية، إذ أخص أوصافه الاستغناء المطلق، ولو كان ذلك للزم كونه جسمًا مقدرًا، ويلزم

---

(١) الرحضاء يعني العرق وهو علامة على شدة وقع السؤال عليه وجزعه منه.
(٢) الرد على الجهمية للدارمي ص(٦٦).
(٣) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٣٣).
(٤) الإبانة للأشعري ص(٩٧).
(٥) نقض التأسيس (٢/ ٩).
(٦) المفهم (١/ ٤٣٦).

كونه حادثًا على ما سبق، فإن قيل ما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[١] قيل: له محامل واضحة وتأويلات صحيحة غير أن الشرع لم يعين لنا محملاً من تلك المحامل، فيتوقف في التعيين ويسلك مسلك السلف الصالح في التسليم»[٢].

وقال أيضًا: «ولقد أحسن من قال: لو كان الباري تعالى في شيء لكان محصورًا ولو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان من شيء لكان محدثًا»[٣].

وكلام القرطبي واضح في نفي استواء الله تعالى على العرش بزعم أن هذا من صفات الأجسام والمحدثات، وأنه لو كان مستويًا على العرش، لكان محتاجًا إليه، وهذا لا شك من اللوازم الباطلة إذ أهل السنة والجماعة أثبتوا لله تعالى الاستواء اللائق به تعالى ونزَّهوه سبحانه أن يحتاج لشيء أو يفتقر إلى مخلوق.

قال الطحاوي: «والعرش والكرسي حق، وهو مستغنٍ عن العرش، وما دونه، محيط بكل شيء، وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة به خلقه».

قال ابن أبي العز الحنفي في شرحه لهذا الكلام: «إنما قال الشيخ - رحمه الله - هذا الكلام لأنه لما ذكر العرش والكرسي ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش، وما دون العرش ليبين أن خلقه للعرش، واستواءه عليه، ليس لحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوق السافل، لا يلزم أن يكون السافل حاويًا للعالي محيطًا به حاملاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقرًا إليه، فانظر إلى السماء كيف هي فوق الأرض، وليست مفتقرة إليها؟ فالرب تعالى أعظم شأنًا وأجل من أن يلزم علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله بقدرته للسافل، وفقر السافل، وغناه هو سبحانه عن السافل، وإحاطته عز وجل به، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته العرش، وغناه عن العرش، وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش،

---

(١) سورة طه، آية: ٥.

(٢) المفهم (٦/ ٦٧٠).

(٣) المفهم(٦/ ٤٥١).

وعدم إحاطة العرش به، وحصره للعرش، وعدم حصر العرش له، وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق، ونفاة العلو أهل التعطيل لو فصلوا بهذا التفصيل لهدوا إلى سواء السبيل، وعلموا مطابقة العقل للتنزيل»[١].

وقال ابن تيمية: «من كان يعتقد أن الله يفتقر إلى شيء يحمله - إلى العرش أو غيره - فهو مبتدع ضال، وكذلك إن جعل صفات الله مثل صفات المخلوقين، فيقول: استواء الله كاستواء المخلوق، أو نزوله كنزول المخلوق، ونحو ذلك، فهذا مبتدع ضال، فإن الكتاب والسنة مع العقل دلَّت على أن الله لا تماثله المخلوقات في شيء من الأشياء، ودلَّت على أن الله غني عن كل شيء، ودلَّت على أن الله مباين للمخلوقات عالٍ عليها. وإن كان يعتقد أن الخالق تعالى بائن عن المخلوقات، وأنه فوق سمواته على عرشه، بائن من مخلوقاته، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وأن الله غني عن العرش، وعن كل ما سواه، لا يفتقر إلى شيء من المخلوقات، بل هو مع استوائه على عرشه يحمل العرش، وحملة العرش بقدرته، ولا يمثل استواء الله باستواء المخلوقين، بل يثبت لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وينفي عنه مماثلة المخلوقات ويعلم أن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهذا مصيب في اعتقاده موافق لسلف الأمة، وأئمتها، فإن مذهبهم أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فيعلمون أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش»[٢].

فضلال هؤلاء في هذا الجانب بسبب قياسهم الخالق بالمخلوق فهم شبهوا أولاً وعطَّلوا ثانيًا، ولو قدروا الله حق قدره لما ظنوا هذه الظنون.

فأهل السنة يثبتون استواء الله تعالى على العرش، ولكنهم لا يسألون

---

(١) شرح الطحاوية (٢/ ٣٧٢).

(٢) الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٢٦٢) وانظر(٥/ ٢٧، ٢٩، ٢٨٤، ٢٨٦).

عن الكيفية كما سبق إنكار الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ على من سأل عن كيفية الاستواء.

قال الذهبي بعد نقله لإجابة مالك لمن سأل عن كيفية الاستواء: «وهو قول أهل السنة قاطبة: أن كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجهلها، وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه وأنه كما يليق به، ولا نتعمق ولا نتحذلق ولا نخوض في لوازم ذلك نفيًا ولا إثباتًا بل نسكت ونقف كما وقف السلف.

ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه.

ونعلم يقينًا مع ذلك أن الله جل جلاله لا مثل له في صفاته ولا في استوائه، ولا في نزوله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا»(١).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: «وينبغي للمؤولين أن يتأملوا آية من سورة الفرقان، وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾(٢) ويتأملوا معها قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾(٣) فإن قوله في الفرقان: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ بعد قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يدل دلالة واضحة أن الله الذي وصف نفسه بالاستواء خبير بما يصف به نفسه لا يخفى عليه الصفة اللائقة من غيرها ويفهم منه أن الذي ينفي عنه صفة الاستواء ليس بخبير نعم والله ليس بخبير(٤).

فالصواب في هذه المسألة ما عليه أهل السنة والجماعة من إثبات استواء الله تعالى على الوجه اللائق به سبحانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط من أن الله مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله ويختص به»(٥).

---

(١) العلو للذهبي ص (١٣٩).
(٢) سورة الفرقان، آية: ٥٩.
(٣) سورة فاطر،آية: ١٤.
(٤) الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً للشنقيطي ص(١١٤).
(٥) الفتوى الحموية الكبرى ص(٢٧٥).

صفة النزول :

النزول صفة فعلية جاءت عن الرسول ﷺ في أحاديث صحيحة، حيث قال ﷺ: «**ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له**»(١).

وقد آمن بها أهل السنة كماجاءت من غير تكييف لها، ولا تحريف، أو تأويل لمعناها.

قال الإمام الدارمي بعد أن ذكر ما يثبت النزول من أحاديث الرسول ﷺ: «فهذه الأحاديث قد جاءت كلها وأكثر منها في نزول الرب ـ تبارك وتعالى ـ في هذه المواطن، وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا لا ينكرها منهم أحد، ولا يمتنع من روايتها»(٢).

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد: «باب ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي ﷺ في نزول الرب جل وعلا إلى السماء الدنيا كل ليلة: نشهد شهادة مقرٍّ بلسانه، مصدقٍ بقلبه مستيقنٍ بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب من غير أن نصف الكيفية؛ لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل، والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه عليه السلام بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم.

فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول، غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية إذ النبي ﷺ لم يصف لنا كيفية النزول»(٣).

وقال أبوعثمان الصابوني: «ويثبت أهل الحديث نزول الرب سبحانه

---

(١) رواه البخاري في كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ح(١١٤٥) (٣/ ٣٥) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ح(٧٥٨)(٦/ ٢٨٢).

(٢) الرد على الجهمية، للدارمي ص(٩٣).

(٣) كتاب التوحيد لابن خزيمة(١/ ٢٨٩).

وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف، بل يثبتون ما أثبته رسول الله ﷺ، وينتهون فيه إليه، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره، ويكلون علمه[١] إلى الله»[٢].

وقال ابن عبدالبر: «والذي عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون: ينزل كما قال رسول الله ﷺ ويصدقون بهذا الحديث ولا يكيفون»[٣].

هذا هو اعتقاد أهل السنة من السلف والخلف، لكن القرطبي والمازري خالفا في هذه المسألة كما خالفا في المسائل الأخرى، خصوصًا ما يتعلق بصفات الله تعالى الفعلية، فصرفوا هذه الصفة عن ظاهرها بتأويلات لا تليق حسب قواعدهم الفاسدة التي قعدوها لنفي صفات الله تعالى الفعلية كما سبق ذكره.

قال القرطبي عند شرحه للحديث السابق: «قوله: «ينزل ربنا» كذا صحت الرواية هنا، وهي ظاهرة في النزول المعنوي، وإليها يرد ينزل على أحد التأويلات، ومعنى ذلك: أن مقتضى عظمة الله تعالى وجلاله واستغنائه ألا يعبأ بحقير ذليل فقير[٤]، لكن ينزل بمقتضى كرمه ولطفه؛ لأن يقول: «من يقرضُ غير عدوم ولا ظلوم»[٥] ويكون قوله «إلى السماء الدنيا» عبارة عن الحاجة القريبة إلينا، والدنيا بمعنى: القربى، والله أعلم. وقد قيَّده بعض الناس «يُنزلُ» بضم الياء من: أنزل فيكون معدى إلى مفعول محذوف أي: يُنزل اللهُ ملكًا فيقول: كذا، وأما رواية «ينزل» ثلاثيًا من نزل فهي صحيحة أيضًا، وهي من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه،

---

(١) أي علم كيفيته قال الشيخ الغنيمان: «يكلون علمه إلى الله» يعني: علم الكيفية لايبحث فيها لأن الكيفية تتوقف على المشاهدة والله تعالى لايرى في الدنيا«كذا قول إسحاق بن راهوية«إنما ينزل بلاكيف» يعني بلا كيف يعلمه العباد وإلاّ ففي حقيقة الأمر له كيف يعلمه الله تعالى. شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري(٢/ ٢٥٢).

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني ص(١٩١).

(٣) التمهيد(٧/ ١٤٣).

(٤) هذا وصف لجميع بني آدم.

(٥) هو جزء من حديث النزول الذي سبق تخريجه وهذه الزيادة عند مسلم.

كما قال: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[١] وقد دلَّ على صحة هذا التأويل ما رواه النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول، ثم يأمر مناديًا يقول: هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ هل من سائل يعطى؟**»[٢] وهذا صحيح، وهو نصٌّ وبه يرتفع الإشكال»[٣]

وقال المازري: «معناه ينزل ملك ربنا وهو تقدير حذف المضاف كما يقال فعل السلطان كذا، وإن كان الفعل وقع من أتباعه ويضاف الفعل إليه لما كان عن أمره ويحتمل أن يكون عبر بالنزول عن تقريب الباري تعالى للداعين حينئذ واستجابته لهم، وخاطبهم ﷺ بما جرت به عادتهم ليفهموا عنه، وكأن المتقرب منا إذا كان في بساط واحد مع من يريد الدنو منه عبر عن ذلك بأن يقال: جاء وأتى، وإذا كان في علو قيل: نزل وتجلى، وقد ورد في الكتاب والسنة: جاء وأتى ونزل وتجلى»[٤].

يتبين من كلامهما في هذه المسألة مخالفة مذهب السلف وحيث أن الرواية صحيحة لا مجال للطعن فيها، فقد ذهب القرطبي إلى البحث عن رواية أخرى توافق مذهبه في التأويل، أو تساعده على ذلك ليحمل الروايات الصحيحة عليها، ولا شك أن هذا تكلف مخالف للأصول، وقد جعل القرطبي تلك الرواية التي جاء فيها: «إن الله يأمر مناديًا ينادي» هي الأصل وحمل الروايات الأخرى الصحيحة عليها مع أن في ثبوتها نظرًا، وظاهرها مخالف للروايات المستفيضة عن النبي ﷺ أن المنادي هو رب العالمين مع أنه يجوز أن الله تعالى مع قوله ذلك يأمر من ينادي ولكن الملك إذا نادى عن الله تعالى لا يتكلم بصيغة المخاطب بل يقول: إن الله أمر بكذا، أو قال

---

(١) سورة يوسف، آية: ٨٢.

(٢) آخرجه النسائي في السنن الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (٦/ ١٢٤) من رواية الأعمش عن أبي إسحاق السبيعي وأبو إسحاق ثقة لكنه اختلط في آخر عمره، انظر تهذيب التهذيب(٣/ ٢٨٤) ولا يدرى أكانت رواية الأعمش عنه قبل إختلاطه أم بعده.

(٣) المفهم(٢/ ٣٨٦).

(٤) المعلم (١/ ٣٠٣).

كذا، ولا إشكال في هذه الرواية مع الروايات الأخرى كما زعم القرطبي، إنما الإشكال جاء من تأويل النصوص وصرفها عما يراد بها[(١)].

وأما ضبط «يُنزل» بضم أوله، فهذا من تحريف المبتدعة للفظ الحديث ليتفق مع مذهبهم في نفي نزول الله تعالى، ولم يرد ذلك في شيء من روايات الحديث الصحيحة.

وأما القول بأن هذا النزول نزول معنوي، فهو صرف للفظ عن ظاهره من غير دليل، ولا مبرر، بل الأدلة بضده فهي صريحة في نزول الله تعالى كما يليق به سبحانه.

ومن العجب تأويل قوله: «إلى السماء الدنيا» مع وضوحها بأن هذا عبارة عن الحاجة القريبة، ولم يأت بدليل على ما ذهب إليه سوى أن الدنيا بمعنى: القربى، وهذا معلوم إذ السماء الدنيا سميت بذلك لأنها أقرب السموات السبع إلينا، فليس في هذا دليل على ما ذهب إليه.

وأما قولهم: أن «ينزلُ الله» من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وقول المازري أن هذا ملك ربنا واستدلاله على ذلك بقولهم فعل السلطان كذا وقد فعل أتباعه[(٢)].

والحاصل أن هذا تأول بنزول ملك وهو المنادي أو قولهم كذلك: إن هذا استعارة بمعنى التلطف بالداعين والاستجابة لهم، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا التأويل فقال: «نزول الملائكة إلى الأرض في كل وقت وهذا خص النزول بجوف الليل وجعل منتهاه سماء الدنيا والملائكة لا يختص نزولهم لا بهذا الزمان ولا بهذا المكان، وإن أريد صفات وأعراض مثل ما يحصل في قلوب العابدين وقت السحر من الرقة والتضرع وحلاوة العبادة

---

(١) قال الشيخ الغنيمان عن قول القرطبي هذا: زعم القرطبي أنَّ هذا يزيل الإشكال ونحن نقول لهؤلاء: إن الإشكال لازم لمذهبكم، ولن ينفك عنه، ولن تجدوا ما يؤيده وإن أجهدتم أنفسكم، فهذه الرواية لاتخالف اللفظ الصريح الواضح الذي ضيق خناقكم. انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (٢/ ٢٥٩).

(٢) قال أبو الفراء الحنبلي: لايصح حمله على الملائكة كما إذا قيل: نزل الملك ببلد كذا لايعقل منه نزول أصحابه، إبطال التأويلات (١/ ٢٦٤).

ونحو ذلك، فهذا حاصل في الأرض ليس منتهاه السماء الدنيا.

وأيضًا في الحديث الصحيح أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يقول: «**لا أسأل عن عبادي غيري**»[(١)] ومعلوم أن هذا كلام الله الذي لا يقوله غيره، وكذلك قال: «ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر»[(٢)] ومعلوم أنه لا يجيب الدعاء ويغفر الذنوب ويعطي كل سائل سؤاله إلاَّ الله[(٣)].

وهذا يبطل هذه التأويلات المذكورة ويثبت مذهب السلف في ذلك الذي هو الإيمان بالنزول تصديقًا للنصوص وترك الكيفية التي لا يعلمها الله سبحانه وتعالى.

قال الإمام أبويعلى عن هذا الحديث: «اعلم أن هذا حديث صحيح يجب الأخذ بظاهره من غير تأويل ولا يجب أن يستوحش من إطلاق مثل ذلك»[(٤)].

وقال الشيخ عبدالله الغنيمان: «قد اتفق سلف الأمة وأئمتها في كل زمان على الإيمان بهذا الحديث وتلقيه بالقبول كما أراد رسول الله ﷺ فإنه قاله علانية وبلغه الأمة تبليغًا عامًّا لم يخص به واحدًا دون الآخرين، وكان الصحابة وأتباعهم يذكرونه ويروونه ويبلغونه تبليغًا عامًّا ولهذا ثبت في عامة كتب الإسلام، فمن أنكره أو زعم أنه لا يجوز ذكره عند عامة الناس، أو تأوله على غير ظاهره فهو ضال سالك غير سبيل المؤمنين في ذلك، ومن زعم أنه يدل على ما يجب أن ينزه الله عنه من النقص المنافي لكماله، فقد أُتي من فهمه الخاطىء وسوء ظنه بالله العظيم، فإن وصف الله تعالى بالنزول كوصفه بغيره من الصفات... ومن قال: إن الذين حملوه على ظاهره

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤/ ١٦) وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء في أي ساعات الليل أفضل وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه(١/ ٢٢٩).

(٢) سبق تخريجه ص(٤٥٢).

(٣) الفتاوى (٥/ ٤١٥، ٤١٦). بتصرف.

(٤) إبطال التأويلات (١/ ٢٥٩).

وحقيقته هم المشبهة، يقال له: بل الذين حملوه على ظاهره وحقيقته هم الصحابة عمومًا وأتباعهم إلى يوم الدين، ولا تستطيع أن تأتي بكلمة واحدة عن الرسول أو عن أصحابه تؤيد قول أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم أهل السنة»[١].

صفتا الإتيان والمجيء:

وهما صفتان فعليتان ثابتتان لله تعالى بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[٤]. ومن السنة قوله ﷺ في حديث الرؤية: «**فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة**»[٥].

قال الشيخ محمد خليل هراس بعد ذكر الآيات السابقة الدالة على هاتين الصفتين: «في هذه الآيات إثبات صفتين من صفات الفعل، وهما صفتا الإتيان والمجيء والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بذلك على حقيقته، والابتعاد عن التأويل الذي هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل»[٦].

قال القرطبي: «الإتيان والمجيء المضاف إلى الله تعالى هو عبارة عن تَجَلِّيه لهم، فكأنه كان بعيدًا فقرب، أو غائبًا فحضر، وكل ذلك خطابات مستعارة جارية على المتعارف من توسعات العرب، فإنهم يسمون الشيء باسم الشيء إذا جاوره أو قاربه، أو كان منه بسبب»[٧].

وقال عند شرحه للحديث السابق: «إتيان الله تعالى هنا: هو عبارة عن

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (٢/ ٢٤٩، ٢٥١).
(٢) سورة البقرة، آية: ٢١٠.
(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.
(٤) سورة الفجر، آية: ٢٢.
(٥) سبق تخريجه ص(٤٠٦).
(٦) شرح الواسطية ص(١١٢).
(٧) المفهم(١/ ٤١٨).

إقباله عليهم[1] وتكليمه إياهم»[2].

وقال المازري في شرحه للحديث السابق: «الإتيان هٰهنا عبارة عن رؤيتهم الله تعالى، وقد جرت العادة في المحدثين أن من كان غائبًا عن غيره فلا يمكنه التوصل إلى رؤيته إلاَّ بإتيان أو مجيء، فعبر بالإتيان هٰهنا والمجيء عن الرؤية على سبيل المجاز»[3].

أما أهل السنة والجماعة فآمنوا بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ في هاتين الصفتين من غير صرف لهما عن ظاهرهما ومن غير تشبيه لله سبحانه بخلقه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أما كون إتيانه ومجيئه ونزوله ليس مثل إتيان المخلوق ومجيئه ونزوله فهذا أمر ضروري متفق عليه بين علماء السنة، ومن له عقل فإن الصفات والأفعال تتبعان الذات المتصفة الفاعلة، فإذا كانت ذاته مباينة لسائر الذوات ليست مثلها لزم ضرورة أن تكون صفاته مباينة لسائر الصفات ليست مثلها ونسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفة كل موصوف إلى ذاته، ولا ريب أنه العلي الأعلى العظيم فهو أعلى من كل شيء وأعظم من كل شيء فلا يكون نزوله وإتيانه بحيث تكون المخلوقات تحيط به أو تكون أعظم منه وأكبر هذا ممتنع»[4].

وجعل القرطبي والمازري إتيان الله تعالى عبارة عن التجلي أو الرؤية أو الإقبال والتكليم وأن هذا من التوسع والمجاز.

فهذا من التأويل المذموم الذي ليس عليه دليل ولا برهان، وقد قال الشيخ الغنيمان في رد هذه التأويلات وأشباهها: هذه التأويلات مخالفة لكتاب الله تعالى ولأحاديث رسول الله ﷺ مخالفة صريحة بحيث يجوز أن نقول إنها تكذيب لكلام الله وكلام رسوله ورد له وفتح لباب الزندقة والكفر؛ لأن النصوص في ذلك جلية واضحة، فإذا صح تأويلها بما ذكر

---

(١) أراد بالإقبال هنا ضد الإعراض لا من الإقبال الذي هو الإتيان.

(٢) المفهم (١/ ٤٤٦).

(٣) المعلم (١/ ٢٢٦).

(٤) الفتاوى(١٦/ ٤٢٢).

أمكن كل مبطل أن يؤول ما شاء من التأويل قال الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ﴾(٢) فبين تعالى أن إتيانه غير إتيان الملائكة وغير إتيان الآيات، وقال جل وعلا: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾(٣) وغير ذلك من الآيات وأما الأحاديث فكثيرة جدًا»(٤).

وقال أيضًا: «القول بأن الإتيان عبارة عن رؤيتهم إياه من التحريف الجلي فالناس كلهم يفرقون بين الإتيان والرؤية، فإن الإتيان المذكور في الحديث فعل لله تعالى يفعله إذا شاء وأما الرؤية فهي تقع من الخلق، فهذا التأويل بطلانه ظاهر، وليعلم أن هذا الحديث وغيره جاء موافقًا للكتاب في إثبات صفتي الإتيان والمجيء لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته من غير أن يكون في ذلك مشابهًا لخلقه سبحانه وتعالى عن أن يكون له شبيه أو مثيل»(٥).

صفة القرب والدنو:

لقد جاء وصف الله سبحانه وتعالى بالقرب في كتابه العزيز، إذ قال جل وعلا عن نفسه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾(٧) وجاء وصفه سبحانه بالدنو على لسان رسوله ﷺ في عدة أحاديث منها قوله ﷺ: **«ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم**

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٠.
(٢) سورة الأنعام، آية: ١٥٨.
(٣) سورة الفجر، آية: ٢٢.
(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٥١٦).
(٥) المرجع السابق بتصرف.
(٦) سورة البقرة، آية: ١٨٦.
(٧) سورة هود، آية: ٦١.

الملائكة»[١].

ومذهب أهل السنة والجماعة اعتقاد قرب الله تعالى من عباده حقيقة، كما يليق بجلاله وعظمته، وهو مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، وهو يتقرب إليهم حقيقة، ويدنو إليهم حقيقة،ولكنهم لا يفسرون كل قرب ورد لفظه في القرآن أو السنة بالقرب الحقيقي.

قال ابن تيمية: «وأما دنوه وتقربه من بعض عباده، فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ومجيئه يوم القيامة، ونزوله واستواءه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف، وأئمة الإسلام المشهورين، وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر»[٢].

وقال في موضع آخر: «ولا يلزم من جواز القرب عليه أن يكون كل موضع ذكر فيه قربه يُراد به قربه بنفسه، بل يبقى هذا من الأمور الجائزة، وينظر في النص الوارد، فإن دل على هذا حمل عليه، وإن دل على هذا حمل عليه»[٣].

قال القرطبي في شرحه للحديث السابق: «وإنه ليدنو» هذا الضمير عائد إلى الله تعالى، والدنو: دنو إفضال وإكرام، لا دنو انتقال ومكان، إذ يتعالى عنه ويتقدس»[٤].

وعند شرحه لقوله ﷺ: «**يُدنى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه**»[٥] قال: «هذا إدناء تقريب وإكرام، لا إدناء مسافة ومكان، ويحتمل أن يكون من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كما

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة ح(١٣٤٨)(٩/ ١٢٥).

(٢) الفتاوى (٥/ ٤٦٦).

(٣) الفتاوى (٦/ ١٤).

(٤) المفهم (٣/ ٤٦٠).

(٥) رواه البخاري في كتاب المظالم باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ ح(٢٤٤١)(٥/ ١١٦) ومسلم في كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل ح(٢٧٦٨) (١٧/ ٩٣).

قال: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[١] أي: أهلها»[٢].

وقال المازري في شرحه لهذا الحديث: «الدنو هـٰهُنا دنو كرامة لا دنو مسافة؛ لأن الباري سبحانه في غير مكان[٣]، فلا يصح منه دنو المسافة ولا بُعدها»[٤]. وقال في شرحه للحديث الأول: «معناه: يدنو دنو كرامة وتقريب لا دنو مسافة ومماسة»[٥].

وهذا تأويلٌ مخالف لمذهب السلف الذين يثبتون هذا على حقيقته كما يليق به سبحانه وتعالى، فقربه ودنوه سبحانه لا ينافي علوه وفوقيته، فهو سبحانه العلي في دنوه القريب في علوه»[٦].

فهذه التأويلات التي ذكرها القرطبي والمازري لا حاجة لها مع مذهب السلف الذي يثبت ولا يشبه ولا يكيف.

صفة المعية:

يعتقد أهل السنة والجماعة أن الله معنا على الحقيقة وأنه فوق سمواته مستوٍ على عرشه وهذه المعية ثابتة بالكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٧] وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾[٨] وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[٩].

وجاء في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني**»[١٠]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وقد دخل فيما

---

(١) سورة يوسف، آية: ٨٢.
(٢) المفهم (٧/ ١٥٩).
(٣) هذا على مذهبه في نفي علو الله تعالى وسيأتي الرد عليه.
(٤) المعلم(٣/ ١٩١).
(٥) المعلم (٢/ ٧٥).
(٦) انظر: الفتاوى لابن تيمية(٣/ ١٤٣)(٥/ ٤٤٦).
(٧) سورة الحديد، آية: ٤.
(٨) سورة المجادلة، آية: ٧.
(٩) سورة طه، آية: ٤٦.
(١٠) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ح(٧٤٠٥)=

ذكرناه من الإيمان بالله والإيمان بما أخبر الله به في كتابه وتواتر عن رسوله وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه عليٌّ على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون ـ ثم بعد ذكر بعض الآيات ـ قال: وكل هذاالكلام الذي ذكره الله من أنه فوق العرش وأنه معنا حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة»[١].

قال القرطبي في معية الله: «قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ أي: مطلع عليكم ومحيط بكم، وقد ينجز مع ذلك الحفظ والنصر كما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ أي: أحفظكما ممن يريد كيدكما»[٢].

وفي هذا النقل عن القرطبي نرى أنه وافق أهل السنة في هذه المسألة[٣]، ذلك أن أهل السنة يقولون: المعية معيتان: معية عامة: تقتضي العلم والإحاطة. ومعية خاصة: تقتضي النصر والتأييد. فالأولى: كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾[٤].

والثانية: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾[٥]، فالله تعالى مع الخلق كلهم بالعلم والقدرة، والسلطان ويخص بعضهم وهم: أنبياؤه وأولياؤه بالإعانة والنصر والتأييد[٦].

قال ابن تيمية وهو يبين مذهب السلف: «فإنهم أثبتوا وآمنوا بجميع ما جاء به الكتاب والسنة كله من غير تحريف للكلم وأثبتوا أن الله تعالى فوق

= ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى ح(٢٦٧٥)(١٧/٥)..

(١) الواسطية لابن تيمية انظرها مع شرحها للهراس ص (١٩٣، ١٩٤).

(٢) المفهم (٧/٦).

(٣) وهو بهذه الموافقة لم يخرج عن مذهب الأشاعرة في الصفات إذ الأشاعرة يوافقون أهل السنة في هذه الصفة.

(٤) سورة الحديد، آية: ٤.

(٥) سورة النحل، آية: ١٢٨.

(٦) انظر الفتاوى لابن تيمية (٥/٢٢٧، ٤٩٧)، وعلو الله على خلقه للدكتور موسى الدويش ص(٢٥٢ـ ٢٧٧).

سمواته وأنه على عرشه بائن من خلقه، وهم منه بائنون، وهو أيضًا مع العباد عمومًا بعلمه ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد والكفاية»[١].

صفتا الرضا والغضب:

والرضا والغضب من صفات الله تعالى الفعلية الثابتة له بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿۞لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[٣] ولذا فأهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالى رضا وغضبًا يليقان به سبحانه، لا كرضا أو غضب المخلوقين.

والقرطبي والمازري صرفا هاتين الصفتين عن ظاهرهما إلى إرادة الثواب أو إرادة الانتقام والعقاب.

قال القرطبي: «غضب الله تعالى ورضاه محمول إما على إرادة عقاب المغضوب عليه وإبعاده وإرادة إكرام المرضي عنه أو على ثواب تلك الإرادة وهو الإكرام أو الانتقام»[٤].

وقال أيضًا: «تقدم القول في غضب الله ورضاه، وأن ذينك يرجعان إلى إرادته وإلى متعلقها من إيصال المنافع والألطاف إلى المرحوم أو إيصال المضار والانتقام للمغضوب عليه فيرجع غضبه إذًا ورحمته إلى الأفعال[٥].

وقال: «رضا الله من صفات الأفعال، ويصح أن يعبر بالرضا في حق الله تعالى عن إرادة الإكرام والإحسان فيكون من صفات الذات»[٦].

وقال المازري: «غضب الله عز وجل ورضاه يرجعان إلى إرادته لإثابة المطيع ومنفعة العبد أو عقاب العاصي»[٧].

---

(١) الفتاوى (٥/ ٢٣١).
(٢) سورة الفتح، آية: ١٨.
(٣) سورة الممتحنة، آية: ١٣.
(٤) المفهم(١/ ٣٥٠).
(٥) المفهم (٧/ ٨٢).
(٦) المفهم (٣/ ٧٤١).
(٧) المعلم (٣/ ١٨٩).

وقولهما في هاتين الصفتين من التأويلات الباطلة البعيدة عن المعاني التي أراد منا الشرع أن نفهمها ونعتقدها من النصوص الشرعية.

وتفسير الرضا بالإكرام والغضب بالعقوبة هو تفسير للصفة ببعض آثارها المخلوقة، وهو غير الصفة وتفسير الرضا بإرادة الثواب والغضب بإرادة العقاب أو الانتقام إلغاء لهذه الصفة ومعناها وجعل معاني صفات عدة في معنى صفة واحدة.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على من ينفي هذه الصفات وغيرها: «القول في بعض الصفات كالقول في بعض فإن كان المخاطب ممن يقر بأن الله حي بحياة عليم بعلم، قدير بقدرة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مريد بإرادة، ويجعل ذلك كله حقيقة وينازع في محبته ورضاه وغضبه، وكراهيته، فيجعل ذلك مجازًا ويفسره إما بالإرادة، وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات.

قيل له: لا فرق بين ما نفيته وبين ما أثبته بل القول في أحدهما كالقول في الآخر. فإن قلت: إن إرادته مثل إرادة المخلوقين. فكذلك محبته ورضاه وغضبه وهذا هو التمثيل. وإن قلت له إرادة تليق به، كما إن للمخلوق إرادة تليق به. قيل لك: وكذلك له محبة تليق به وللمخلوق محبة تليق به، وله رضا وغضب يليق به، وللمخلوق رضا وغضب يليق به. وإن قال: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام قيل له: والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة، أو دفع مضرة، فإن قلت: هذه إرادة المخلوق. قيل لك: وهذا غضب المخلوق»[1].

وقال ابن أبي العز الحنفي[2] في صفتي الرضا والغضب: «ولا يقال إن الرضا إرادة الإحسان، والغضب إرادة الانتقام، فإن هذا نفي للصفة، وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه، وإن كان لا يريده

---

(١) التدمرية لابن تيمية ص(٣١).

(٢) هو علي بن علي بن محمد الأذرعي الدمشقي الحنفي المعروف بابن أبي العز تولى قضاء الحنفية بدمشق وكان إمامًا داعية إلى أتباع المنهج السلفي ناله على ذلك أذى فصبر واحتسب توفي سنة(٧٩٢هـ). الدرر الكامنة (٣/ ٨٧). معجم المؤلفين (٢/ ٤٨٠)

ولا يشاؤه، وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ويغضب على فاعله، وإن كان قد شاءه وأراده، فقد يحب عندهم ويرضى ما لا يريده ويكره ويسخط ويغضب لما أراده.

ويقال لمن تأول الغضب والرضا بإرادة الانتقام أو بإرادة الإحسان: لم تأولت ذلك؟ فلابد أن يقول: إن الغضب غليان دم القلب والرضى الميل والشهوة، وذلك لا يليق بالله تعالى. فيقال له: غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب لا أنه الغضب»[(١)].

وقال أيضًا: «ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بها»[(٢)].

صفة الفرح:

الفرح صفة فعلية اختيارية ثابتة لله تعالى، يقول الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلاَّ وحيٌ يوحى: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامُه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده لموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده**»[(٣)].

قال الشيخ محمد خليل هراس في شرحه لهذا الحديث: «في هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل والكلام فيه كالكلام في غيره من الصفات أنه صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته، فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح عندما يُحدثُ عبدُهُ التوبة والإنابة إليه، وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب

---

(١) شرح الطحاوية(٢/ ٦٨٥، ٦٨٦).

(٢) المرجع السابق.

(٣) رواه البخاري في كتاب الدعوات باب التوبة ح(٦٣٠٨) (١١/ ١٠٥) ومسلم في كتاب التوبة باب في الحض على التوبة والفرح بها ح(٢٧٤٤)(١٧/ ٦٧).

وقبوله توبته»[١].

قال القرطبي في هذه الصفة عند شرحه للحديث: «هذا مثل قصد به بيان سرعة قبول الله تعالى لتوبة عبده التائب، فإنه يقبل عليه بمغفرته ورحمته، ويعامله معاملة من يفرح به، ووجه هذا المثل: أن العاصي حصل بسبب معصيته (وقوعه)[٢] في قبضة الشيطان وأسره، وقد أشرف على الهلاك، فإذا لطف الله تعالى به وأرشده للتوبة خرج من شؤم تلك المعصية، وتخلص من أسر الشيطان، ومن المهلكة التي أشرف عليها، فأقبل الله تعالى عليه برحمته ومغفرته، وبادر إلى ذلك مبادرة هذا الذي قد انتهى به الفرح واستفزَّه السرور إلى أن نطق بالمحال ولم يشعر به لشدة سروره وفرحه، وإلاَّ فالفرح الذي هو من صفاتنا محال على الله تعالى؛ لأنه اهتزاز وطرب يجده الإنسان من نفسه عند ظفره بغرض يستكمل به الإنسان نقصه، ويسد به خلته، أو يدفع عن نفسه ضررًا أو نقصًا، وكل ذلك محال على الله تعالى، فإنه الكامل بذاته الغني بوجوده الذي لا يلحقه نقص، ولا قصور ، لكن هذا الفرح عندنا له ثمرة وفائدة، وهو الإقبال على الشيء المفروح به، وإحلاله المحل الأعلى، وهذا هو الذي يصح في حقه تعالى فعبر عن ثمرة الفرح على طريقة العرب في تسميتها الشيء باسم ما جاوره، أو كان منه بسبب»[٣].

وهذا الذي ذكر أنه محال على الله هو تشبيه صفات الله تعالى بصفات المخلوقين، ولا يلزم من إثبات الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة لله تعالى مشابهة لخلقه، كما قال ذلك علماء السنة، فهو سبحانه ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾[٤].

قال الشيخ محمد خليل هراس: «وإذا كان الفرح في المخلوق على أنواع، فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب، وقد يكون فرح أشرٍ وبطرٍ، فالله

---

(١) شرح العقيدة الواسطية ص(١٦٦).
(٢) لا توجد في الأصل وأثبتها هنا ليستقيم المعنى.
(٣) المفهم (٧/ ٧١).
(٤) سورة الشورى، آية: ١١.

عز وجل منزه عن ذلك كله، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه، لا في ذاته ولا في أسبابه، ولا في غاياته، فسببه كمال رحمته وإحسانه التي يحب من عباده أن يتعرضوا لها، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين»[١].

وكذلك المازري صرف هذا النص عن ظاهره فلم يثبت هذه الصفة حيث قال في شرحه للحديث: «الفرح يتصرف إلى معانٍ منها: أن يراد به السرور، ولكن السرور يقارنه الرضا بالمسرور به، فالمراد هٰهنا أن الله سبحانه يرضى[٢] توبة العبد أشد مما يرضى الواجد لناقته بالفلاة، فعبَّر عن الرضا بالفرح تأكيدًا لمعنى الرضا في نفس السامع، ومبالغة في معناه»[٣].

«وتفسير الفرح بلازمه، وهو الرضى، وتفسير الرضى بإرادة الثواب فكل ذلك نفي وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيه كما هي في المخلوق تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم»[٤].

«فنحن نؤمن بأن الله تعالى له فرح كما أثبت ذلك أعلم الخلق به ﷺ، وأنصح الخلق للخلق، وأفصح الخلق فيما نطق به ﷺ ونقول المراد بالفرح: الفرح حقيقة مثلما أن المراد بالله عز وجل نفسه حقيقة، ولكننا لا نمثل صفاتنا بصفات الله أبدًا»[٥].

صفة الضحك:

الضحك من صفات الله تعالى الفعلية الاختيارية التي وردت في السنة الصحيحة، لذا أثبتها أهل السنة والجماعة صفة لله تعالى على المعنى الذي يليق به سبحانه من غير تشبيه لها بصفة المخلوقين، ولا تأويل لها على خلاف ظاهرها[٦].

---

(١) شرح العقيدة الواسطية ص(١٦٦).
(٢) وهو يأول الرضا بإرادة الثواب أيضًا.
(٣) المعلم (٣/ ١٨٧).
(٤) شرح الواسطية للهراس ص(١٦٦).
(٥) شرح الواسطية للشيخ محمد بن عثيمين (٢/ ٢٠).
(٦) انظر: شرح الواسطية لابن عثيمين (٢/ ٢٥) بتصرف.

قال ابن خزيمة: «باب: ذكر إثبات ضحك ربنا عز وجل: بلا صفة تصف ضحكه جل ثناؤه لا ولا يشبَّه ضحكه بضحك المخلوقين، وضحككهم كذلك، بل نؤمن بأنه يضحك، كما أعلم النبي ﷺ ونسكت عن صفة ضحكه جل وعلا، إذ الله عز وجل استأثر بصفة ضحكه لم يطلعنا على ذلك، فنحن قائلون بما قال النبي ﷺ مصدقون بذلك بقلوبنا، منصتون عما لم يبين لنا مما استأثر الله بعلمه»[١].

وقال الآجري: «باب الإيمان بأن الله عز وجل يضحك: اعلموا ـ وفَّقنا الله وإياكم للرشاد من القول والعمل ـ أن أهل الحق يصفون الله عز وجل بما وصف به نفسه عز وجل وبما وصفه به رسوله ﷺ وبما وصفه به الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهذا مذهب العلماء ممن اتبع ولم يبتدع ولا يقال فيه: كيف؟ بل التسليم له والإيمان به أن الله عز وجل يضحك كذا روي عن النبي ﷺ وعن صحابته ـ رضي الله عنهم ـ فلا ينكر هذا إلاَّ من لا يحمد حاله عند أهل الحق»[٢].

وقد سار القرطبي والمازري على منهج الأشاعرة في تأويل هذه الصفة، فقال القرطبي: «الضحك من خواص البشر، وهو: تغير أوجبه سرور القلب بحصول كمال لم يكن حاصلاً من قبل فتثور من القلب حرارة ينبسط لها الوجه ويضيق عنها الفم فينفتح وهو التبسم، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قهقه، وذلك كله على الله تعالى محال، لكن لما كان دلالة عندنا على الرضا ومظهرًا له غالبًا عبر عن سببه به، وقد قالوا: تضحك الأرض من بكاء السماء، أي: يظهر خيرها، وفي بعض الحديث: «**فيبعث الله سحابًا يضحك أحسن الضحك**»[٣] يعني السحاب، ومنه قولهم:

---

(١) التوحيد لابن خزيمة (٢/ ٥٦٣).

(٢) الشريعة للآجري (٢/ ١٠٥١).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٤٣٥) قال عنه الهيثمي: رجاله رجال الصحيح انظر: مجمع الزوائد (٢/ ٢١٦)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٢٢٨) ح(١٦٦٥).

... ... ضحك المشيب برأسه فبكى[(١)]

وقال:

... ... في طعنة تضحك عن نجيع[(٢)]

فالضحك في هذه المواضع بمعنى: الظهور فيكون معناه في الحديث: أن الله تعالى رضي عن هذا العبد، وأظهر عليه رحمته وفضله ونعمته، ولهذا حمله قوم هنا: على أنه تجلى للعبد وظهر له»[(٣)].

وعند قوله ﷺ: «**يضحك الله عز وجل إلى رجلين يقتل أحدُهما الآخر كلاهما يدخل الجنة، قال: يقاتل هذا في سبيل الله فيستشهد، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيقاتل في سبيل الله فيستشهد**»[(٤)].

قال القرطبي في شرحه لهذا الحديث: «الضحك المنسوب إلى الله تعالى عبارة عن الرضا بالمضحوك منه وإكرامه والإقبال عليه، ويحتمل أن يكون من باب حذف المضاف أي: يضحك رسول الله وملائكته ممن ذكر عند قبض أرواحهم، والله تعالى أعلم»[(٥)].

وقال المازري: الضحك من الله محمول على إظهار الرضا والقبول؛ إذ الضحك في البشر علامة على ذلك،ويقال: ضحكت الأرض إذا ظهر نباتها، وفي بعض الحديث: «**فيبعث الله سحاباً فيضحك أحسن الضحك**»[(٦)] فجعل انجلاءه عن البرق ضحكًا على الاستعارة، كأنه تعالى لما أظهر له رحمته استعير له اسم الضحك مجازًا»[(٧)].

---

(١) هو لدعبل بن علي الخزاعي المتوفى سنة (٢٤٦هـ) وهذا عجز البيت، وصدره:

* لاتعجبي ياسلْمَ من رجلٍ*

انظر: شعر دعبل بن علي الخزاعي ص(٢٠٤).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) المفهم (١/ ٤٢٤).

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب الكافر يقتل المسلم ثم يُسلِمُ فيسدِّدُ بعدُ ويقتل ح(٢٨٢٦)(٦/ ٤٧) ومسلم في كتاب الإمارة باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة ح(١٨٩٠)(١٣/ ٣٩).

(٥) المفهم (٣/ ٧٢٤).

(٦) سبق تخريجه ص(٤٦٨).

(٧) المعلم (١/ ٢٢٧).

وعند شرحه لقوله ﷺ: «**يقول الله تعالى للرجل: اذهب فادخل الجنة، فتتخيل له أنها ملأى، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة، فيقول: أتسخر بي أو تضحك بي وأنت الملك**»[(١)].

قال: «إن قيل: ما معنى قوله: «تسخر بي أو تضحك بي وأنت الملك؟» وهب أنكم تأولتم الضحك على ماذ كرتم من الرضا وغيره، وهذا غير متأت هٰهنا، فيقال: من عادة المستهزىء من المخلوقين والساخر أن يضحك فوضع هٰهنا «تضحك» موضع: تستهزىء وتسخر لما كانت حالة للساخر»[(٢)].

وعند قوله ﷺ: «**فتجلى لهم يضحك**»[(٣)]، قال: «التجلي في لسان العرب معناه: الظهور فيكون المعنى هٰهنا: يظهر لهم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[(٤)] معناه: ظهر، والضحك ذكرنا أنه يعبر به عن الرضا وإظهار الرحمة، فيكون المعنى على هذا: يظهر لهم وهو راضٍ، ويكون ذلك مجازًا خاطب عليه السلام به العرب على ما اعتادت من لغتها»[(٥)].

وهذا الذي أقرّاه ونصراه من التأويل المذموم، وصرفٍ للفظ عن ظاهره، وتعطيل لصفة الرب عز وجل التي جاءت في الأحاديث الصحيحة، وتلقاها السلف بالإيمان والتسليم.

وأما جعل الضحك عبارة عن الرضا أو الإكرام، أو من باب حذف المضاف، وجعل المضاف إليه مكانه وادعاء أن هذا الذي جاء في الحديث من باب المجاز، فقد رد العلماء هذه التأويلات.

قال أبويعلى: «اعلم أنه غير ممتنع حمل هذه الأحاديث على ظاهرها

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب آخر أهل النار خروجًا ح(١٨٦)(٣/ ٤١).
(٢) المعلم (١/ ٢٢٧).
(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة ح(١٩١)(٣/ ٥٠).
(٤) سورة الأعراف، آية: ١٤٣.
(٥) المعلم (١/ ٢٢٨).

من غير تأويل، وقد نصَّ أحمد على ذلك... وقال المروذي[١]: سألت أباعبدالله عن عبدالله التيمي، فقال: صدوق، وقد كتبت عنه من الرقائق، ولكن حكي عنه أنه ذكر حديث الضحك فقال: مثل الزرع الضحك وهذا كلام الجهمية»[٢].

وقد ردَّ الدارمي على من أوَّل الضحك في كلام يطول ذكره قال فيه: قال المعارض في تفسير الضحك أن ضحك الرب رضاه ورحمته، وصفحه عن الذنوب، ألا ترى أنك تقول: رأيت زرعًا يضحك. وهذا كذب إذ ضحك الزرع ليس بضحك، إنما هو خضرته ونضارته، فهو أبدًا ـ مادام أخضر ـ ضاحك لكل أحد للولي والعدو، ولمن يسقيه ولمن يحصده، لا يقصد بضحكه إلى شيء، والله يقصد بضحكه إلى أوليائه عندما يعجبه فعالهم، ويصرفه عن أعدائه فيما يسخطه من أفعالهم، فضحك الله أصل وحقيقة للضحك، ويضحك كما يشاء، وأما قولك إن ضحكه رضاه ورحمته، فقد صدقت في بعض؛ لأنه لا يضحك إلى أحد إلاَّ عن رضى، فيجتمع منه الضحك والرضى. ثم ذكر عددًا من الأحاديث التي لا مجال لتأويلها، ومنها قول أبي رزين رضي الله عنه للرسول ﷺ: «**أيضحك ربنا؟ قال** ﷺ: «**نعم**»، **قال: لن نعدم من ربٍّ يضحك خيرًا**»[٣] ـ ثم قال: لو كان تفسير الضحك الرضى والرحمة والصفح من الذنوب فقط، كان أبورزين جاهلاً لا يعلم أن ربه يرحم ويرضى ويغفر الذنوب»[٤].

قال الأصبهاني: «وأنكر قوم في الصفات الضحك، وإذا صح الحديث لم يحل لمسلم رده، وخيف على من يرده الكفر، قال بعض العلماء: من أنكر الضحك فقد جهل جهلاً شديدًا، والحق أن الحديث إذا صح عن النبي

---

(١) أحمد بن محمد المروذي أبوبكر الإمام القدوة صاحب الإمام أحمد كان إمامًا في السنة شديد الاتباع توفي سنة (٢٧٥هـ) سيرأعلام النبلاء (١٣/ ١٧٣)، تاريخ بغداد (٤/ ٤٢٣).

(٢) ابطال التأويلات لأبي يعلى (١/ ٢١٧).

(٣) رواه أحمد في المسند (٤/ ١١) وابن ماجه في سننه باب فيما أنكرت الجهمية وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه ص(١٣).

(٤) انظر نقض الدارمي (٢/ ٧٦٩، ٨٠٠) بتصرف.

ﷺ وجب الإيمان به، ولا توصف صفته بكيفية ولكن نسلم إثباتًا له وتصديقًا به»[١].

صفة المحبة :

وهي صفة من صفات الله تعالى الفعلية الاختيارية الثابتة بالكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[٣]. وقال ﷺ في حديث سهل بن سعد: «**لأعطين الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»[٤] وغيرها من النصوص الكثيرة المثبتة لهذه الصفة.

ولذا فأهل السنة والجماعة يثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، فلا تقتضي عندهم نقصًا ولا تشبيهًا كما يثبتون لازم تلك المحبة، وهي إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته، وقد جاء في صحيح مسلم أحاديث كثيرة فيها إثبات صفة المحبة لله عز وجل كما يليق بجلاله، وقد شرح القرطبي والمازري هذه الأحاديث في أكثر من موضع نهجا فيها منهج أهل التأويل. قال القرطبي عند قوله ﷺ: «**من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»[٥]. : «دليل على جواز إضافة المحبة لله تعالى، وإطلاقها عليه، ولا خلاف في أن إطلاق ذلك عليه، صحيح محبًا ومحبوبًا، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[٦] وهو في السنة كثير ولا يختلف النظّار من أهل السنة وغيرهم أنها مؤولة في حق الله تعالى؛ لأن المحبة المتعارفة في حقنا إنما هي ميل لما فيه غرض يستكمل به الإنسان ما نقصه

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٩١) بتصرف.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

(٣) سورة المائدة، آية: ٥٤.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب فضل من أسلم على يديه رجل ح(٣٠٠٩) (٦/ ١٦٨) ومسلم في كتاب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ح(٢٤٠٦) (١٥/ ١٨٦).

(٥) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان ح(١٦)(١/ ٧٧) ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ح(٤٣) (٢/ ٣٧٢).

(٦) سورة المائدة، آية: ٥٤.

وسكون لما تلتذ به النفس، وتكمل بحصوله والله تعالى منزه عن ذلك. وقد اختلف أئمتنا في تأويلها في حق الله تعالى، فمنهم من صرفها إلى إرادته تعالى إنعامًا مخصوصًا على من أخبر أنه يحبه من عباده، وعلى هذا ترجع إلى صفة ذاته، ومنهم من صرفها إلى نفس الإنعام والإكرام، وعلى هذا فتكون من صفات الفعل»[(١)].

وقال في موضع آخر: «محبة الله للعبد: إرادة إكرامه وإثابته، ولأعمال العباد: إثابتهم عليها، ومحبة الله تعالى منزهة عن أن تكون ميلاً للمحبوب، أو شهوة، إذ كل ذلك من صفاتنا، وهي دليل حدوثنا، والله تعالى منزه عن كل ذلك»[(٢)].

وقال المازري: «الباري لا يوصف بالمحبة المعهودة فينا؛ لأنه يتقدس عن أن يميل أويمال إليه، وليس بذي جنس، أو طبع، فيتصف بالشوق الذي تقتضيه الجنسية والطبيعة البشرية، وإنما معنى محبته سبحانه للخلق إرادته لثوابهم وتنعيمهم على رأي بعض أهل العلم، وعلى رأي بعضهم أن المحبة راجعة إلى نفس الإثابة والتنعيم لا للإرادة»[(٣)].

ومن خلال هذه النقول يتبين أن القرطبي والمازري لم يثبتا هذه الصفة لله تعالى، وإنما فسَّرا المحبة ببعض علاماتها وثمارها، وهذا خلاف مذهب السلف، حيث يثبتون صفة المحبة لله تعالى من غير تمثيل ولا تكييف ومن غير تحريف ولا تعطيل، وقد توافرت الأدلة من الكتاب والسنة على أن الله تعالى يحب المؤمنين والمتقين، ويحب التوابين والمتطهرين، ومحبته سبحانه لعبده المؤمن شيء فوق إنعامه وإحسانه وإثابته، فإن هذا أثر المحبة وموجبها، أما هي فأعظم من ذلك، وأشرف، وهي التي يتسابق إليها الموفقون من عباد الله الصالحين»[(٤)].

قال ابن تيمية: «قد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله

---

(١) المفهم (١/ ٢١٢).
(٢) المفهم (٦/ ٦٤٣) وانظر أيضًا (٦/ ٥٤٣).
(٣) المعلم (١/ ٣٠٨).
(٤) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٦٥).

لعباده المؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام»[١].

وقد رد الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ على من يفسر المحبة بإرادة الثواب فقال: «هذا من التأويل الباطل والحق ما عليه أهل السنة أن معنى المحبة غير معنى الإرادة، والله سبحانه موصوف بها على الوجه الذي يليق بجلاله، ومحبته لا تشابه محبة خلقه، كما أن إرادته لا تشابه إرادة خلقه، وهكذا سائر صفاته، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[٢]»[٣].

وتأويلهم هذا بزعم التنزيه لاعتقادهم أن في إثباتها تشبيهًا لله تعالى بخلقه، وهذا باطل؛ لأننا إذا أثبتناها فنحن نقول محبة تليق به سبحانه لا تشبه محبة المخلوقين.

وأما نفي هذه الصفة بزعم أن العقل لا يثبتها فقد رد هذا الشيخ ابن عثيمين فقال: «أما أهل البدع الذين أنكروها فليس عندهم إلاَّ حجة واهية، فهم يقولون: إن العقل لا يدل عليها، ولو سلمنا أن العقل لا يدل على المحبة، فالسمع دل عليها، وهو دليل قائم بنفسه، ونحن يجب أن يكون اعتمادنا في الأمور الغيبية على الأدلة السمعية، لكن لا مانع من أن نستدل بأدلة عقلية لإلزام من أنكر أن تكون المحبة ثابتة بالأدلة العقلية، مثل الأشاعرة الذين يقولون: لا يمكن أن نثبت المحبة بين الله وبين العبد؛ لأن العقل لا يدل عليه، وكل ما لا يدل عليه العقل فإنه يجب أن ننزه الله عنه.

فنحن نقول: نثبت المحبة بالأدلة العقلية كما هي ثابتة عندنا بالأدلة السمعية احتجاجًا على من أنكر ثبوتها بالعقل، فإثابة الطائعين بالجنات، والنصر والتأييد، وغير ذلك، هذا يدل بلا شك على المحبة، ونحن نشاهد

---

(١) الفتاوى (٢/ ٣٥٤).

(٢) سورة الشورى، آية: ١١.

(٣) فتح الباري (١/ ١٢٦) الهامش.

بأعيننا ونسمع بآذاننا عمن سبق وعمن لحق أن الله عز وجل أيَّد من أيَّد من عباده ونصرهم وأثابهم، وهذا من الأدلة على محبته لمن أيَّدهم ونصرهم وأثابهم عز وجل»[١].

صفة الخلة :

الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب وهي أخص من مطلق المحبة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ۝١٢٥﴾[٢]، وقال ﷺ: «**إن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»[٣]. ففي هذين الدليلين إثبات الخلة لله تعالى، وخلَّته سبحانه كمحبته، من صفاته المتعلقة بمشيئته، نثبتها له سبحانه على الوجه الذي يليق به، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة[٤].

والخلة لم تثبت لأحد من البشر إلاَّ لإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهذه الخلة من صفات الله عز وجل؛ لأنها أعلى أنواع المحبة، وهي توقيفية، فلا يجوز أن نثبت لأحد من البشر أنه خليل إلاَّ بدليل[٥].

وقد أوَّل القرطبي هذه الصفة كما أوَّل صفة المحبة فقال: «الخُلَّة: بضم الخاء «الصداقة» و«المودة»، ويقال فيها أيضًا: خلالة ـ بالضم والفتح والكسر ـ والخَلة بفتح الخاء: الفقر والحاجة، والخِلة بكسرها: واحدة خلل السيوف وهي بطائن أغشيتها، والخلل: الفرجة بين الشيئين، والجمع: الخلال، واختلف في الخليل ـ اسم إبراهيم عليه السلام ـ من أي هذه المعاني والألفاظ أخذ؟ فقيل: إنه مأخوذ من «الخلة» بمعنى «الصداقة»، وذلك أنه صدق في محبة الله تعالى، وأخلص فيها، حتى آثر محبته على كل محبوباته، فبذل ماله للضيفان وولده للقربان وجسده للنيران. وقيل: من الخلة التي بمعنى الفقر والحاجة، وذلك أنه افتقر إلى الله في حوائجه،

---

(١) شرح العقيدة الواسطية(١/ ٢٤٠، ٢٤٦) بتصرف.

(٢) سورة النساء، آية: ١٢٥.

(٣) رواه مسلم في كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ح(٥٣٢) (٥/ ١٧).

(٤) انظر: الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٨٠) وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٣٩٦).

(٥) شرح الواسطية لابن عثيمين (١/ ٢٣٩).

ولجأ إليه في فاقته، حتى لم يلتفت إلى غيره بحيث آلت حاله إلى أن قال له جبريل وهو في الهواء حين رمي في المنجنيق: ألك حاجة؟ فقال: أمَّا إليك فلا. وقيل: من الخلل بمعنى الفرجة بين الشيئين، ذلك لما تخلل قلبه من معرفة الله تعالى ومحبته ومراقبته، حتى كأنه مزجت أجزاء قلبه بذلك، وقد أشار إلى هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

قد تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوح منّي ولـذا سُمِّـي الخليـلُ خليـلا[١]

ولقد جمع هذه المعاني وأحسن من قال في الخلة: إنها صفاء المودة التي توجب الاختصاص بتخلل الأسرار والغنى عن الأغيار»[٢].

وهذه المعاني التي ذكرها القرطبي صحيحة فإبراهيم عليه الصلاة والسلام صدق في محبة الله تعالى، وافتقر ولجأ إلى الله تعالى مع ما امتلأ به قلبه من محبة الله ومعرفته ومراقبته، ولكن كل هذا لا يبرر تأويل هذه الصفة التي هي من صفات الله تعالى كالمحبة، فنعلم أن الخليل كان شديد المحبة لله تعالى والله سبحانه كان شديد المحبة له، والقرطبي أوَّل صفة المحبة وصرفها عن ظاهرها والخلة تابعة لها.

قال ابن كثير: إنما سمي خليل الله لشدة محبة ربه عز وجل له لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها»[٣].

صفة الغيرة:

الغيرة صفة من صفات الله تعالى الثابتة بالأحاديث الصحيحة التي جاءت عن رسول الله ﷺ، ومنها قوله: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن غيرة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»[٤].

---

(١) البيت لبشار بن برد المتوفى سنة (١٦٧هـ) وفي ديوانه: وبه سمي الخليل خليلاً، انظر: ديوان بشار بن برد ص(١٨٢).

(٢) المفهم (١/ ٤٢٩).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠).

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قول النبي ﷺ «لا شخص أغير من الله» ح(٧٤١٦)(١٣/ ٤١١) ومسلم في كتاب اللعان ح(١٤٩٩)(١٠/ ٣٨٥).

وهي صفة كمال، إذ من لا غيرة له ناقص مذموم، وهو المسمى بالديوث، لذا وصف الرسول ﷺ ربه بالغيرة؛ لأنها صفة كمال. وغيرة الله من جنس صفاته التي يختص بها، فهي ليست مماثلة لغيرة المخلوق، بل هي صفة تليق بعظمته مثل الغضب والرضا ونحو ذلك من خصائصه التي لا يشاركه الخلق فيها[(١)].

وقد ذكر القرطبي صفة الغيرة في موضعين من المفهم، سلك فيهما طريق التأويل حيث قال: «الغيرة في حقنا راجعة إلى تغير وانزعاج وهيجان يلحقان الغيران عندما ينال شيء من حرمه أو محبوباته فعمل على صيانتهم ومنعهم، وهذا التغير على الله محال، وهو منزه عن كل تغير ونقص، لكن لما كانت ثمرة الغيرة صون الحريم ومنعهم وزجر القاصد إليهم، أُطلق ذلك على الله تعالى، إذ قد زجر وذم ونصب الحدود، وتوعد بالعقاب الشديد من تعرض لشيء من محارمه، وهذا من التجوز ومن باب: تسمية الشيء باسم ما يترتب عليه»[(٢)].

وقال في موضع آخر: «الغيرة في حقنا: هيجان وانزعاج يجده الإنسان من نفسه، يحمل على صيانة الحرم ومنعهم من الفواحش ومقدماتها، والله تعالى منزه عن مثل ذلك الهيجان، فإنه تغير يدل على الحدوث، فإذا أطلقت لفظ الغيرة على الله، فإنما معناه: أنه تعالى منع من الإقدام على الفواحش بما توعد عليها من العقاب والزجر والذم وبما نصب عليها من الحدود، وقد دلَّ على صحة هذا قوله في حديث آخر: «**وغيرة الله ألا يأتي المؤمن ما حرمه الله عليه**»[(٣)]»[(٤)].

وكذلك المازري أوَّل هذه الصفة فقال: «معناه ما أحد أمنع للفواحش

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٣٣٠).

(٢) المفهم (٢/ ٥٥٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب المتشبع لما لم ينل. ح(٥٢٢٣) (٩/ ٢٣٠) ومسلم في كتاب التوبة باب غيرة الله تعالى وتحريم الواحش ح(٢٧٦١) (١٧/ ٨٤) وهو بلفظ «وغيرة الله أن يأتي المؤمن ماحرَّم عله» وليس كا ذكر القرطبي.

(٤) المفهم (٤/ ٣٠٤).

من الله تعالى، والغيور منعه حريمه، وكلما زادت غيرته زاد منعه، فاستعير لمنع الباري سبحانه عن معاصيه اسم الغيرة مجازًا واتساعًا، وخاطبهم النبي ﷺ بما يفهمونه»(١).

وهذه التأويلات التي تكلفوها خشية أن يؤدي وصفه سبحانه بهذه الصفة مشابهة الخلق بزعمهم ولا شك أن صفات الباري سبحانه كذاته، لا تشابه صفات المخلوقين، كما أن ذاته لا تشبه ذوات المخلوقين.

وتأويل الغيرة بلوازمها من المنع والحماية والغضب لا يصح، إذ هي غير الغيرة، بل هي من آثارها، والاستدلال بالحديث الذي فيه تفسير الغيرة ليس معهم بل هو ضدهم، إذ الحديث بيان مقتضى الغيرة، وهو تحريم الفواحش. . وجعلهم سبب رد هذه الصفة دليل الحدوث باطل كما سبق بيانه.

ولا يصح بيانهم لغيرة المخلوق، ثم قياس غيرة الله تعالى عليها، ليكون هذا سببًا لردها تنزيهًا لله كما زعموا، بل نقول: إن هذه الغيرة التي وصف الله سبحانه بها ليست كغيرة المخلوق، بل هي غيرة تليق بالله سبحانه وتعالى، ولذا فليس وصف الله تعالى بها محالاً، كما قال القرطبي. قال الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه الله ـ: «المحال عليه سبحانه وتعالى وصفه بالغيرة المشابهة لغيرة المخلوق، وأما الغيرة اللائقة بجلاله سبحانه وتعالى، فلا يستحيل وصفه بها كما دل عليه هذا الحديث، وما جاء في معناه فهو سبحانه يوصف بالغيرة عند أهل السنة على وجه لا يماثل فيه صفة المخلوقين، ولا يعلم كنهها وكيفيتها إلاَّ هو سبحانه، كالقول في الاستواء والنزول والرضا والغضب، وغير ذلك من صفاته سبحانه»(٢).

صفة الاستحياء:

وهي صفة ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾(٣)، وقال ﷺ: «**وأما الآخر**

---

(١) المعلم (١/ ٣٢١).
(٢) فتح الباري (٢/ ٦١٧) هامش (١).
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٦.

فاستحيا فاستحيا الله منه»[(١)].

قال ابن القيم في هذه الصفة:

وهي الحييُّ فليس يفضح عبده عند التجاهر منه بالعصيان
لكنه يلقي عليه ستره فهو الستير وصاحب الغفران[(٢)]

قال الهراس في شرح النونية: «حياؤه تعالى وصف يليق به، ليس كحياء المخلوقين الذي هو تغير وانكسار يعتري الشخص عندخوف ما يعاب أو يذم، بل هو ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته، وكمال جوده وكرمه، وعظيم عفوه وحلمه، فالعبد يجاهره بالمعصية مع أنه أفقر شيء إليه، وأضعفه لديه، ويستعين بنعمه على معصيته، ولكن الرب سبحانه مع كمال غناه وتمام قدرته عليه يستحيي من هتك ستره وفضيحته، فيستره بما يهيؤه له من أسباب الستر، ثم بعد ذلك يعفو ويغفر»[(٣)].

والقرطبي رحمه الله أوَّل هذه الصفة فقال عند شرحه للحديث السابق: «كأن هذا الثالث كان متمكنًا من المزاحمة، إذ لو شرع فيها لفسح له لأن التفسح في المجلس مأمور به مندوب إليه، لكن منعه من ذلك الحياء، فجلس خلف الصف الأول، ففاتته فضيلة التقدم، لكن جازاه الله على إصغائه واستحيائه بأن لا يعذبه، وبأن يكرمه... واستحياء الله تعالى معناه في حقه: أنه يعامل عبيده بما يعامل به من يستحيي منه من المغفرة والكرامة»[(٤)].

وقال في موضع آخر: «أصل الحياء: انقباض واحتشام يجده الإنسان عندما يُطلع منه على مستقبح وهو في حق الله تعالى عبارة عن الامتناع عن مثل ذلك الفعل المستحيا منه»[(٥)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ح(٦٦)(١/ ١٨٨) ومسلم في كتاب السلام باب من أتى مجلسًا فوجد فرجة فجلس فيها وإلا وراءهم ح(٢١٧٦)(١٣/ ٤٠٨).

(٢) القصيدة النونية مع شرحها للهراس (٢/ ٨٠).

(٣) المرجع السابق.

(٤) المفهم (٥/ ٥٠٨).

(٥) المفهم (١/ ٥٦٨).

وقد ردَّ الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ على من أوَّل هذه الصفة فقال: «الصواب أنه لا حاجة إلى التأويل مطلقًا، فإن الله يوصف بالحياء الذي يليق به، ولا يشابه فيه خلقه، كسائر صفاته، وقد ورد وصفه بذلك في نصوص كثيرة فوجب إثباته له على الوجه الذي يليق به. وهذا قول أهل السنة في جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة الصحيحة وهو طريق النجاة فتنبه واحذر والله أعلم»[١].

صفة الإعراض:

الإعراض من صفات الله تعالى الفعلية الاختيارية التي جاءت على لسان رسوله ﷺ في قصة الثلاثة الذين أقبلوا عليه وهو جالسٌ مع أصحابه، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحد، فقال ﷺ: «... **وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**»[٢]، وقوله ﷺ: «**أيُّكم يحب أن يعرض الله عنه**»[٣]. وأهل السنة يثبتون هذه صفة لله تعالى كما جاءت من غير صرف لها عن ظاهرها، بل نقول كما يليق بالله سبحانه وتعالى.

وقد أوَّل القرطبي هذه الصفة وصرفها عن ظاهرها فقال عند شرحه للحديث الأول: «إن كان هذا المعرض منافقًا فإعراض الله عنه تعذيبه في نار جهنم وتخليده فيها في الدرك الأسفل منها، وأما إن كان مسلمًا ـ وإنما انصرف عن الحلقة لعارض عرض له فآثره ـ فإعراض الله تعالى عنه: منع ثوابه عنه وحرمانه مجالسة النبي ﷺ والاستفادة منه، والخير الذي حصل لصاحبيه»[٤].

وقال في شرحه للحديث الآخر: «أي يعامله معاملة المعرض عنه فلا يثيبه»[٥].

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٦٣) الهامش.

(٢) سبق تخريجه ص(٤٧٩).

(٣) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر ح(٣٠٠٦) (١٨/ ٣٤٣).

(٤) المفهم (٥/ ٥٠٩).

(٥) المفهم (٦/ ٧٤).

وهذا تأويل للصفة سار فيه القرطبي على مذهب الأشاعرة في التأويل. والحق إثبات هذه الصفة لله تعالى كما وردت على لسان رسوله ﷺ على الوجه اللائق به سبحانه الذي لا يشابه صفات المخلوقين.

صفة السخرية والاستهزاء والمكر:

والاستهزاء والسخرية والمكر من صفات الله تعالى الواردة في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾(١) وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾(٢).

وجاء في الحديث عن آخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولاً فيها، وفيه أنه قال يخاطب الله عز وجل: «**أتسخر بي؟ أو تضحك بي وأنت الملك؟**»(٣).

قال ابن جرير الطبري بعد أن ذكر الاختلاف في صفة الاستهزاء: والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا: أن معنى الاستهزاء في كلام العرب: إظهار المستهزِىء للمستهزَإ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهرًا وهو بذلك من قيله وفعله مورثه مساءة باطنًا وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر(٤).

وقال قوام السنة الأصبهاني: «وتولى الذب عنهم ـ أي المؤمنين ـ حين قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ فقال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وقال: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وأجاب عنهم فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فأجل أقدارهم أن يوصفوا بصفة عيب وتولى المجازاة لهم فقال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ لأن هاتين الصفتين إذاكانتا من الله لم تكن سفهًا لأن الله حكيم والحكيم لا يفعل السفه، بل ما يكون منه يكون

(١) سورة البقرة، آية: ١٥.
(٢) سورة التوبة، آية: ٧٩.
(٣) سبق تخريجه (٤٧٠).
(٤) تفسير الطبري (١/١٦٦).

صوابًا وحكمة»[١].

قال القرطبي عن هاتين الصفتين عند شرحه للحديث السابق: «قد أكثر الناس في تأويله ومن أشبه ما قيل فيه: إن هذا الرجل استخفه الفرح وأدهشه فقال ذلك غير ضابط لما يقول كما جاء في الحديث الآخر في الذين وجد راحلته وقد أشرف على الهلاك من العطش والجوع: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**»[٢] قال رسول الله ﷺ: «**أخطأ من شدة الفرح**» وقيل: إنما قال هذا الرجل ذلك على جهة: أنه خاف أن يقابله على ما كان منه في الدنيا من التساهل في الطاعات والتشبه بأحوال الساخرين والمستهزئين فكأنه قال: أتجازيني على ما كان مني؟ وهذا كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ و﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: يجازيهم جزاء استهزائهم وسخريتهم على أحد التأويلات»[٣].

واعتبر القرطبي إطلاق المكر على الله تعالى على وجه المقابلة من باب المجاز فقال عند تأويله لملل الله تعالى الثابت بالحديث: «هو على الله محال، وإنما أطلق هنا على الله تعالى على جهة المقابلة اللفظية مجازًا، كما قال: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[٤]»[٥].

وقال المازري في شرحه للحديث السابق: «قد يقال: كيف يقال للباري سبحانه: أتسخر مني؟ وإنما ساغ ذلك في الشرع على وجه المقابلة كقوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾، و﴿يَسْتَهْزِءُونَ ۝﴾، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ والجواب: أن هذا لم يقع إلاَّ على جهة المقابلة، وهي وإن لم تكن موجودة في اللفظ فهي موجودة في معنى الحديث؛ لأنه ذكر فيه أنه عاهد الله مرارًا أن لا يسأل الله تعالى غير ما سأله ثم غدر، وحل غدره محل الاستهزاء والسخرية، فقدر أن قوله تعالى له: «ادخل الجنة» وتردده إليها

---

(١) الحجة في بيان المحجة(١/ ١٨١).

(٢) سبق تخريجه ص(٤٦٥).

(٣) المفهم (١/ ٤٢٥).

(٤) سورة آل عمران، آية: ٥٤.

(٥) المفهم (٢/ ٤١٤).

وتخيله أنها ملأى ضرب من الإطماع له والسخرية به جزاء على ما تقدم من غدره وعقوبة له فسمي الجزاء على السخرية سخرية فقال: أتسخر مني أي تعاقبني بالإطماع»[١].

قال ابن تيمية في الرد على الذين يقولون بالمجاز: «وكذلك ما ادعو أنه مجاز في القرآن كلفظ المكر والاستهزاء والسخرية المضاف إلى الله تعالى وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز، وليس كذلك، بل مسميات هذه الأسماء إذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلمًا له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلاً... قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾[٢]، ولهذا كان الاستهزاء بهم فعلاً يستحق هذا الاسم... وقال بعضهم: استهزاؤه: استدراجه لهم، وقيل: إيقاع استهزائهم ورد خداعهم ومكرهم عليهم. وقيل: إنه يظهر لهم في الدنيا خلاف ما أبطن في الآخرة. وقيل: هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه، وهذا كله حق وهو استهزاء بهم»[٣].

وقال ابن القيم: «إن الله لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع، والاستهزاء مطلقًا، فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقًا بل تمدح في موضع وتذم في موضع، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله مطلقًا فلا يقال: إنه تعالى يمكر ويخادع ويستهزىء ويكيد؛ لأنه تعالى لم يصف نفسه بهذا إلاَّ على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق، فكيف من الخالق سبحانه فإطلاق ذلك عليه سبحانه على حقيقته دون مجاز»[٤].

---

(١) المعلم (١/ ٢٢٨).
(٢) سورة التوبة، آية: ٧٩.
(٣) الفتاوى (٧/ ١١١، ١١٢).
(٤) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/ ٣٠ـ ٣٢) بتصرف.

صفة الرحمة :

الرحمة صفة من صفات الله الثابتة في الكتاب والسنة، فالنصوص الواردة في إثباتها أكثر من أن تحصى، ولذا فلا مجال لعرض هذه الأدلة المثبتة لهذه الصفة، ومن أسماء الله تعالى الحسنى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢﴾ وهما مشتقان من «الرحمة».

وقد أوَّل القرطبي والمازري هذه الصفة وصرفاها عن ظاهرها، فقال القرطبي: «الرحمة في حقنا: هي رقة وحنو يجده الإنسان في نفسه عند مشاهدة مبتلى أو ضعيف، أو صغير، يحمله على الإحسان إليه واللطف به، والرفق والسعي في كشف ما به، وقد جعل الله هذه الرحمة في الحيوان كله - عاقله وغير عاقله - فيها تعطف الحيوانات على نوعها، وأولادها، فتحنو عليها، وتلطف بها في حال ضعفها وصغرها، وحكمة هذه الرحمة تسخير القوي للضعيف، والكبير للصغير، حتى ينحفظ نوعه، وتتم مصلحته، وذلك تدبير اللطيف الخبير، وهذه الرحمة التي جعلها الله في القلوب في هذه الدار، وتحصل عنها هذه المصلحة العظيمة هي رحمة واحدة من مائة رحمة، ادخرها الله ليوم القيامة، فيرحم بها عباده المؤمنين، وقت أهوالها وشدائدها، حتى يخلصهم منها، ويدخلهم في جنته وكرامته، ولا يفهم من هذا أن: الرحمة التي وصف الحق بها نفسه هي: رقة وحنو كما هي في حقنا؛ لأن ذلك تغير يوجب للمتصف به الحدوث والله تعالى منزه ومقدس عن ذلك، وعن نقيضه الذي هو القسوة والغلظ، وإنما ذلك راجع في حقنا إلى ثمرة تلك الرأفة وفائدتها، وهي: اللطف بالمبتلي والضعيف، والإحسان إليه، وكشف ما هو فيه من البلاء، فإذًا هي في حقه سبحانه وتعالى من صفات الفعل لا من صفات الذات، وهذا كما تقدم في غضبه تعالى ورضاه»[(١)].

وقال المازري: «غضب الله عز وجل ورضاه يرجعان إلى إرادته لإثابة المطيع ومنفعة العبد أو عقاب العاصي، فالأول منهما يسمى رحمة، والثاني

---

(١) المفهم (٦/١٠٨).

يسمى غضبًا»[١].

ويتبين من قولهم هذا مخالفة مذهب السلف في إثبات هذه الصفة التي وردت فيها النصوص على الوجه اللائق به سبحانه من غير تشبيه لها بصفة المخلوق، وهي ولا شك من صفات الكمال، ولذا تكون غالبًا من القوي للضعيف، ومن الكبير للصغير، ومن القادر للعاجز، وأما هذا التأويل فهو على مذهب الأشاعرة، ومن سلك سبيلهم لتنزيه الرب بزعمهم عن مشابهة المخلوق لقولهم: إن الرحمة رقة في القلب، وهذه رحمة المخلوق لا رحمة الخالق، فالرحمة صفة الرحيم، وهي في كل موصوف بحسبه، فإذا اتصف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة لم يلزم أن تكون رحمته من جنس رحمة المخلوق. وإن ظهور آثار صفة الرحمة في الوجود، كظهور أثر صفة الربوبية والملك والقدرة، فإن ما لله على خلقه من الإحسان والإنعام شاهد برحمة تامة وسعت كل شيء.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: «الرحمة صفة الله التي اشتق لنفسه منها اسمه «الرحمن»، واسمه «الرحيم»، وهي صفة تظهر آثارها في خلقه الذين يرحمهم. وصيغة التفضيل في قوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٥١﴾[٢] لأن المخلوقين قد يرحم بعضهم بعضًا، ولا شك أن رحمة الله تخالف رحمة خلقه، كمخالفة ذاته وسائر صفاته لذاواتهم وصفاتهم»[٣].

صفة الصبر :

جاء وصف الله تعالى بالصبر في الحديث الصحيح الذي قال فيه ﷺ: **«ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم»**[٤].

---

(١) المعلم (٣/ ١٨٩).

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٥١.

(٣) أضواء البيان (٥/ ٣٦٥).

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ ح(٧٣٧٨)(١٣/ ٣٧٢) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب =

قال القرطبي في شرحه لهذا الحديث: «الصبر في اللغة: حبس النفس على ما تكرهه أو يشق عليها، وذلك على الله تعالى محال، لكنه قد يكون معه الصفح عن الجاني، والحلم عليه، والرفق به، وكل ذلك موجود من الله تعالى، فحسن أن يطلق الله تعالى ذلك على نفسه»[١].

وقال المازري في شرحه لهذا الحديث: «المراد بهذا أن الله سبحانه واسع الحلم عن الكافر الذي يضيف إليه الولد، والصبر: منع النفس من التشفي والانتقام، أو منعها من غير ذلك، فلما كان الامتناع نتيجة الصبر عبر عن ترك الباري سبحانه الانتقام بهذه العبارة وجرى الأمر في ذلك على حسب ما قلناه مرارًا فيما تقدم من مثل هذا»[٢].

والصبر الذي ذكراه هو صبر المخلوق والله سبحانه وتعالى إذا وُصِفَ بصفة فلا تكون هذه الصفة كصفة المخلوق قطعًا بل تكون لائقة بجلال الله تعالى وعظمته.

قال الشيخ الغنيمان في تعليقه على كلام المازري السابق الذي نقله الحافظ ابن حجر عن المازري في فتح الباري: «قلت: قول المازري: فأطلق اسم الصبر على الامتناع في حق الله تعالى. فيه نظر، وذلك أن رسول الله ﷺ «أطلق على ربه الصبر، وأنه ما أحد أصبر منه، وهو ﷺ أعلم الخلق بالله تعالى وأخشاهم له، وأقدرهم على البيان عن الحق، وأنصحهم للخلق، فلا استدارك عليه، فيجب أن يبقى ما أطلقه ﷺ على الله تعالى بدون تأويل، إلاَّ إذا كان يريد بذلك تفسير معنى الصبر، ولكن الأولى أن يبقى كما قال لأنه واضح ليس بحاجة إلى تفسير»[٣].

= لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ح(٢٨٠٤)(١٧/ ١٥١).

(١) المفهم (٧/ ٨٠).

(٢) المعلم (٣/ ١٩٧).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٩٢).

صفة الكنف :

صفة ثابتة لله عز وجل بالحديث الصحيح، قال ﷺ: «**يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه**»[١]. والكنف في اللغة: الستر والحرز والجانب والناحية[٢].

قال القرطبي في شرحه للحديث السابق: «أي: ستره وجناح إكرامه ولطفه»[٣].

وقال المازري: «المراد بقوله: «حتى يضع كنفه عليه» أي: ستره وعفوه»[٤].

قال الإمام البخاري: «قال عبدالله بن المبارك: كنفه: يعني ستره»[٥].

وقال الشيخ الغنيمان: «قوله: «حتى يضع كنفه عليه» جاء الكنف مفسرًا في الحديث بأنه الستر والمعنى: أنه تعالى يستر عبده عن رؤية الخلق له لئلا يفتضح أمامهم فيخزى»[٦].

ونرى بهذا أن القرطبي والمازري في هذه الصفة لم يخرجا عن القول المذكور عن السلف في أن الكنف هو الستر.

صفة العتب :

صفة فعلية اختيارية لله تعالى جاءت في الأحاديث الصحيحة قال ﷺ: «**قام موسى خطيبًا في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه**»[٧]. وفي قصة هجر الرسول ﷺ لنسائه، قال عمر عن ذلك: «**وكان قد قال: ما أنا بداخل عليهن شهرًا من شدة**

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٦٠).

(٢) القاموس المحيط ص(١٠٩٩).

(٣) المفهم (٧/ ١٦٠).

(٤) المعلم (٣/ ١٩١).

(٥) خلق أفعال العباد للبخاري ص(٧٨).

(٦) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٣١٦).

(٧) رواه البخاري في كتاب العلم، باب مايستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله ح(١٢٢)(١/ ٢٦٣) ومسلم في كتاب الفضائل باب من فضائل الخضر عليه السلام ح(٢٣٨٠)(١٥/ ١٤٤).

موجدته عليهن حين عاتبه الله»[1].

قال أبوموسى المديني[2]: «وفي حديث أبيّ في ذكر موسى حين سئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه العتب: أدنى الغضب»[3]. وهذا إثبات لهذه الصفة بمعناها وهو أدنى الغضب.

والمازري ذكر هذه الصفة لكنه أوَّلها على منهجه في ذلك حيث قال: «قوله: «عتب الله عليه» فيشبه أن يراد به أنه لم يرض قوله شرعًا ودينًا وأما العتب بمعنى الموجدة وتغير النفس فلا يجوز على الله سبحانه»[4].

وهذا عتب المخلوق وأما الخالق سبحانه فلا يشبه بخلقه إنما يثبت له من الصفات ما جاءت به النصوص دون تشبيه كما هو مذهب السلف.

صفة الملل:

وقد جاء وصف الله تعالى بهذا في الحديث الصحيح الذي قال فيه ﷺ: **«عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل حتى تملوا»**[5].

قال القرطبي عند شرحه لهذا الحديث: «ظاهره محال على الله تعالى، فإن الملال: ؛ فتور عن تعب وألم عن مشقة وكل ذلك على الله تعالى محال، وإنما أطلق هنا على الله تعالى على جهة المقابلة اللفظية مجازًا، كما قال: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[6] و﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾[7]

---

(١) رواه البخاري في كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح ح(٢٤٦٨)(٥/ ١٣٧).

(٢) محمد بن عمر بن محمد الأصبهاني الموسوي المديني أحد المحدثين الحفاظ له عدة مصنفات منها «نتائج الأفكار» «الإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام» توفي سنة(٥٨١هـ) ، البداية والنهاية (١٢/ ٣٣٩)، سير أعلام النبلاء (٢١/ ١٥٢).

(٣) المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث للمديني (٢/ ٤٠٠).

(٤) المعلم (٣/ ١٣٦).

(٥) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه ح(٤٣)(١/ ١٢٤) . ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أن يرقد ح(٧٨٥)(٦/ ٣٢٠).

(٦) سورة آل عمران، آية: ٥٤.

(٧) سورة البقرة، آية: ١٩٤.

ووجه مجازه: أنه تعالى لما كان يقطع ثواب عمل من ملَّ من العمل وقطعه. عبر عن ذلك بالملل من باب تسمية الشيء باسم سببه»[١].

وقال المازري: «الملالة التي بمعنى السآمة لا تجوز على الله تعالى، وقد اختلف في تأويل هذا الحديث فقيل: إنما ذلك على معنى المقابلة أي لا يدع الجزاء حتى تدعو العمل، وقيل: «حتى» هٰهنا بمعنى الواو فيكون قد نفى عنه جلت قدرته الملل، فيكون التقدير لا يمل وتملون وقيل: حتى بمعنى حين»[٢].

ونحن نقول: الملال الذي هو فتور عن تعب وألم عن مشقة محال على الله تعالى كما قال القرطبي، ولكن هذا لا يقوله أهل السنة فإثباتهم لملل الله تعالى كما جاء به النص لا يستلزم تشبيهه بملل المخلوق، الذي هو صفة نقص تقتضيه طبيعته والله سبحانه منزه عن النقص إنما إذ أطلق ذلك على الله تعالى فهو صفة كمال لا نقص فيها.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم[٣]: «فإن الله لا يمل حتى تملو» من نصوص الصفات وهذا على وجه يليق بالباري لا نقص فيه كنصوص الاستهزاء والخداع فيما يتبادر»[٤].

وقال الشيخ ابن عثيمين وقد سئل عن هذا الحديث: «من العلماء من قال: إن هذا دليل على إثبات الملل لله لكن ملل الله ليس كملل المخلوق،

---

(١) المفهم (٤١٣).

(٢) المعلم (١/ ٣٠٥).

(٣) هوالشيخ محمدبن إبراهيم بن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب فهو من أحفاد المجدد محمد بن عبد الوهاب ولد في الرياض سنة(١٣١١هـ) وقرأ على والده وعلى علماء نجد في زمنه حتى برز وفاق أقرانه وقد فقد بصره قبل البلوغ لكن لم يثنه ذلك عن طلب العلم حتى أصبح من أكبر علماء الأمة في عصره تولى العديد من الأعمال الكبيرة فهو رئيس القضاة والمشرف على تعليم البنات مع رئاسة المعاهد العلمية والجامعة الإسلامية والإشراف على الأئمة والدعاة والمرشدين إلى غيرها من الأعمال الكثيرة من مصنفاته: «رسالة في تحكيم القوانين » وغيرها، توفي رحمه الله سنة (١٣٨٩هـ). علماء نجد خلال ثمانية قرون للبسام (١/ ٢٤٢) اتحاف النبلاء بسير العلماء لراشد الزهراني ص(٧٧).

(٤) الفتاوى والرسائل لابن إبراهيم (١/ ٢٠٩).

إذ أن ملل المخلوق نقص؛ لأنه يدل على سآمه وضجره من هذا الشيء أما ملل الله فهو كمال وليس فيه نقص ويجري هذا كسائر الصفات التي نثبتها لله على وجه الكمال، وإن كانت في حق المخلوق ليست كمالاً، ومن العلماء من يقول: إن قوله: «**لا يمل حتى تملوا**» يراد به بيان أنه مهما عملت من عمل، فإن الله يجازيك عليه، فاعمل ما بدا لك فإن الله لا يمل من ثوابك، حتى تمل من العمل، وعلى هذا فيكون المراد بالملل لازم الملل. ومنهم من قال: إن هذا لا يدل على صفة الملل لله إطلاقًا؛ لأن قول القائل: لا أقوم حتى تقوم، لا يستلزم قيام الثاني، وهذا أيضًا: «لا يمل حتى تملوا» لا يستلزم ثبوت الملل لله عز وجل. وعلى كل حال يجب علينا أن نعتقد أن الله تعالى منزه عن كل صفة نقص من الملل وغيره، وإذا ثبت أن هذا الحديث دل على الملل فالمراد به ملل ليس كملل المخلوق»[١].

صفة النظر:

صفة فعلية ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٢]. وقال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٣].

قال ابن منده في كتابه «التوحيد»: «ذكر ما امتدح الله عز وجل من الرؤية والنظر إلى خلقه ودعا عباده الصالحين إلى مدحه لذلك»[٤].

«فالله سبحانه وتعالى ينظر إلى ما يشاء ويعرض عما يشاء فلا ينظر إليه كما دلت النصوص عليه»[٥].

قال القرطبي في شرحه للحديث السابق: «نظر الله تعالى إلى عباده: رحمته لهم وعطفه عليهم وإحسانه إليهم وهذا النظر هو المنفي في هذا

---

(١) مجموع دروس وفتاوى ابن عثيمين(١/ ١٥٢).

(٢) سورة آل عمران، آية: ٧٧.

(٣) رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله ح(٢٥٦٤) (١٦/ ٣٥٧).

(٤) كتاب التوحيد لابن منده (٣/ ٥٦).

(٥) المرجع السابق (٣/ ٦٠، ٦٤).

الحديث»[١].

قلت: هذا من التأويل المذموم المخالف لمنهج السلف في إثبات هذه الصفة لله تعالى على حقيقتها كما جاءت بذلك النصوص على ما يليق بالله سبحانه وتعالى.

قال شارح الطحاوية: «النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه، فإن عدي بنفسه، فمعناه التوقف والانتظار ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[٢] وإن عدي بـ«في» فمعناه: التفكر والاعتبار، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] وإن عدي بـ«إلى» فمعناه: المعاينة بالإبصار كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾[٤][٥] والأدلة التي استدل بها أهل السنة والجماعة على إثبات صفة «النظر» لله تعالى كلها من المتعدي بـ«إلى».

صفة الأذَن «بمعنى الاستماع»:

وهي صفة ثابتة لله عز وجل كما جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي قال فيه ﷺ: **«ما أَذِنَ اللهُ لشيء ما أَذِنَ لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»**[٦].

الأذَن ـ بالتحريك ـ الاستماع يقال: أذِن إليه، وله يأذن أذنًا. قال القاسم بن سلاَّم: «كأذَنه» يعني: ما استمع الله الشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾[٧] قال: سمعت أو قال: استمعت شك أبوعبيد يقال: أذنتُ

---

(١) المفهم (١/ ٣٠٤) وانظر: المفهم (٦/ ٥٣٨).
(٢) سورة الحديد، آية: ١٣.
(٣) سورة الأعراف، آية: ١٨٥.
(٤) سورة الأنعام، آية: ٩٩.
(٥) شرح الطحاوية (١/ ٢٠٩).
(٦) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب الوصاة بكتاب الله عز وجل ح(٥٠٢٤) (٨/ ٦٨٥) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ح(٢/ ٧٩)(٦/ ٣٢٥).
(٧) سورة الانشقاق، آية: ٢.

للشيء آذن له أذنًا: إذا استمعته»[١].

وقال البغوي: «قوله: «ما أذن الله لشيء كإذنه» يعني: ما استمع الله لشيء كاستماعه والله لا يشغله سمع عن سمع يقال: أذنت للشيء آذن أذنًا بفتح الذال: إذا سمعت له»[٢].

والقرطبي قد أوّل هذه الصفة الثابتة لله تعالى وصرفها عن ظاهرها، فقال في شرحه لهذا الحديث: قوله: «ما أذن الله» أي: ما استمع الله وأصغى وأصله: أن المستمِعَ يميل بأذنه إلى جهة المستمَع تقول العرب: أَذِن بكسر الذال يأذن بفتحها في المستقبل أذنًا بفتح الهمزة والذال في المصدر: إذا أصغى واستمع وهذا المعنى في حق الله تعالى محال، وإنما هو من باب التوسع، على ما جرى به عرف التخاطب، وهو منصرف في حق الله تعالى لإكرام القارىء، وإجزال ثوابه، ووجه هذا التوسع: أن الإصغاء إلى الشيء قبول له، واعتناء به ويترتب على ذلك إكرام المُصغَى إليه فعبر عن الإكرام بالإصغاء إذ هو عنه»[٣].

وقال المازري عن هذه الصفة: أذن في اللغة بمعنى استمع فأما الاستماع الذي هو الإصغاء فلا يجوز على الله سبحانه فهو مجاز هٰهنا فكأنه عبر عن تقريبه للقاري وإجزال ثوابه بالاستماع والقبول وكذلك سماع الباري تعالى للأشياء لا يختلف وإنما المراد هٰهنا أنه يقرب الحسن القراءة أكثر من تقريب غيره، والتفاضل في التقريب، وزيادة الأجور يختلف فتعبيره عن ذلك بما يؤدي إلى التفاضل في الاستماع مجاز»[٤].

وقد نقل الحافظ ابن حجر قول القرطبي السابق في الفتح وارتضاه. قال الشيخ عبدالله الدويش[٥] ـ رحمه الله ـ معلقًا على تأويل القرطبي لهذه

---

(١) غريب الحديث للقاسم بن سلام (١/ ٢٨٢). والقاموس المحيط (١٥١٦).
(٢) شرح السنة للبغوي (٣/ ٢٦٥).
(٣) المفهم (٢/ ٤٢١).
(٤) المعلم (١/ ٣٠٦).
(٥) هوالشيخ عبدالله بن محمد بن أحمد الدويش المحدث الحافظ ولد في مدينة الزلفى سنة(١٣٧٣هـ) ورحل إلى بريدة وتلقى العلم فيها حتى برز في سائر العلوم خصوصًا =

الصفة: هذا تأويل مردود، والصواب إثبات هذه الصفة لله حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته، من غير أن يشبه ذلك باستماع المخلوقين، وهذا قول أهل السنة والجماعة، خلافًا لأهل البدع من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم»[١].

نسبة استطابة الروائح إلى الله تعالى:

وثبتت نسبة ذلك إليه في الحديث الصحيح الذي قال فيه ﷺ: «**والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»[٢].

قال القرطبي في شرح هذا الحديث: «لا يتوهم أن الله تعالى يستطيب الروائح ويستلذها كما يقع لنا من اللذة والاستطابة، إذ ذاك من صفات افتقارنا واستكمال نقصنا وهو الغني بذاته الكامل بجلاله وتقدسه على أنَّا نقول: إن الله تعالى يدرك المدركات ويبصر المبصرات ويسمع المسموعات على الوجه اللائق بجماله وكماله وتقدسه عن شبه المخلوقات، وإنما معنى هذه الأطيبية، عند الله راجعة إلى أن الله تعالى يثيب على خلوف فم الصائم ثوابًا أكثر مما يثيب على استعمال روائح المسك، حيث ندب الشرع إلى استعماله فيها كالجمع والأعياد وغير ذلك ويحتمل أن يكون ذلك في حق الملائكة فيستطيبون ريح الخلوف أكثر مما يستطيبون ريح المسك»[٣].

ولا أبعد من هذا التأويل ولا أشد من هذا التكلف الذي لا تساعده فيه النصوص، وما أجمل كلامَه السابق حينما قال: «يدرك المدركات ويبصر المبصرات ويسمع المسموعات» فليته أكمل فقال: ويستطيب الروائح على

= في علم الحديث وقد أثنى عليه العلامة الألباني في حفظه لكنه. كان يكره الشهرة ويؤثر الخمول له عدة مؤلفات منها: «تنبيه القاريء على تقوية ماضعفه الألباني» و«التوضيح المفيد لشرح مسائل كتاب التوحيد» وغيرهما توفي شابًا سنة(١٤٠٨هـ) أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر، لإبراهيم الحازمي (١/ ١٢٠) العلماء الذين لم يتجاوزوا سن الأشُد لعلي بن محمد العمران ص(٢١٧).

(١) التعليق على فتح الباري للدويش ص(١٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم ح(١٩٠٤)(٤/ ١٤١) ومسلم في كتاب الصيام باب فضل الصيام ح(١١٥١)(٨/ ٢٧٧).

(٣) المفهم (٣/ ٢١٥).

الوجه اللائق بجماله وكماله وتقدسه عن شبه المخلوقات، فهذا مذهب أهل السنة في إثبات صفاته تعالى وتنزيهه عن مشابهة مخلوقاته.

وقال المازري: «قوله: «أطيب عند الله من ريح المسك» مجاز واستعارة؛ لأن استطابة بعض الروائح من صفات الحيوان الذي له طبائع تميل إلى الشيء فتستطيبه وتنفر عن آخر فتستقذره، والله تعالى يتقدس عن ذلك، ولكن جرت العادة فينا بتقريب الروائح الطيبة منا، واستعير ذلك في الصوم لتقريبه من الله سبحانه»[(١)].

قال الشيخ عبدالله الدويش ـ رحمه الله ـ في رده على الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في تأويل هذه الصفة: «كل هذا تأويل لا حاجة إليه، وإخراج للفظ عن حقيقته، والصواب أن نسبة الاستطابة إليه سبحانه كنسبة سائر صفاته وأفعاله إليه، فإنها استطابة لا تماثل استطابة المخلوقين، كما أن رضاه، وغضبه، وفرحه، وكراهته، وحبه، وبغضه، لا تماثل ما للمخلوق من ذلك، كما أن ذاته وسبحانه وتعالى لا تشبه ذوات المخلوقين، وصفاته لا تشبه صفاتهم وأفعاله لا تشبه أفعالهم، قاله العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في الوابل الصيب، والله أعلم»[(٢)].

وصف الله تعالى بأنه شخص:

جاء إطلاق لفظ «شخص» على الله تعالى في الحديث الصحيح الذي قال فيه ﷺ: «**لا شخص أغيَرُ من الله ولا شخص أحب إليه العذر من الله**»[(٣)].

قال ابن أبي عاصم في السنة: «باب: ذكر الكلام والصوت والشخص وغير ذلك»[(٤)].

وقال أبويعلى: «وأما لفظ الشخص فرأيت بعض أصحاب الحديث يذهب إلى جواز إطلاقه ووجه أن قوله: «لا شخص» نفي من إثبات وذلك

---

(١) المعلم (٢/ ٤١).
(٢) التعليق على فتح الباري ص(٥).
(٣) سبق تخريجه ص(٤٧٦).
(٤) السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٢٥).

يقتضي الجنس كقولك: «لا رجل أكرم من زيد» يقتضي أن زيدًا يقع عليه اسم رجل كذلك قوله: «**لا شخص أغير من الله**» يقتضي أنه سبحانه يقع عليه هذا الاسم»[١].

قلت: «قوله ذهب بعض أصحاب الحديث إلى جواز إطلاقه» عبارة فيها إشكال لأنه قد جاء النص بإطلاقه عن المعصوم فوجب العمل به وإبطال ما سواه.

قال الشيخ عبدالله الغنيمان: «ثبت هذا اللفظ عن رسول الله ﷺ بطرق صحيحة لا مطعن فيها، وإذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ وجب العمل به، والقول بموجبه، سواء كان في مسائل الاعتقاد أو في العمليات، وقد صح عنه ﷺ إطلاق هذا الاسم ـ أعني: الشخص ـ على الله تعالى فيجب اتباع في ذلك على من يؤمن بأنه رسول الله، وهو ﷺ أعلم بربه وبما يجب له، وما يمتنع عليه تعالى من غيره من سائر البشر»[٢].

وقد قال القرطبي عند شرحه للحديث السابق: «أصل وضع الشخص لجرم الإنسان وجسمه، يقال: شخص الإنسان وجثمانه وطللُه وآله كلها بمعنى واحد على ما نقل أهل اللغة، وشَخَصَ الشيءُ يشخصُ: إذا ظهر شخصه وهذا المعنى على الله تعالى محال بالعقل والنقل على ما قدمناه في غير موضع، فتعين تأويله هنا، وقد قيل فيه: لا مرتفع لأن الشخص: ما شخص وظهر وارتفع، وفيه بعد، وقيل فيه: لا شيء، وهذا أشبه من الأول، وأوضح منه، أي: لا موجود أولا أحد، وهو أحسنها، وقد جاء في رواية أخرى: «**لا أحد**» منصوصًا وأطلق الشخص مبالغة في تثبيت إيمان من يتعذر على فهمه موجود لا يشبه شيئًا من الموجودات لئلا يقع في النفي والتعطيل[٣].

وقول القرطبي هذا مبني على أن لفظ «الشخص» إذا أطلق على الله

---

(١) ابطال التأويلات لأبي يعلى (١/ ١٦٦).
(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٣٣٣).
(٣) المفهم (٤/ ٣٠٥).

تعالى يستلزم تشبيهه سبحانه بأشخاص المخلوقين، وهذا أصل فاسد، واعتقاد باطل، فإن لفظ الشخص هو ما شخص وارتفع وظهر، والله سبحانه وتعالى من المعلوم أنه أظهر من كل شيء، وأعظم فليس في إطلاق هذا اللفظ على الله تعالى محذور، وقد جاء على لسان الصادق ﷺ فوجب قبوله، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

قال الشيخ الغنيمان: «الشخص: هو ما شخص وبان عن غيره، ومقصد البخاري أن هذين الاسمين يطلقان على الله تعالى وصفًا له؛ لأن الرسول ﷺ أثبتهما لله وهو أعلم الخلق بالله تعالى... قال في اللسان: «الشخص كل جسم له ارتفاع وظهور» والله تعالى أظهر من كل شيء وأعظم وأكبر، وليس في إطلاق الشخص عليه محذور على أصل أهل السنة الذين يتقيدون بما قاله الله ورسوله»(١).

إطلاق لفظ «الذات» على الله تعالى:

يصح إطلاق لفظة «الذات» على الله تعالى كقولنا: ذات الله، أو: الذات الإلهية لكن لا على أن «ذات» صفة له بل ذات الشيء بمعنى نفسه أو حقيقته.

وقد جاء ذلك في الحديث الصحيح الذي قال فيه ﷺ: «**إن إبراهيم لم يكذب إلَّا ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله**»(٢).

وما جاء عند البخاري في قصة مقتل خبيب بن عدي رضي الله عنه حيث قال عند قتله هذه الأبيات:

وَلَسْتُ أُبالي حين أُقْتَلُ مسلمًا   علي أيِّ شقٍّ كان في الله مصرعي
وذلك في ذاتِ الإله وإن يشأ   يُبارك على أوصال شلو مُمَزَّع(٣)

---

(١) شرح كتاب التوحيد (١/ ٣٣٠، ٣٣٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ ح(٣٣٥٨)(٦/ ٤٤٧) ومسلم في كتاب الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ ح(٢٣٧١)(١٥/ ١٣٣).

(٣) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل؟ ومن لم يستأسر ومن ركع ركعتين عند القتل ح(٣٠٤٥)(٦/ ١٩١).

قال الأصبهاني: «فصل في بيان ذكر الذات» ثم قال: «قال قوم من أهل العلم: «ذات الله حقيقته وقال بعضهم: انقطع العلم دونها وقيل: استغرقت العقول والأوهام في معرفة ذاته، وقيل: ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالإبصار في دار الدنيا، وهو موجود بحقائق الإيمان على الإيقان بلا إحاطة إدراك بل هو أعلم بذاته»[١].

وقال ابن تيمية: ويفرق بين دعائه والإخبار عنه فلا يدعى إلاَّ بالأسماء الحسنى، وأما الإخبار عنه فلا يكون باسم سيِّء لكن قد يكون باسم حسن أو باسم ليس بسيء وإن لم يحكم بحسنه مثل اسم: شيء وذات وموجود..»[٢]

وقد بين القرطبي جواز إطلاق هذا اللفظ على الله تعالى، خلافًا لمن منعه وليس معه دليل، حيث قال: «قوله: «ذات الله».. دليل على جواز إطلاق لفظ «الذات» على وجود الله تعالى فلا يلتفت لإنكار من أنكر إطلاقه من المتكلمين»[٣].

وبعض الناس يظن أن إطلاق «الذات» على الله تعالى كإطلاق الصفات أي أنه وصف له فينكر ذلك بناء على هذا الظن ويقول: هذا ما ورد وليس الأمر كذلك، وإنما المراد التفرقة بين الصفة والموصوف، وقد تبين مراد الذين يطلقون هذا اللفظ أنهم يريدون نفس الموصوف وحقيقته فلا إنكار عليهم ي ذلك كما وضحه كلام شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم[٤].

إطلاف النفس على الله تعالى:

وقد جاء إثبات النفس لله تعالى بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾[٦]

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٨٥).
(٢) الفتاوى (٦/ ١٤٢).
(٣) المفهم (٦/ ١٨٥).
(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٢٤٢).
(٥) سورة المائدة، آية: ١١٦.
(٦) سورة الأنعام، آية: ٥٤.

وقال ﷺ: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي**»[١] وغيرها من النصوص، وعقد الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في كتاب التوحيد من صحيحه بابًا في إثبات النفس لله تعالى[٢].

وعند شرح القرطبي لقوله ﷺ: «**يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي**»[٣]، قال: «النفس» اسم مشترك يطلق على نفس الحيوان، وهي المتوفاة بالموت والنوم، ويطلق ويراد به: الدم، والله تعالى منزه عن ذينك المعنيين ويطلق ويراد به ذات الشيء وحقيقته، كما يقال: رأيت زيدًا نفسه عينه، أي: ذاته، وقد يطلق ويراد به الغيب كما قد قيل في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي: ما في غيبك، والأليق بهذا الحديث: أن يكون معناه: أن من ذكر الله تعالى خاليًا منفردًا بحيث لا يطلع أحد من الخليقة على ذكره جازاه الله على ذلك بأن يذكره بما أعد له من كرامته التي أخفاها عن خليقته حتى لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون، وقد قلنا: إن التسليم هو الطريق المستقيم»[٤].

والمازري قد ذكر في هذه المسألة كلامًا قريبًا من كلام القرطبي السابق، ولعل القرطبي قد نقل عنه[٥].

وقد ذكر القرطبي والمازري القول الصحيح في هذه المسألة عرضًا دون اختيار، وهو: أن يراد بالنفس ذاته تعالى، وهذا الذي عليه عامة علماء السنة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «نفسه هي ذاته المقدسة»[٦]. وقال أيضًا: «يراد بنفس الشيء ذاته وعينه، كما يقال: رأيت زيدًا نفسه عينه، وقد

---

(١) سبق تخريجه ص(١٦٢).
(٢) صحيح البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٩٥).
(٣) سبق تخريجه ص (٤٦١).
(٤) المفهم (٧/ ٧).
(٥) المعلم (٣/ ١٨٣).
(٦) الفتاوى (١٤/ ١٩٦).

قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[١]، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[٣]، وفي الحديث الصحيح أنه قال لأم المؤمنين: «**لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن. سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته**»[٤] وفي الحديث الصحيح الإلـٰهي عن النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[٥] فهذه المواضع المراد فيها بلفظ «النفس» عند جمهور العلماء: الله نفسه التي هي ذاته المتصفة بصفاته، ليس المراد بها ذاتًا منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة للذات، وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات[٦]، كمايظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات وكلا القولين خطأ»[٧].

---

(١) سورة المائدة، آية: ١١٦.

(٢) سورة الأنعام،آية: ٥٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٢٨.

(٤) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء و التوبة والإستغفار، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ح(٢٧٢٦)(١٧/ ٤٧).

(٥) سبق تخريجه ص(٤٩٨).

(٦) منهم: ابن خزيمة وعبد الغني المقدسي والبغوي وصديق حسن خان، انظر صفات الله الواردة في الكتاب والسنة لعلوي السقاف ص(٢٥٥).

(٧) الفتاوى (٢/ ٢٩٢).

المبحث الثالث

منهجهما في رؤية الله تعالى

رؤية الله تعالى في الآخرة من أعظم مسائل الاعتقاد وأشرفها، وأجلها، إذ هي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، فهي أعظم نعيم وعد الله به عباده المؤمنين، فلم يعط أهل الجنة شيئًا أحب إليهم من النظر إليه تبارك وتعالى، كما قال ﷺ: **«إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»**(١).

وقد أجمع على الإيمان بها السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم على توالي القرون.

ولذا ذكرها العلماء في أبواب الترغيب ونعيم أهل الجنة، وكذلك في أبواب الاعتقاد.

وهي ليست صفة لله عز وجل؛ لأن الرؤية هنا لا تقوم بالله تعالى، بل المؤمنون هم الذين يرونه تعالى. وإنما ذكرت في مباحث الصفات لأنها محل نزاع بين السلف والخلف(٢)، ولأن نفاة الرؤية هم من نفاة الصفات.

رؤيته في الدنيا :

اتفقت الأمة على منع رؤية الله تعالى في الدنيا، وعدم وقوعها مع جواز وقوعها عقلاً. قال ﷺ في تعريف الإحسان في حديث جبريل ـ عليه السلام ـ: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**(٣).

---

(١) روا مسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ح(١٨١)(٣/ ٢٠).

(٢) انظر الصفات الإلٰهية لمحمد أمان الجامي ص(٣٣٧).

(٣) سبق تخريجه ص(١٠٨).

قال الحافظ ابن حجر: «دلَّ سياق الحديث على أن رؤية الله في الدنيا بالأبصار غير واقعة»[١].

وقد قال ﷺ مصرحًا بذلك: «**اعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**»[٢].

قال القرطبي: «اختلف قديمًا وحديثًا في جواز رؤية الله تعالى فأكثر المبتدعة على إنكار جوازها في الدنيا والآخرة، وأهل السلف والسنة على جوازها فيهما ووقوعها في الآخرة... إذ رؤية الله تعالى جائزة كما دلَّت عليها الأدلة العقلية والنقلية، فأما العقلية: فتعرف في علم الكلام وأماالنقلية فمنها: سؤال موسى رؤية ربه، ووجه التمسك بذلك، علم موسى بجواز ذلك، ولو علم استحالة ذلك لما سأله، ومحال أن يجهل موسى جواز ذلك، إذ يلزم منه أن يكون مع علو منصبه في النبوة وانتهائه إلى أن يصطفيه الله على الناس، وأن يسمعه كلامه بلا واسطة، جاهلاً بما يجب لله تعالى ويستحيل عليه ويجوز، ومجوز هذا كافر. ومنها قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[٣] ووجه التمسك بها امتنانه تعالى على عباده بالنظر إلى وجهه تعالى في الدار الآخرة، وإذا جاز أن يروه فيها جاز أن يروه في الدنيا لتساوي الوقتين بالنظر إلى الأحكام العقلية»[٤].

وقد بيَّن سبب عدم رؤيته تعالى في الدنيا فقال: «الله تعالى لو كشف عن خلقه ما منعهم به من رؤيته في الدنيا لما أطاقوا رؤيته ولهلكوا من عند آخرهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[٥] ويفيد أن تركيب هذا الخلق وضعفهم في هذه الدار لا يحتمل رؤية الله فيها فإذا أنشأهم الله للبقاء وقواهم حملوا ذلك»[٦].

---

(١) فتح الباري (١/ ١٤٧).
(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن باب ذكر ابن صياد ح(٢٩٣٢)(١٨/ ٢٦٨).
(٣) سورة القيامة، آية: ٢٢، ٢٣.
(٤) المفهم (١/ ٤٠١، ٤٠٢).
(٥) سورة الأعراف، آية: ١٤٣.
(٦) المفهم(١/ ٤١١).

وهذا هو الصواب الذي جاءت به الأدلة من الكتاب والسنة، وعند قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾[(١)].

قال ابن القيم: «إن الله سبحانه وتعالى لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالاً لأنكره عليه، ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحي الموتى لم ينكر عليه، ولما سأل عيسى ابن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله.

ثم إنه أجابه بقوله: لن تراني، ولم يقل لا تراني، ولا إني لست بمرئي، ولا لا تجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يرى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى... فإذا كان الجبل لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف»[(٢)].

وقال الشنقيطي: «رؤية الله جل وعلا بالأبصار جائزة عقلاً في الدنيا والآخرة، ومن أعظم الأدلة على جوازها عقلاً في دار الدنيا: قول موسى ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ ﴾[(٣)] لأن موسى لا يخفى عليه الجائز والمستحيل في حق الله تعالى، وأما شرعًا فهي جائزة وواقعة في الآخرة كما دلَّت عليه الآيات، وتواترت به الأحاديث الصحاح، وأما في الدنيا: فممنوعة شرعًا كما تدل علية آية الأعراف هذه، وحديث: «**إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**»[(٤)]»[(٥)].

هل رأى الرسول ﷺ ربه ليلة الإسراء:

مع اتفاق أهل السنة على عدم رؤية الله تعالى في الدنيا فقد اختلفوا

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٣.

(٢) حادي الأرواح لابن القيم (١/ ١٩٧).

(٣) سورة الأعراف، آية: ١٤٣.

(٤) سبق تخريجه ص(٥٠١).

(٥) أضواء البيان (٢/ ٤٠).

في الرسول ﷺ فقط، هل رأى ربه ليلة الإسراء أم لا؟ لمجيء الأحاديث في ذلك. ومذهب العلماء في هذه المسألة كالتالي:

الأول: الإثبات، وهو مروي عن ابن عباس، وأبي ذر وكعب الأحبار رضي الله عنهم، وغيرهم من التابعين والعلماء المتأخرين. واستدلوا بالأحاديث المثبتة لرؤية الرسول ﷺ لربه وهي مطلقة لم تقيد الرؤية بالعين.

الثاني: النفي: أي: نفي رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا بعيني رأسه، وهذا القول مشهور عن عائشة وابن مسعود، وهو المشهور عن أبي هريرة، وأبي ذر ـ رضي الله عنهم ـ وقال به جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين. قالت عائشة ـ رضي الله عنها: «**من زعم أن محمَّدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية**»[(١)]. وعندما سئل ﷺ هل رأى ربه؟ قال: «**نور أنّى أراه**»[(٢)][(٣)].

والمذهب الثالث في هذا هو التوقف وعدم الجزم بصحة أحد القولين، أو ترجيح واحدٍ على الآخر، وهو ما ذهب إليه القرطبي، حيث قال: اختلف في ذلك السلف والخلف، فأنكرته عائشة وأبوهريرة وجماعة من السلف، وهو المشهور عن ابن مسعود، وإليه ذهب جماعة من المتكلمين والمحدثين، وذهبت طائفة أخرى من السلف إلى وقوعه، وأنه رأى ربه بعينه، وإليه ذهب ابن عباس وقال: اختص موسى بالكلام وإبراهيم بالخلة، ومحمد ﷺ بالرؤية، وأبوذر وكعب والحسن وأحمد بن حنبل، وحكي عن ابن مسعود وأبي هريرة في قول لهما آخر، ومثل ذلك حكي عن أبي الحسن الأشعري، وجماعة من أصحابه، وذهبت طائفة من المشايخ إلى الوقف وقالوا: ليس عليه قاطع نفيًا ولا إثباتًا، ولكنه جائز عقلاً، وهذا هو الصحيح»[(٤)].

وقال أيضًا: «هل وقعت رؤية الله تعالى لمحمد ﷺ ليلة الإسراء أو لم

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى ح(١٧٧)(٣/ ١٠).
(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب قوله عليه السلام «نورأنى أراه» ح(١٧٨)(٣/ ١٥).
(٣) انظر رؤية الله وتحقيق الكلام فيها للدكتور أحمد بن ناصر الحمد ص(١٣٨، ١٧٠).
(٤) المفهم (١/ ٤٠١).

تقع؟ ليس في ذلك دليل قاطع، وغاية المستدل على نفي ذلك أو إثباته التمسك بظواهر متعارضة معرَّضة للتأويل، والمسألة ليست من باب العمليات فيكتفى فيها بالظنون، وإنما هي من باب المعتقدات، ولا مدخل للظنون فيها، إذ الظن من باب الشك؛ لأن حقيقته تغليب أحد المجوزين، وذلك يناقض العلم والاعتقاد»[١].

والقول الصحيح الراجح في هذه المسألة هو نفي الرؤية، وأن من أثبتها إنما أراد أنه رآه بقلبه. قال شيخ الإسلام: «إن جماهير الأئمة على أنه لم يره بعينه في الدنيا.. وعلى هذا دلَّت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ والصحابة وأئمة المسلمين»[٢].

قال الشنقيطي: «التحقيق الذي دلَّت عليه نصوص الشرع أنه ﷺ لم يره بعين رأسه، وما جاء عن السلف من أنه رآه: فالمراد به الرؤية بالقلب»[٣]. وبهذا الجمع ينتفي التعارض، وتتم الموافقة بين الأدلة، ويتضح أن رسول الله ﷺ لم ير ربه جل وعلا بعيني رأسه، بل كانت الرؤية قلبية، وقد قال بهذا الجمع عدد غفير من أئمة السلف رحمهم الله.

رؤيته تعالى في الآخرة:

أجمع أهل السنة والجماعة ومن وافقهم من الطوائف الأخرى على رؤية المؤمنين لربهم عز وجل في الآخرة، وأن هذا أعظم الإكرام لهم والامتنان عليهم. والأدلة على هذا كثيرة جدًّا، منها: قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[٤]. قال ابن الجوزي: «روى عطاء عن ابن عباس قال: إلى الله ناظرة، قال الحسن: حق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق، وهذا مذهب عكرمة ورؤية الله عز وجل حق لا شك فيها، والأحاديث فيها صحاح»[٥].

---

(١) المفهم (١/ ٤٠٢).
(٢) الفتاوى (٢/ ٣٣٥).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٩).
(٤) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٥) زاد المسير(٨/ ١٦١).

وقال السعدي في تفسير هذه الآية: «أي: ينظرون إلى ربهم على حسب مراتبهم، فمنهم من ينظر كل يوم بكرة وعشيا، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيء، فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم فازدادوا جمالاً إلى جمالهم»[١].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[٢] حيث جعل الله سبحانه أعظم عقوبة للكفار كونهم محجوبين عن رؤيته. «واحتج بالآية مالك على رؤية المؤمنين له تعالى من جهة دليل الخطاب، وإلاَّ فلو حجب الكل لما أغنى هذا التخصيص، وقال الشافعي: لما حجب سبحانه قومًابالسخط دلَّ على أن قومًا يرونه بالرضا، وقال أنس بن مالك: لما حجب عز وجل أعداءه سبحانه لم يروه تجلى جل شأنه لأوليائه حتى رأوه»[٣].

قال ﷺ: **«إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»**[٤]، وقال ﷺ: **«إنكم سترون ربكم عيانًا»**[٥]. قال ابن القيم: «وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة رواها عنه أبوبكر الصديق، وأبوهريرة، وأبوسعيد الخدري و. . . فهاك سياق أحاديثهم من الصحاح والمسانيد والسنن وتلقها بالقبول والتسليم وانشراح الصدر، لا بالتحريف والتبديل، وضيق العطن ولا تكذب بها فمن كذب بها لم يكن إلى وجه ربه من الناظرين، وكان عنه يوم القيامة من المحجوبين»[٦].

---

(١) تفسير السعدي ص(٩٨٥).
(٢) سورة المطففين، آية: ١٥.
(٣) تفسير الألوسي (٣٠/ ٧٣).
(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ح(٧٤٣٦)(١٣/ ٤٣٠).
(٥) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ح(٧٤٣٥)(١٣/ ٤٣٠).
(٦) حادي الأرواح (١/ ٢٠٥).

قال القرطبي: «أكثر المبتدعة على إنكار جوازاها في الدنيا والآخرة ـ أي الرؤية ـ وأهل السنة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها في الآخرة. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[1] فامتن على عباده المؤمنين بالنظر إلى وجهه تعالى في الدار الآخرة، وقد تواترت الأحاديث عنه ﷺ بوقوع رؤية الله تعالى في الآخرة كرامة للمؤمنين، فمذهب أهل السنة بأجمعهم أن الله تعالى ينظر إليه المؤمنون في الآخرة بأبصارهم، كما نطق بذلك الكتاب وأجمع عليه سلف الأمة، ورواه بضعة عشر من الصحابة عن النبي ﷺ»[2].

وقال المازري في شرحه لحديث إنكار عائشة رضي الله عنها على من قال: إن الرسول ﷺ قد رأى ربه: «وإنكارها في هذا الحديث وفي غيره على من سألها عن الرؤية محمله عند أهل العلم على أنها إنما أنكرت الرؤية في الدنيا، لا أنها ممن تحيل جواز رؤية الباري سبحانه كما قالت المعتزلة»[3].

الرد على منكري الرؤية :

سبق القول في بيان اتفاق أهل السنة والجماعة ومن وافقهم على إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة، والتي قد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على إثباتها.

وقد خالف في هذه المسألة طوائف من المبتدعة من المعتزلة والجهمية ومن تبعهم من الخوارج وبعض الشيعة والمرجئة[4].

قال القرطبي: «فأكثر المبتدعة على إنكار جوازها في الدنيا والآخرة»[5] وقال: «ومنع ذلك ـ أي الرؤية ـ فرق من المبتدعة منهم:

---

(١) سورة القيامة آية: ٢٢، ٢٣.

(٢) انظر المفهم (١/ ٤٠١، ٤٠٢، ٤١٣، ٤١٤.

(٣) المعلم (١/ ٢٢٣).

(٤) انظر الرؤية وتحقيق الكلام فيها للحمد ص(٢٦).

(٥) المفهم (١/ ٤٠١).

المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة»[1].

وقد استدلوا على ما ذهبوا إليه من الباطل بأدلة سمعية لا تسلم لهم منها قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[2]، فقالوا: نفى الله تعالى في الآية أن يدرك بالأبصار.

قال القرطبي في نقض هذا الاستدلال: «الاستدلال بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فيه بعد إذ يفرق بين الإدراك والإبصار، فيكون معنى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾: لا تحيط به مع أنها تبصره، قاله سعيد بن المسيب. وقد بقي الإدراك مع وجود الرؤية في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ﴾[3] أي: لا يدركونكم، وأيضًا: فإن الإبصار عموم، وهو قابل للتخصيص، فيخصص بالكافرين، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾[4] ويكرم المؤمنون أو من شاء منهم بالرؤية، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾[5]. وبالجملة فالآية ليست نصًا، ولا من الظواهر الجلية فلا حجة فيها»[6].

قال ابن القيم حول قوله تعالى: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾[7]: فلم ينف موسى عليه السلام الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ إنا لمرئيون، فإن موسى عليه السلام نفى إدراكهم إياهم بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ وأخبر الله سبحانه أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾[8] فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يرى ولا يدرك، كما يعلم ولا يحاط به، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من بعدهم

---

(١) المفهم (١/ ٤١٤).

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٠٣.

(٣) سورة الشعراء، آية: ٦١، ٦٢.

(٤) سورة المطففين، آية: ١٥.

(٥) سورة القيامة، آية: ٢٢، ٢٣.

(٦) المفهم (١/ ٤٠٤).

(٧) سورة الشعراء، آية: ٦١.

(٨) سورة طه، آية: ٧٧.

من الآية، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: لا تحيط به الأبصار، وقال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار، وقال ابن عطية: ينظرون إلى الله ولاتحيط أبصارهم به من عظمته وبصره يحيط بهم»[١].

قال الحافظ ابن حجر: «أنه لا تدركه الأبصار في الدنيا جمعًا بين دليلي الآيتين، وبأن نفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية لإمكان رؤية الشيء من غير إحاطة بحقيقته»[٢].

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا...﴾[٣]. قال القرطبي: «لا حجة فيها على نفي الرؤية، إذ يقال بموجبها: فإن مقتضاها نفي كلام الله على غير هذه الأحوال الثلاثة، وإنما يصلح أن يستدل بها على نفي تكليم الله تعالى لمحمد ﷺ على ضعف في ذلك لا يخفى على متأمل، بل قد استدل بعض المشايخ بهذه الآية على أن محمدًا رأى ربه وكلَّمه دون واسطة، فقال: هي ثلاثة أقسام: من وراء حجاب كتكليم موسى، وبإرسال الملائكة كحال جميع الأنبياء، ولم يبق من تقسيم المكالمة إلاَّ كونها مع المشاهدة وهذا أيضًا فيه نظر»[٤].

وفي حديث الرسول ﷺ الذي استدل به أهل السنة على وقوع الرؤية وهو قوله عليه السلام: «**هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يارسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يارسول الله، قال: فإنكم ترونه كذلك**»[٥]. قال المازري: «في هذا الحديث رد على المعتزلة في إحالتهم رؤية الباري عز وجل»[٦].

---

(١) حادي الأرواح (١/ ٢٠٢).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٤٣٥).
(٣) سورة الشورى، آية: ٥١.
(٤) المفهم (١/ ٤٠٥).
(٥) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ح(٧٤٣٧)(١٣/ ٤٣٠) ومسلم في كتاب الإيمان باب معرفة الرؤية ح(١٨٢)(٣/ ٢١).
(٦) المعلم (١/ ٢٢٥).

وقد أوَّل النفاة هذه الرؤية، وقالوا: المقصود بها العلم، فرد القرطبي عليهم في ذلك فقال: هذا تشبيه للرؤية ولحالة الرائي لا المرئي ومعناه: إنكم تستوون في رؤية الله تعالى من غير مضارة، ولا مزاحمة، كما تستون في رؤية الشمس والبدر عيانًا، وقد تأولت المعتزلة الرؤية في هذه الأحاديث بالعلم، فقالوا: إن معنى رؤيته تعالى أنه يعلم في الآخرة ضرورة، وهذا خطأ لفظًا ومعنًى. أما اللفظ: فهو أن الرؤية بمعنى العلم تتعدى إلى مفعولين ولا يجوز الاقتصار على أحدهما دون الآخر، وهي قد تعدت هنا إلى مفعول واحد، فهي للإبصار، ولا يصح أن يقال: إن الرؤية بمعنى: المعرفة؛ لأن العرب لم تستعمل رأيت بمعنى: عرفت، لكن بمعنى: علمت أو أبصرت، واستعملت علمت بمعنى: عرفت، لا رأيت بمعنى: عرفت. وأما المعنى فمن وجهين:

أحدهما: أنه عليه الصلاة والسلام شبه رؤية الله تعالى بالشمس، وذلك التشبيه لا يصح إلاَّ بالمعاينة.

وثانيهما: أن الكفار يعلمونه تعالى في الآخرة بالضرورة، فترتفع خصوصية المؤمنين بالكرامة، وبلذة النظر وذلك التأويل منهم تحريف حملهم عليه ارتكاب الأصول الفاسدة»[١].

وهذه الأصول الفاسدة التي حملتهم على نفي الرؤية هي أدلتهم العقلية التي قال عنها القرطبي: «منع فرق من المبتدعة الرؤية بناءً منهم على أن الرؤية يلزمها شروط اعتقدوها عقليةً كاشتراط البنية المخصوصة، والمقابلة واتصال الأشعة وزوال الموانع من القرب المفرط، والبعد المفرط، والحجب الحائلة، في خبط لهم وتحكم، وأهل الحق لا يشترطون شيئًا من ذلك عقلاً، سوى وجود المرئي، وأن الرؤية إدراك يخلقه الله تعالى للرائي، فيرى المرئي، لكن يقترن بالرؤية بحكم جريان العادة أحوال يجوز في العقل شرعًا تبدلها، والله أعلم»[٢].

---

(١) المفهم (١/ ٤١٥).

(٢) المفهم (١/ ٤١٤).

وقال في موضع آخر: «أهل السنة لا يشترطون في الرؤية عقلانية مخصوصة، ولا مقابلة ولا قربًا، ولا شيئًا مما يشترطه المعتزلة وأهل البدع، وأن تلك الأمور إنما هي شروط عادية يجوز حصول الإدراك مع عدمها، ولذلك حكموا بجواز رؤية الله تعالى في الدار الآخرة مع إحالة تلك الأمور كلها، ولما ذهب أهل البدع إلى أن تلك الشروط عقلية، استحال عندهم رؤية الله تعالى فأنكروها وخالفوا قواطع الشريعة التي وردت بإثبات الرؤية، وخالفوا ما أجمع عليه الصحابة والتابعون»[١].

وكلام القرطبي هذا غير مسلم على إطلاقه ولا تصح نسبته لأهل السنة، فاشتراط المقابلة وزوال الموانع أمر معقول إذ رؤية ما لا يعاين ولا يواجه غير متصور في العقل[٢].

لكن نفي الرؤية بسبب ذلك باطل من أصله، وهو مذهب أهل البدع، والقول بأن الله يرى من غير مقابلة ولا مواجهة، هو قول الأشاعرة دون سائر طوائف الأمة، وجمهور العقلاء على أن فساد هذا معلوم بالضرورة[٣].

قال شارح الطحاوية: «هل تعقل رؤية بلا مقابلة؟ ومن قال: يرى لا في جهة فليراجع عقله!! فإما أن يكون مكابرًا لعقله أو في عقله شيء، وإلاَّ فإذا قال: يرى لا أمام الرائي، ولا خلفه، ولا عن يمينه، ولا عن يساره، ولا فوقه، ولا تحته، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة، ولهذا ألزم المعتزلة من نفى العلو بالذات بنفي الرؤية وقالوا: كيف تعقل رؤية بغير جهة؟»[٤].

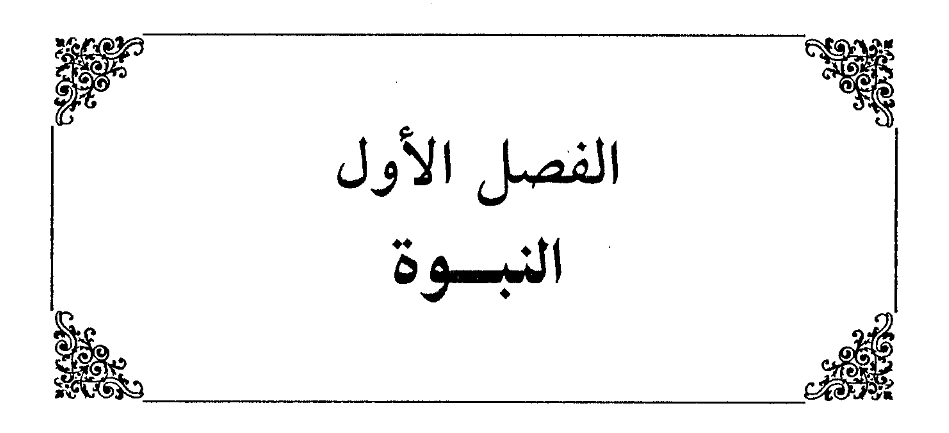
ولهذا صار حذَّاق الأشاعرة إلى إنكار الرؤية «وقالوا: قولنا هو قول المعتزلة في الباطن، فإنهم فسروا الرؤية بزيادة انكشاف ونحو ذلك مما لا تنازع فيه المعتزلة»[٥].

---

(١) المفهم (٢/ ٥٧).
(٢) انظر: الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٨٥).
(٣) المرجع السابق (١٦/ ٨٤).
(٤) شرح الطحاوية (١/ ٢١٩).
(٥) الفتاوى لابن تيمية (١٦/ ٨٥).

الباب الثالث
النبوة والإمامة والصحابة

وفيه ثلاثة فصول:



الفصل الأول
النبـــوة

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: **تعريفه النبوة والرسالة وبيان فضل الأنبياء**

المبحث الثاني: **دلائل النبوة**

المبحث الثالث: **عصمة الأنبياء**

المبحث الرابع: **خصائص نبينا محمد ﷺ**

المبحث الخامس: **الإيمان بالملائكة والجن**

المبحث الأول
تعريف النبوة والرسالة وبيان فضل الأنبياء

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: **النبوة والرسالة والفرق بينهما**

المطلب الثاني: **فضل الأنبياء ومكانتهم**

المطلب الثالث: **المفاضلة بين الأنبياء**

المطلب الرابع: **نبوة الخضر وحياته**

المطلب الخامس: **نبوة النساء**

المطلب الأول : النبوة والرسالة والفرق بينهما :

قال القرطبي في تعريف النبوة لغة: «النبوة مأخوذة من النبأ وهو الخبر، فأصلها إذًا الهمزة ثم سهلت، وقيل: مأخوذة من النبوة، وهي المرتفع عن الأرض»[١].

وقال في معنى النبوة شرعًا: «النبوة معناها: أن يُطلع الله من يشاء من خلقه على ما يشاء من أحكامه ووحيه، إما بالمشافهة، وإما بواسطة ملك أو بإلقاء في القلب»[٢].

وقال في التفريق بين النبي والرسول: «النبي في العرف: هو المنبأ من جهة الله تعالى لأمر يقتضي تكليفًا فإن أمر بتبليغه إلى غيره فهو رسول وإلاَّ فهو نبي غير رسول، وعلى هذا فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً؛ لأن الرسول والنبي قد اشتركا في أمر عام، هو النبأ، وافترقا في أمر خاص وهو الرسالة، فإذا قلت: محمد رسول الله تضمن ذلك أنه نبي رسول»[٣].

وهذا الفرق وإن كان مشتهرًا بين أهل العلم إلاَّ أنه مخالف لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[٤] فهذه الآية دلَّت على أن النبي يعمه الإرسال كالرسول، ومن المستبعد أن يخص الله تعالى عبدًا من عباده بوحي ولا يؤمر بتبليغه لغيره، فيكون هذا كتمانًا للعلم، والأنبياء منزهون عن ذلك.

قال الشيخ الشنقيطي: «وآية الحج تبين أن ما اشتهر على ألسنة أهل العلم من أن النبي هو من أوحي إليه وحي، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبي الذي أوحي إليه وحي، وأمر بتبليغ ما أوحي إليه، غير صحيح؛ لأن قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[٥] يدل على أن كلاًّ منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير، واستظهر بعضهم أن النبي الذي

---

(١) المفهم (١/ ٨٨).
(٢) المفهم (٦/ ١٧).
(٣) المفهم (٧/ ٤٠).
(٤) سورة الحج، الآية: ٥٢.
(٥) سورة الحج، الآية: ٥٢.

هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل، مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول هو ما لم ينزل عليه كتاب، وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة، كما بيَّنه تعالى بقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾(١)»(٢).

والبيضاوي رحمه الله قد اختار هذا القول حيث قال في التفريق بين النبي والرسول: «الرسول من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس إليها، والنبي يعمه ومن بعث لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام، لذلك شبه النبي ﷺ علماء أمته بهم فالنبي أعم من الرسول»(٣).

وهذا قريب مما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «فالنبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبىء بما أنبأ الله به فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله فهو نبي وليس برسول. . . قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾(٤) دليل على أن النبي مرسل ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حق»(٥).

المطلب الثاني : فضل الأنبياء ومكانتهم :

إن مما يعلمه كل مسلم أن الله تعالى اصطفى هؤلاء الأنبياء واختارهم لحمل رسالته وإبلاغ دعوته فهم سفراء الله تعالى إلى خلقه جعلهم الله تعالى خيرة الخلق، وصفوة البشر، شرَّفهم بالنبوة، وأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل، وسداد الرأي، فهم أئمة الدنيا والدين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٢) أضواء البيان (٥/ ٢٩٠).
(٣) تفسير البيضاوي (٤/ ١٣٣).
(٤) سورة الحج، الآية: ٥٢.
(٥) النبوات لابن تيمية ص(١٨٤، ١٨٥).

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[١]. من إكرام الله تعالى لهم أن وهبهم كمال الخَلقِ والخُلق فخصهم بصفات الكمال ونزههم عن صفات النقص والعيب. قال القرطبي: الله تعالى كمَّل أنبياءه خَلْقًا وخُلُقًا ونزههم في أول خلقهم من المعايب والنقائص المنفرة عن الاقتداء بهم المبعدة عنهم، ولذلك لم يسمع أنه كان في الأنبياء والرسل من خَلَقَه الله تعالى أعمى ولا أعور ولا أقطع ولا أبرص ولا أجذم ولا غير ذلك من العيوب والآفات التي تكون نقصًا ووصمًا يوجب لمن اتصف بها شينًا وذمًا ومن تصفح أخبارهم وعلم أحوالهم علم ذلك على القطع، وقد ذكر القاضي ـ رحمه الله ـ في الشفاء من هذا جملة وافرة[٢] ولا يعترض عليها بعمى يعقوب وبابتلاء أيوب، فإن ذلك كان طارئًا عليهم محبة لهم وليقتدي بهم من ابتلي ببلاء في حالهم وصبرهم، وفي أن ذلك لم يقطعهم عن عبادة ربهم ثم إن الله تعالى أظهر كرامتهم ومعجزاتهم بأن أعاد يعقوب بصيرًا عند وصول قميص يوسف له، وأزال عن أيوب جذامه وبلاءه عند اغتساله من العين التي أنبع الله تعالى له عند ركضه الأرض برجله، فكان ذلك زيادة في معجزاتهم، وتمكينًا في كمالهم ومنزلتهم»[٣].

فحازوا صلوات الله وسلامه عليهم الخير من أطرافه والكمال البشري من جميع جوانبه، منّةً من الله سبحانه وفضلاً.

قال القرطبي: «النبوة لا يخص الله بها إلاَّ من خصَّه بصفات كمال نوعه من المعارف والعلوم والفضائل والآداب، ونزهه عن نقائص ذلك، ولذا قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[٤]، وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[٥]، وقال تعالى لما ذكر الأنبياء:

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.
(٢) أي القاضي عياض في كتابه «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى».
(٣) المفهم (٦/ ١٨٩).
(٤) سورة الحج ، آية: ٧٥
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[١] وقال: ﴿كُلًّا هَدَيۡنَاۚ﴾[٢] وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾[٣] فقد حصل من هذا: أن النبوة لم يخص الله بها إلاَّ أكمل خلقه وأبعدهم عن النقائص ثم: إنه لما شرفهم بالنبوة حصلت لهم بذلك على جميع نوعهم الخصوصية»[٤].

فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ أفضل الناس وأشجع الناس وأتقى الناس لله تعالى وأعلمهم به. قال القرطبي: «الأنبياء أفضل الناس وأعلمهم بالله وبحدوده»[٥]، وقال: «ومن المعلوم حال الأنبياء عليهم السلام وشجاعتهم وثقتهم بوعد الله ورغبتهم في الشهادة وفي لقاء الله ولم يثبت قط عن واحد منهم أنه فر أو انهزم»[٦].

ولذا حق علينا تعظيم هؤلاء الأنبياء واحترامهم وتنزيههم عن صفات النقص وعن الصفات الذميمة.

وقد رد القرطبي ـ رحمه الله ـ على من زل قلمه فجاءت عبارته بما لا يتناسب مع مقام الأنبياء، ولا يليق بمكانتهم، حيث قال: «ويعفو الله عن الحريري[٧] فإنه تسخَّف في هذه الآية[٨] وتمجَّن فاستدل بها على الكُدْيَة[٩] والإلحاح فيها، وأن ذلك ليس بعيب على فاعله، ولا منقصة عليه، فقال:

فإن رُدِدْت فما بالردِّ مَنْقَصَةٌ عليك قَدْ رُدَّ موسى قَبْلُ والخَضِرُ[١٠]

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٤.
(٣) سورة القلم، الآية: ٤.
(٤) المفهم (٦/ ١٧).
(٥) المفهم (٣/ ٥٧٥).
(٦) المفهم (٣/ ٦٢٠).
(٧) هو أبومحمد القاسم بن علي بن محمد البصري الحرامي ـ نسبة إلى محلة بالبصرة ـ الحريري صاحب المقامات أديب لغوي بليغ، توفي سنة (٥١٦هـ). سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٦٠).
(٨) وهي قوله تعالى عن موسى والخضر ﴿واستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما﴾ الكهف: ٧٧.
(٩) الكُدْية: الإلحاح في السؤال، انظر: لسان العرب (١٥/ ٢١٦).
(١٠) مقامات الحريري ص (٣٢٦).

هذا لعبٌ بالدين وانسلال عن احترام النبيين فهي: شنشنة أدبية، وهفوة سخافية، ويرحم الله السلف الصالح فإنهم بالغوا في وصية كل ذي عقل راجح، فقالوا: مهما كنت لاعبًا بشيء فإياك أن تلعب بدينك[١].

المطلب الثالث: المفاضلة بين الأنبياء:

إن فضل الأنبياء على عموم بني آدم أمر معلوم في شرع الله سبحانه وتعالى، لا ينكره إلاَّ مكذب بالقرآن منكر للسنة. إذ اصطفاهم الله واختارهم، وخصَّهم بخصائص لم تكن لمن سواهم من سائر الخلق فلا يصل إلى منزلتهم أو يدانيهم في مكانتهم لا ولي ولا شهيد فضلاً عمن سواهم من سائر الخلق.

قال القرطبي: «النبي أفضل من الولي، وهذا أمر مقطوع به عقلاً ونقلاً، والصائر إلى خلافه كافر، فإنه أمر معلوم من الشرائع بالضرورة»[٢].

وقال أيضًا: «من المعلوم من ضرورة الشرع ومن إجماع المسلمين على أن درجة الأنبياء وفضيلتهم أعظم من درجة الشهداء والأولياء»[٣].

فتفضيل الأنبياء على غيرهم أمر لا خلاف فيه بين أهل السنة. ولكن تكلم العلماء في المفاضلة بين الأنبياء، إذ قد جاءت نصوص من الكتاب والسنة يوحي ظاهرها بالتعارض، فقد قال تعالى: ﴿۞تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٥]، وجاءت النصوص بتفضيل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء، لما خصه الله سبحانه به من الفضائل والكرامات التي لم تكن لمن سواه من المرسلين، قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم وأول من ينشق عنه القبر،**

---

(١) المفهم (٦/٢٠٨).

(٢) المفهم (٦/٢١٧)، وانظر: الفتاوى لابن تيمية (١١/٣٢١)، وشرح العقيدة الطحاوية (٢/٧٤٢).

(٣) المفهم (٦/٣٨٦).

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.

وأول شافع وأول مشفع»[١].

وقال ﷺ: «**فضلت على الأنبياء بستٍّ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**»[٢]. وقال: «**أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها**»[٣] وغيرها من النصوص الكثيرة الدالة على فضله ﷺ على سائر الخلائق في الدنيا والآخرة[٤].

وأما ما جاء مما قد يفهم منه تفضيل بعض الأنبياء على نبينا محمد ﷺ، كما جاء ذلك في حديث أنس رضي الله عنه الذي قال فيه: «**جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية! قال رسول الله ﷺ: ذاك إبراهيم عليه السلام**»[٥]. قال القرطبي في شرحه لهذا الحديث مزيلاً الإشكال الواقع من تعارض هذا الحديث مع غيره من الأحاديث التي تدل على أنه عليه الصلاة والسلام أفضل ولد آدم حيث قال: «قد عارض هذا الحديث قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم**»[٦] وما علم من غير ما موضع من الكتاب والسنة وأقوال السلف والأمة: أنه أفضل ولد آدم وقد انفصل عن هذا بوجهين:

أحدهما: أن ذلك من النبي ﷺ على جهة التواضع، وترك التطاول على الأنبياء، كما قال: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أكرم ولد آدم على ربي يوم القيامة ولا فخر**»[٧] وخصوصًا على إبراهيم الذي هو أعظم

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل باب، تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ح٢٢٧٨ (٤٢/١٥).

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد، ومواضع الصلاة ح٥٢٤ (٨/٥).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٨١/١)، والترمذي في كتاب التفسير، باب ١٨، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٦/١) ح(١٤٥٩)

(٤) انظر: مباحث المفاضلة في العقيدة للدكتور محمد بن عبدالرحمن الشظيفي ص(١٤٧).

(٥) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام ح٢٣٦٩ (١٣٠/١٥).

(٦) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد باب ذكر الشفاعة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٩/١) ح (١٤٦٧).

(٧) لم أجده بهذا اللفظ، وقد أخرجه الترمذي بلفظ قريب من هذا في أبواب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص(٤٨٣).

آبائه وأشرفهم.

وثانيهما: أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم منزلته عند الله تعالى، ثم إنه أعلم بأنه أفضل وأكرم، فأخبر به كما أمر، ألا ترى أنه كان في أول أمره يسأل أن يبلغ درجة إبراهيم من الصلاة عليه والرحمة والبركة والخلة، ثم بعد ذلك أخبرنا أن الله تعالى قد أوصله إلى ذلك لما قال: «**إن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»(١).

ثم بعد ذلك زاده الله من فضله، فشرَّفه وكرَّمه، وفضَّله على جميع خلقه، وقد أُورِد على كل واحد من هذين الوجهين استبعاد قال: رُدَّ على الأول أن قيل: كيف يصح من الصادق المعصوم أن يخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه لأجل التواضع والأدب؟ والوارد على الثاني: أن ذلك خبر عن أمر وجودي، والأخبار الوجودية لا يدخلها النسخ، والجواب عنهما: أن يقال: إن ذلك ليس إخبارًا عن الشيء، بخلاف ما هو عليه، فإنه تواضع يمنع إطلاق ذلك اللفظ عليه وتأدب مع أبيه، بإضافة ذلك اللفظ إليه، ولم يتعرض للمعنى، فكأنه قال: لا تطلقوا هذا اللفظ عليَّ، وأطلقوه على أبي إبراهيم أدبًا معه، واحترامًا له. ولو صرح بهذا لكان صحيحًا غير مستبعد لا عقلاً ولا نقلاً، وهذا كما قال: «**لا تفضلوني على موسى**»(٢) أي: لا تقولوا: محمد أفضل من موسى مخافة أن يُخيَّل نقص في المفضول، كما قدمناه، ويأتي بهذا أظهر هذا اللفظ: أن ذلك راجع إلى منع إطلاق لفظ وإباحته، فذلك خبر عن الحكم الشرعي، لا عن المعنى الوجودي، وإذا ثبت ذلك جاز رفعه ووضعه وصح الحكم به ونسخه من غير تعرض للمعنى والله أعلم.

سلمنا أنه خبر عن أمر وجودي، لكن لا نسلم أن كل أمر وجودي لا يتبدل بل: منها ما يتبدل ولا يلزم من تبدله تناقض ولا محال ولا نسخ،

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٧٥).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام ح٢٣٧٣ (١٣٨/١٥)، ولفظه: «لا تخيروني على موسى».

كالإخبار عن الأمور الوضعية، وبيان ذلك: أن معنى كون الإنسان مكرمًا مفضلاً إنما ذلك بحسب ما يكرم به ويفضل على غيره، ففي وقت يكرم بما يساوي فيه غيره، وفي وقت يزاد على ذلك الغير، وفي وقت يكرم بشيء لم يكرم به أحد، فيقال: عليه في المنزلة الأولى مكرَّم مقرَّب، وفي الثانية مفضل بقيد، وفي الثالثة مفضَّل مطلقًا، ولا يلزم من ذلك تناقض ولا نسخ ولا محال، وهذا واضح وحسن جدًّا فاغتبط به، وشد عليه يدًا»[١].

وقال المازري في شرحه لهذا الحديث: «قد ثبت أنه ﷺ أفضل من سائر المرسلين، فيحتمل أن يكون هذا منه ﷺ على جهة التواضع واستثقالاً لأن ينادى بهذا، وقد كان إبراهيم عليه السلام من آبائه ﷺ ويكره إظهار المطاولة على الآباء، وقد يكون فهم من مناديه هذا المعنى، وأخبر في موضع آخر بكونه سيد ولد آدم غير قاصد التعاظم والتطاول على من تقدمه ﷺ، بل ليبين ما أمره الله تبارك وتعالى ببيانه، ولهذا عقب كلامه بأن قال: «**ولا فخر**» ليزيل ما قد يظن بمطلق هذا الكلام إذا أطلقه غيره من الناس في نفسه، وقد يحتمل قوله ذاك إبراهيم قبل أن يوحى إليه بأنه هو خير منه. فإن قيل: هذا خبر ولا يقع إلاَّ صدقًا، والنسخ لا يصح فيه، فلا وجه لعذركم هذا، قلنا: قد يريد ﷺ أن إبراهيم خير البرية فيما يدل عليه ظاهر حاله عندي، وقد يقال: فلان خير قومه وأصلح أهل بلده، والمراد فيه ما يقتضيه ظاهر حاله، وقد مال إلى هذه الطريقة بعض العلماء في تفضيل الفاضل من الصحابة أنه تفضيل على الظاهر، لا على القطع على الباطن، وقد تكون لإبراهيم فضيلة تميز بها عن سائر الرسل، ولكن نبينا ﷺ له من مجموع الفضائل ما يربي عليها حتى يكون أفضل على الإطلاق ولا يكون المراد بقوله ﷺ في إبراهيم عليه السلام «خير البرية» الإطلاق، ولكن في معنى اختص به»[٢].

وأما ماورد من النهي عن المفاضلة بين الأنبياء والدعوة إلى ترك ذلك. فقد قال القرطبي عند شرحه لقوله عليه السلام: «**لا تُخَيِّروا بين**

(١) المفهم (٦/ ١٨٠).
(٢) المعلم (٣/ ١٣٠).

الأنبياء»[١]: «اختلف العلماء في تأويل هذا الحديث على أقوال، فمنهم من قال: إن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل ويتضمن هذا الكلام أن الحديث معارض لقوله تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٢] ولما في معنى ذلك من الأحاديث، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل، وهذا لا يصح حتى تتحقق المعارضة حيث لا يمكن الجمع بوجه وحتى يعرف التاريخ وكل ذلك غير صحيح على ما يأتي فليس هذا القول بصحيح. ومنهم من قال: إنما قال ذلك النبي ﷺ على جهة التواضع والأدب مع الأنبياء، وهذا فيه بعد، لأن السبب الذي خرج عليه هذا النهي يقتضي خلاف ذلك، فإنه إنما قال ذلك ردعًا وزجرًا للذي فضَّل، ألا ترى أنه قد غضب حتى احمر وجهه، ونهى عن ذلك؟ فدل على أن التفضيل يحرم، ولو كان من باب الأدب والتواضع لما صدر منه ذلك. ومنهم من قال: إنما نهى عن الخوض في ذلك؛ لأن ذلك ذريعة إلى الجدال في ذلك، فيؤدي إلى أن يذكر منهم ما لا ينبغي أن يذكر، ويقل احترامهم عند المماراة، وهذا كما نُهي عنه من الجدال في القرآن والمماراة. ومنهم من قال: مقتضى هذا النهي: إنما هو المنع من تفضيل معين من الأنبياء على معين، أو على ما يقصد به معين، وإن كان اللفظ عامًّا لأن ذلك قد يفهم منه نقص في المفضول.

قلت: ويدل على ذلك أنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «**لا تفضلوني على موسى**»[٣] وبدليل قوله: «**لا أقول إن أحدًا أفضل من يونس بن متى**»[٤]. فإن قيل: فالحديث يدل على خلاف هذا، فإن اليهودي فضَّل موسى على البشر، والمسلم قال: والذي اصطفى محمدًا على البشر وعند ذلك قال النبي ﷺ: «**لا تفضلوا بين الأنبياء ولا تخيروا بين الأنبياء**» فاقتضى ذلك المنع من التفضيل مطلقًا، معينًا وغير معين، فالجواب: أن

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام ح٢٣٧٤ (١٥/١٤١).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٣) سبق تخريجه ص(٥٢٠).

(٤) سبق تخريجه ص(٥٢٢).

مراد اليهودي كان إذ ذاك أن يصرح بأن موسى أفضل من محمد، لكنه لم يقدر على ذلك خوفًا على نفسه، ألا ترى أن المسلم فهم ذلك عنه فأجابه بما يقتضي أن محمدًا أفضل من موسى غير أنه قابل لفظ اليهودي بمثله، وقد بيّن ذلك غاية البيان قوله ﷺ: «**لا تفضلوني على موسى**» فنهاهم عن ذلك، ثم إنا قد وجدنا نبينا ﷺ قال: «**أنا أكرم ولد آدم على ربي**» و«**أنا سيد ولد آدم**»[1] ولم يذهب أحد من العلماء إلى أن هذا منسوخ ولا مرجوح.

قلت ـ أي القرطبي ـ: وهذا الوجه، وإن كان حسنًا، فأولى منه أن يحمل الحديث على ظاهره من منع إطلاق لفظ التفضيل بين الأنبياء، فلا يجوز في المعين فيهم ولا غيرهم، ولا يقال فلان النبي أفضل من الأنبياء كلهم، ولا من فلان، ولا خير كما هو ظاهر هذا النهي، لما ذكر من توهم النقص في المفضول، وإن كان غير معين، ولأن النبوة خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما تفاضلوا بأمور غيرها. ثم إن هذا النهي يقتضي منع إطلاق ذلك اللفظ، لا منع اعتقاد ذلك المعنى، فإن الله تعالى قد أخبرنا بأن الرسل متفاضلون كما قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2] وكما قد علمنا أن نبينا ﷺ قد خصَّ بخصائص من الكرامات والفضائل بما لم يخص به أحد منهم، ومع ذلك فلا نقول: نبينا خير من الأنبياء، ولا من فلان النبي اجتنابًا لما نهى عنه وتأدبًا بأدبه وعملاً باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل ورفعًا لما توهمه من المعارضة بين السنة والتنزيل»[3].

ولعل القول الذي ترجحه الأدلة من هذه الأقوال، وتطمئن إليه النفس هو ما استحسنه القرطبي، ولم يأخذ به، وقد رجحه غير واحد من العلماء، وهو أن النهي عن المفاضلة بينهم حيث تؤدي هذه المفاضلة إلى انتقاص المفضول، أو عدم التأدب مع مقام النبوة، خصوصًا عند المجادلة والمماراة

---

(١) سبق تخريجه ص(٥١٩).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.
(٣) المفهم (٦/ ٢٢٨).

كما حدث في سبب ورود هذا الحديث.

وأما ما سوى ذلك مما يُؤمنُ منه هذا الجانب، ويكون التفضيل بناءً على الأدلة الشرعية من القرآن الكريم، أو السنة النبوية، والذي فيه بيان لفضل بعض الأنبياء على بعض، إذ قد كلم الله موسى تكليمًا، واتخذ الله إبراهيم خليلاً، وخلق آدم بيده وجعلَ عيسى كلمةَ الله وروحًا منه، وفضَّل نبينا ﷺ على سائر المرسلين، وآتاه ما لم يؤت أحدًا من العالمين، فهذا حق لا مرية فيه، ولا تعارض بين النصوص، كما قد يتوهم البعض، وهذا ما ذكره المازري عن بعض شيوخه، وسكت عنه، حيث قال: «أما قوله: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله**» فيحتمل أن يكون ذلك قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، وكان بعض شيوخي يقول: يحتمل أن يريد لا تفضلوا بين أنبياء الله تفضيلاً يؤدي إلى نقص بعضهم، وقد خرج الحديث على سبب، وهو لطم الأنصاري وجه اليهودي، فقد يكون ﷺ خاف أن يفهم من هذه الفعلة انتقاص حق موسى عليه السلام، فنهى عن التفضيل المؤدي إلى نقص الحقوق»[١].

قال الحافظ ابن حجر: «قال العلماء في نهيه عن التفضيل بين الأنبياء: إنما النهي عن ذلك من يقوله برأيه، لا من يقوله بدليل، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع»[٢].

وقال الحليمي[٣]: «الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنما هي في مجادلة أهل الكتاب وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة؛ لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر، فيفضي إلى الكفر، فأما إذا كان التخيير مستندًا إلى مقابلة الفضائل

---

(١) المعلم (٣/ ١٣٤).
(٢) فتح الباري (٦/ ٥١٤).
(٣) أبوعبدالله الحسين بن الحسن بن محمد النجاري، المشهور بالحليمي، محدث أديب من أعيان المذهب الشافعي، توفي سنة (٤٠٣هـ). طبقات الحفاظ ص(٤٢٤) ترجمة (٩٢٥)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٣١).

لتحصيل الرجحان فلا يدخل في النهي»[١].

وفي إزالة الإشكال الحاصل لدى البعض من قوله ﷺ: «**لا تفضلوني على موسى**» مع ما ثبت له ﷺ من الفضائل التي لم تكن لمن سواه من الأنبياء والمرسلين، كما جاءت بذلك النصوص، فقد قال شارح الطحاوية: «الجواب أن هذا كان له سبب، فإنه كان قد قال يهودي: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه مسلم، وقال: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا! فجاء اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمه فقال رسول الله ﷺ هذا لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذمومًا، فإن الله حرَّم الفخر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[٣]. فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر أو على وجه الانتقاص بالمفضول، وعلى هذا يحمل قوله ﷺ: «**لا تفضلوا بين الأنبياء**»[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا كان التفضيل على وجه الغض من المفضول في النقص له نهي عن ذلك، كما نهىٰ في هذا الحديث عن تفضيل موسى، وكما قال لمن قال يا خير البرية قال: «**ذاك إبراهيم**» وصح قوله: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر**»[٥]»[٦].

المطلب الرابع: نبوة الخضر وحياته:

نبوته:

اختلف في الخضر، هل هو نبي أو رسول أو ولي؟ كما قال الراجز:

واختلف في خضر أهل العقول   قيل نبي أو ولي أو رسول؟[٧]

---

(١) انظر: المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (٢/ ١١٧).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٤) شرح الطحاوية (١/ ١٥٩).

(٥) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ١٨، وابن ماجه في سننه في كتاب الزهد، باب (١٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٠٩) ح(١٤٦٨).

(٦) منهاج السنة لابن تيمية (٧/ ٢٥٦).

(٧) أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٣٢٢).

وقد رجَّح القرطبي أن الخضر نبي، وليس برسول ولا ولي. فقال: «الخضر عليه السلام لم يتفق على أنه نبي، بل هو أمر مختلف فيه، هل هو نبي، أو ولي؟ فإن كان نبيًّا فليس برسول بالاتفاق، إذ لم يقل أحد: أن الخضر عليه السلام أُرسل إلى أمة»(١).

وقال في إثبات نبوته بعد أن ذكر بعض كراماته: فيه دليل على كرامات الأولياء، وكذلك كل ما وصف عن أحوال الخضر في هذا الحديث، وكلها أمور خارقة للعادة، هذا إذا تنزلنا على أنه ولي لا نبي، وقد اختلف فيه أئمة أهل السنة، والظاهر من مساق قصته واستقراء أحواله مع قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾(٢) أنه نبي يوحى إليه بالتكاليف والأحكام، كما أُوحي إلى الأنبياء غير أنه ليس برسول»(٣).

وأما المازري فقد ذكر الخلاف في هذه المسألة ولم يرجح حيث قال: اضطرب العلماء في الخضر، هل هو نبي أم لا؟ واحتج من قال بنبوته بقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ فدلَّ على أن الله عز وجل يوحي إليه بالأمر، وهذه النبوة. وينفصل الآخرون عن هذا بأنه يحتمل أن يكون نبي غيره، أمره بذلك عن الله تعالى، وقصارى ما في الآية أنه ما فعله عن أمره، ولكن إذا كان المراد عن أمر الله تعالى فمن المبلغ له؟ ليس في الآية تعيين فيه، وقد يحتج من قال بنبوته بكونه أعلم من موسى، ويبعد أن يكون الولي أعلم من النبي»(٤). وما ذكره المازري هنا ليس بحجة إذ لو كان الخضر نبيًّا فلا يصل إلى منزلة موسى ـ عليه السلام ـ بالاتفاق فلا يكون علمه الذي أخفى عن موسى دليل النبوة.

والذي رجَّحه القرطبي هو الذي ذهب إليه الحفاظ ابن حجر(٥) وابن

---

(١) المفهم (٦/ ٢١٧).
(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٢.
(٣) المفهم (٦/ ٢٠٩).
(٤) المعلم (٣/ ١٣٦).
(٥) فتح الباري (١/ ٢٦٧).

الجوزي[١].

وكذلك الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان، حيث قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾[٢]: «يفهم من بعض الآيات أن هذه الرحمة المذكورة هنا رحمة نبوية، وأن هذا العلم اللدني علم وحي... ومن أظهر الأدلة في أن الرحمة والعلم اللدني اللذين امتنَّ الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحي قوله تعالى عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾[٣] أي: وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلاَّ بالوحي من الله جل وعلا»[٤].

وقد ذكر ـ رحمه الله ـ الأدلة والمبررات التي تؤيد ما ذهب إليه، والتي يصعب نقلها لطولها فلتراجع. وهذا هو القول الراجح، وقد نسبه القرطبي المفسر إلى جمهور العلماء[٥].

حياته:

لقد وقع الخلاف في حياة الخضر هل مازال حيًّا أم أنه قد مات؟ حيث ذهب بعض العلماء إلى إثبات حياته وتعميره كالنووي والقرطبي المفسر وابن الصلاح[٦].

وأما القرطبي فقد تعرض لهذه المسألة، ولم يرجح وإن كان يفهم من كلامه ميله إلى إثبات حياته.

حيث قال: «قد استدل بعض الحفاظ المتأخرين على بطلان قول من يقول: إن الخضر حي بعموم «**مامن نفس منفوسة**»[٧] فإنه من أنص صيغ

---

(١) ذكره عنه شيخ الإسلام ابن تيمية. انظر: الفتاوى (٤/ ٣٩٧).

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٤) أضواء البيان (٣/ ٣٢٣).

(٥) تفسير القرطبي (١١/ ١٢).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (١١/ ٢٩)، وشرح مسلم للنووي (١٥/ ١٤).

(٧) ولفظه عند البخاري قوله عليه السلام: «**أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة لا يبقى ممن**=

العموم على الاستغراق، وهذا لا حجة فيه يقينية؛ لأن العموم ـ وإن كان مؤكدًا للاستغراق ـ فليس نصًّا فيه، بل: هو قابل للتخصيص، لاسيما والخضر وإن كان حيًّا ـ كما يقال ـ فليس مشاهدًا للناس، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضًا، فمثل هذا العموم لا يتناوله كما لم يتناول عيسى عليه السلام، فلأنه لم يمت، ولم يقتل، فهو حي بنص القرآن ومعناه، وكما لم يتناول الدجال مع أنه حي بدليل حديث الجساسة على ما يأتي، فإن قيل: إنما لم يتناول هذا العموم عيسى؛ لأن الله قد رفعه إليه، فليس هو على ظهر الأرض؛ لأن المراد بذلك العموم: من كان من النفوس على ظهر الأرض كما نص عليه في حديث ابن عمر، فالجواب: يمنع عموم الأرض المذكورة فيه فإنه اسم مفرد دخل عليه الألف واللام، وهي محتملة للعهد والجنس، وهي هٰهنا للعهد؛ لأن الأرض التي يخاطبون بها ويخبرون عن الكون فيها هي أرض العرب وما جرت عادتهم بالتصرف إليها، وفيها غالبًا دون أرض يأجوج ومأجوج، وأقاصي جزائر الهند والسند مما لا يقرع السمع اسمه، ولا يعلم علمه، ولا جواب عن حديث الدجال، وعلى الجملة: فمن يستدل في المباحث القطعية بمثل هذا العموم فليس لكلامه حاصل ولا مفهوم»[1].

والصحيح ما عليه جمهور العلماء من أنه قد مات كغيره من الناس، ولم يخص بالخلود في الحياة، والأدلة على ذلك كثيرة، منها:

ـ ظاهر عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾[2].

ـ ومنها قوله ﷺ في دعائه في معركة بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»[3] فلو كان الخضر حيًّا لعبد الله تعالى مع

= **هو اليوم على ظهر الأرض أحد**» رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة باب السمر في الفقه والخير بعد العشاء ح٦٠١ (٢/٨٨)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: «**لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم**» ح/٢٥٣٧، ٢٥٣٨ (١٦/٣٢٣، ٣٢٤).

(١) المفهم (٦/٤٩٠).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٤.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ح١٧٦٣ =

هلاك هذه العصابة.

- ومنها إخباره ﷺ بأنه على رأس مائة سنة، من الليلة التي تكلم فيها بالحديث، لن يبقى على وجه الأرض أحد، ممن هو عليها تلك الليلة[١].

فلو كان الخضر حيًّا في الأرض لما تأخر بعد المائة المذكورة.

- ومنها أنه لو فرض وجود الخضر زمن النبي ﷺ لكان من أتباعه ولنصره، وقاتل معه؛ لأنه مبعوث إلى الثقلين الإنس والجن، وقد قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلَّا أن يتبعني**»[٢] وإذا كان موسى ملزم باتباع النبي ﷺ لو كان حيًّا فالخضر من باب أولى»[٣].

المطلب الخامس: نبوة النساء:

إن مما وقع فيه الخلاف في مسائل النبوة، نبوة النساء، فقد ذهب بعض العلماء إلى إثبات نبوة النساء، فقد صرَّح بعض العلماء بنبوة مريم، وآسية زوجة فرعون، وأم موسى، وحواء، وهاجر، وسارة، وذهب الجمهور إلى أن النبوة قاصرة على الرجال دون النساء، إذ من شروط النبوة الذكورة، كما قال في الدرة المضية:

وشرط من أكرم بالنبوة حرية ذكورة كقوة[٤]

والقرطبي - رحمه الله - رجَّح نبوة مريم، وتردد في نبوة آسية حيث قال في إثبات نبوة مريم عند قوله ﷺ: «**خير نسائها مريم بنت عمران..**»[٥]:

= (١٢/ ٣٢٧).

(١) سبق تخريجه ص(٥٢٧).

(٢) أخرجه أحمدفي مسنده (٣/ ٣٨٧)، وابن أبي شيبة في المصنف في كتاب الأدب، باب من كره النظر في كتب أهل الكتاب. وقال الألباني: الحديث عندي حسن لأن له طرقًا كثيرة عند اللالكائي والهروي وغيرهما. مشكاة المصابيح (١/ ٦٣) هامش (٢).

(٣) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٣٢٨-٣٣١).

(٤) الدرة المضية في عقيدة الفرقة الرضية مع شرحها لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ٢٦٥).

(٥) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ الآية ح٣٤٣٢، (٦/ ٥٤٢) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين - رضي الله عنها - ح٢٤٣٠ (١٥/ ٢٠٧).

«هذا الضمير عائد على غير مذكور، لكنه تفسره الحال والمشاهدة.. فكأنه قال: خير نساء الدنيا: مريم بنت عمران، وهذا نحو حديث ابن عباس المتقدم الذي قال فيه: «**خير نساء العالمين مريم**»[(١)] ويشهد لهذه الأحاديث في تفضيل مريم: قول الله تعالى حكاية عن قول الملائكة لها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾[(٢)] فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، ويعتضد هذا الظاهر بأنها صديقة ونبية بلغتها الملائكة الوحي عن الله تعالى بالتكليف والإخبار والبشارة وغير ذلك كما بلغته سائر الأنبياء، فهي إذًا نبية. وهذا أولى من قول من قال: إنها غير نبية، وإذا ثبت ذلك ولم يسمع في الصحيح أن في النساء نبية غيرها، فهي أفضل من كل النساء الأولين والآخرين إذ النبي أفضل من الولي بالإجماع[(٣)].

وعند قوله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[(٤)].

قال القرطبي: «لا شك أن أكمل نوع الإنسان: الأنبياء ثم تليهم الأولياء، ويعني بهم: الصديقين والشهداء والصالحين، وإذا تقرر هذا فقد قيل: إن الكمال المذكور في الحديث يعني به: النبوة، فيلزم أن تكون مريم وآسية نبيتين، وقد قيل بذلك، والصحيح: أن مريم نبية؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك، كما أوحى إلى سائر النبيين، وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوتها دلالة واضحة بل: على صديقيتها وفضيلتها فلو صحت

---

(١) حديث ابن عباس المتقدم ذكر أفضل نساء أهل الجنة إنما جاء من قوله عليه السلام: «**خير نساء العالمين مريم بنت عمران وبنت خويلد، وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون**» أخرجه ابن حبان في صحيحه في ذكر فاطمة الزهراء.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

(٣) المفهم (٦/ ٣١٤).

(٤) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ـ إلى قوله ـ وكانت من القانتين﴾ ح٣٤١١ (٦/ ٥١٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة رضي الله عنها ح٢٤٣١ (١٥/ ٢٠٨).

لها نبوتها لما كان في الحديث إشكال فإنه يكون معناه: إن الأنبياء في الرجال كثير، وليس في النساء نبي إلاَّ هاتين المرأتين، ومن عداهما من فضلاء النساء صديقات لا نبيَّات وحينئذ يصح أن تكونا أفضل نساء العالمين، والأولى أن يقال: إن الكمال المذكور في الحديث ليس مقصورًا على كمال الأنبياء بل يندرج معه كمال الأولياء»(١).

وهذا الذي ذهب إليه القرطبي قد رجَّحه الأشعري وابن حزم، وحجتهم في ذلك ما ذكره القرطبي من أن الله تعالى أوحى إليها وأرسل إليها ملكًا وأثبت غيره نبوة غير مريم. والصحيح خلاف ما ذكروه، إذ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾(٢)، وأما قولهم أن هذا في نفي الرسالة لا النبوة، فلا يوافقون عليه إذ الصحيح أن النبي مأمورٌ بالتبليغ كالرسول، وهذا يحتاج إلى مخالطة الناس وكثرة الاجتماع بهم إلى غير ذلك مما لا يتناسب مع طبيعة المرأة المأمورة بالحشمة والبعد عن الاختلاط.

وأما الاستدلال بالكمال، فلا يلزم من إثبات الكمال حصول النبوة؛ لأن الكمال يطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغها النهاية في جميع الفضائل التي للنساء(٣).

أما الاستدلال على إثبات النبوة وجود الوحي فالجواب أن الوحي أنواع، منه وحي نبوة، ووحي إلهام، ووحي منام، كما هو معلوم من معنى الوحي في اللغة. وقد ثبت الوحي لغير مريم ممن لا يثبت القرطبي نبوتها كأم موسى، إذ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾(٤). وقد نقل الطبري عن قتادة قوله في هذه الآية: «وحيًا جاءها من الله فقذف في قلبها وليس بوحي نبوة»(٥).

---

(١) المفهم (٦/ ٣٣٢).
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٣.
(٣) فتح الباري (٦/ ٥١٥).
(٤) سورة القصص، الآية: ٧.
(٥) تفسير الطبري (١٠/ ٢٩).

وأما مجيء الملك إلى مريم فلا حجة فيه؛ لأنه قد ثبت مجيء الملك لمن لا يشك في أنه ليس بنبي كالذي زار أخًا له في الله، فبعث الله إليه ملكًا يسأله عن سبب زيارته، فلما أخبره أنه يحبه في الله أعلمه الملك أن الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبه[(١)].

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾[(٢)] فليس فيه حجة أيضًا؛ لأن الاصطفاء قد يكون اصطفاء هداية إلى دين الله تعالى وزيادة يقين ورسوخ إيمان، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[(٣)] فالصحيح الذي تدل عليه الأدلة هو ما ذهب إليه جمهور العلماء، وذكر النووي أن الجويني ذكر الإجماع عليه، وهو عدم وجود نبية من النساء، وأن النبوة تقتصر على الرجال، وبهذا يتبين أن القول بنبوة بعض النساء قول ضعيف نقلاً وعقلاً، ولذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه من الأقوال المنكرة الشاذة التي يعجب منها[(٤)].

---

(١) وقد أخرج الحديث مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة، باب في فضل الحب في الله ح٢٥٦٧ (١٦/٣٥٩).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٤) انظر: الفتاوى (٤/٣٩٦).

المبحث الثاني

دلائل النبوة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: **المعجزة والكرامة**

المطلب الثاني: **معجزاته عليه الصلاة والسلام**

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ خاتم النبوة.

٣ ـ عصمته من الناس.

٤ ـ انشقاق القمر.

٥ ـ نطق الجمادات.

٦ ـ الإخبار بالمغيبات.

٧ ـ تكثير الطعام والشراب.

٨ ـ نبع الماء من بين أصابعه.

٩ ـ رمي الكفار بالتراب وإصابتهم جميعًا.

١٠ ـ إجابة دعواته.

اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يرسل رسولاً إلاَّ ويؤيده بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة على صدقه، وصحة نبوته، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾[١]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[٢] أي بالمعجزات البينة، والشرائع الظاهرة، والعلامات الواضحة التي تدل على صدقهم[٣]، وقال ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلاَّ أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر**»[٤].

قال القرطبي: «الأنبياء دلَّت على صدقهم دلائل المعجزات[٥]، فمن ارتاب في صدقهم فجوابه بالمعجزات التي تدل قطعًا على صحة أقوالهم وصواب أفعالهم»[٦].

ودلائل النبوة التي يؤيد الله تعالى بها رسله تختلف من نبي إلى آخر فليست محصورة في المعجزات وليست من نوع واحد إذ المراد من الآيات الدلالة على النبوة بأي دليل كان، ومنها المعجزات لكونها خارجة على القدرة البشرية.

المطلب الأول: المعجزة والكرامة :

كما يؤيد الله سبحانه رسله بالمعجزات، فإنه تعالى يكرم بعض أوليائه بالكرامات، التي هي خوارق للعادات، في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات. والتصديق بها من أصول أهل السنة والجماعة[٧].

وقد أنكرت طوائف من المبتدعة هذه الكرامات بدعوى أن هذا يؤدي

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠١.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٧٧).

(٤) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «**بعثت بجوامع الكلم**» ح٧٢٧٤ (١٣/ ٢٦١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ح١٥٢ (٢/ ٥٤٥).

(٥) المفهم (٦/ ٧).

(٦) انظر: المفهم (٥/ ٥٩٩).

(٧) انظر: الفتاوى لابن تيمية (٣/ ١٥٦)، ولوامع الأنوار للسفاريني (٢/ ٣٩٣).

إلى التباس النبي بالولي إذ لا تكون المعجزة دليلاً على صدق الأنبياء[١].

ولا شك أن هذا القول تدل على بطلانه النصوص من الكتاب والسنة[٢]، وما تواتر نقله عن سلف الأمة.

قال القرطبي: «الكرامة تدل على حسن حال من ظهرت على يديه؛ لأن الكرامات تنسب لأولياء الله وهم أهل طاعته، لا إلى أولياء الشيطان، وهم أهل الفسق والعصيان، فلا يجوز نسبة الكرامات لأهل المعاصي إجماعًا»[٣].

وقد بيَّن القرطبي الفرق بين النبي والمتنبيء فقال: وأما الفرق بين النبي والمتنبيء فالمعجزة لا تظهر على يدي المتنبيء لأنه يلزم منه انقلاب دليل الصدق دليل الكذب وهو محال»[٤].

وفرَّق المازري في خرق العادة بين النبي والولي والساحر، إذ قال: «العادة تنخرق على يد النبي، وعلى يد الولي، وعلى يد الساحر، إلاَّ أن النبي يتحدى بها، ويستعجز سائر الخلق، ويحكي عن الله سبحانه خرق العادة لتصديقه، فلو كان كاذبًا، لم تخرق العادة على يديه، ولو خرقها لأظهر على يد غيره من المعارضين له، مثل ما أظهر على يده. والولي والساحر لا يتحديان ولا يستعجزان الخليقة ليستدلوا على صدقهم وعلى نبوتهم، ولو حاولوا أشياء من ذلك لم تنخرق لهم العادة، أو تنخرق ولكنها تنخرق لمن يعارضهم وأما الولي والساحر، فإنهما يفترقان من طريق أخرى وهي أن الساحر يكون ذلك علمًا على فسقه وكفره، والولي لا يكون علمًا

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٦٧).

(٢) من ذلك قوله تعالى عن مريم: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ آل عمران، وما جرى لأصحاب الكهف الذين ضرب الله تعالى على آذانهم في الكهف ثلاثمائة سنة، وازدادوا تسعًا، وحفظ الله أجسادهم هذه المدة الطويلة كما ذكر الله تعالى ذلك في سورة الكهف. وقد ذكر شيخ الإسلام جملة من كرامات الأولياء الثابتة. انظر: الفتاوى (١١/ ٢٧٦ـ٢٨١).

(٣) المفهم (٤/ ٤٢).

(٤) المفهم (٧/ ٢٦٩).

على ذلك فيه فافترق حال الثلاثة بعضهم من بعض»[١].

وقال أيضًا: «إظهار المعجزة على يد الكذاب لا تصح فيقال: لم ظهرت على يد الدجال وهو كذاب؟ فيقال: لأنه يدعي الربوبية وأدلة الحدوث تحيل ما ادَّعاه وتكذبه. والنبي يدعي النبوة، وهي غير مستحيلة في البشر، وأتى بالدليل الذي لم يعارضه شيء فصدق»[٢].

وقال القرطبي في بيان أن مذهب أهل السنة إثبات الكرامات: «وقوع الكرامات للأولياء هو قول جمهور أهل السنة والعلماء لما وقع في الكتاب والسنة وأخبار صالحي هذه الأمة مما يدل على وقوعها وإنما محل الإنكار ادعاء وقوعها ممن ليس موصوفًا بشروطها، ولا هو أهل لها وادعاء كثرة وقوع ذلك دائمًا متكررًا حتى يلزم عليه، أن يرجع خرق العادة عادة وذلك إبطال لسنة الله وحسم السبل الموصولة إلى معرفة أنبياء الله تعالى»[٣].

وقد بيَّن القرطبي أن المعجزة التي تقع على يد الرسول لا يشترط فيها اقتران التحدي عند كل ظهور لها. لكن يكتفى بالإعلام أولاً بنبوته ودعوة الناس إلى تصديقه ومتابعته.

قال: «قوله ﷺ: «**الله أكبر، أشهد أني عبدالله ورسوله**»[٤] عند وقوع ما أخبر به من الغيب دليل على أن ذلك من جملة معجزاته، وإن لم يقترن بها في تلك الحال تحد قولي وهذا على خلاف ما يقوله المتكلمون: إن من شروط المعجزة اقتران التحدي القولي بها، فإن لم تكن كذلك فالخارق كرامة لا معجزة والذي ينبغي أن يقال: إن ذلك لا يشترط بدليل أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا كلما ظهر لهم خارق للعادة على يدي النبي ﷺ استدلوا بذلك على صدقه وثبوت رسالته... ولم يصدر عنه مع شيء من ذلك تحدٍ بالقول عند وقوع تلك الخوارق، ومع ذلك فهي معجزات والذي ينبغي أن يقال: إن اقتران القول لا يلزم بل يكفي من ذلك قول كلي يتقدم

---

(١) المعلم (٣/ ٩٤).
(٢) المعلم (٣/ ٢١٤).
(٣) المفهم (٦/ ٥١٧).
(٤) سبق تخريجه ص(١٦٩).

الخوارق كقول الرسول ﷺ الدليل على صدقي ظهور الخوارق على يدي، فإن كل ما يظهر على يديه منها بعد ذلك يكون دليلاً على صدقه، وإن لم يقترن بها واحدًا واحدًا قول ويمكن أن يقال: إن قرينة حاله تدل على دوام التحدي فيتنزل ذلك منزلة اقتران القول»[١].

قد يفهم من هذه النقولات موافقة القرطبي والمازري للأشاعرة في مذهبهم في المعجزات، وإن كان القرطبي قد صرَّح بمخالفته لقول الأشاعرة في حصر دلالة صدق النبي على المعجزة، كما سبق نقل كلامه عند الحديث عن دلائل الربوبية[٢].

وقول القرطبي هنا أن المعجزة لا يظهرها الله على يد كاذب صحيح، لكن الله تعالى يفعل ذلك لحكمة، وهو منزه تعالى عن ذلك، لا كما تعلل الأشاعرة بأن المعجزة هي الدليل الوحيد على صدق النبي، أو أن إظهارها على يد الكاذب يفضي إلى تعجيز الرب عن إثبات صدق أنبيائه[٣].

وأما جعلهم الفرق بين المعجزة والسحر والشعوذة هو فقط عدم المعارضة، وكونها جاءت على يد مدعي النبوة، فهذا فرقٌ ضعيفٌ، فإن من الناس من ادَّعى النبوة وكان كاذبًا وظهرت على يده بعض هذه الخوارق، فلم يُمنع منها، ولم يعارضه أحد، كما حدث للأسود العنسي ومسيلمة وغيرهما[٤].

المطلب الثاني: معجزاته عليه الصلاة والسلام:

معجزات الأنبياء عليهم السلام مناسبة لحال أقوامهم حيث جاء موسى ـ عليه السلام ـ بالعصا على صورة ما يضع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره؛ لأنه جاء إلى قوم فشا فيهم السحر، وعيسى ـ عليه السلام ـ أرسل إلى قوم كثر فيهم الأطباء والحكماء، فأتاهم الله بمعجزة من جنس عملهم، لم تصل قدرتهم إليها، وكان العرب الذين بعث

---

(١) المفهم (١/ ٣١٩، ٣٢٠).
(٢) انظر: ص(١٧٠).
(٣) انظر: النبوات لابن تيمية (١/ ٦، ٧) والجواب الصحيح لابن تيمية (٦/ ٣٩٧).
(٤) انظر: النبوات ص(١٣، ١٤، ٢٠٣).

فيهم الرسول ﷺ بلغوا الغاية من البلاغة والفصاحة، فجاءهم تعالى بالقرآن المعجزة الخالدة الباقية إلى قيام الساعة، مع العديد من معجزاته عليه الصلاة والسلام، التي جاءهم بها كانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام والإخبار عن المغيبات وغيرها من دلائل النبوة التي أيدَهُ بها سبحانه وتعالى.

وأقف هنا مع بعض دلائل النبوة التي ذكرها القرطبي في المفهم والمازري في المعلم:

١ ـ القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو أعظم الآيات التي أعطيها رسولنا ﷺ بل أعظم آيات الرسل كلهم على الإطلاق آية دائمة باقية إلى قيام الساعة تحدى الله تعالى بها الفصحاء والبلغاء من العرب، بل من الإنس والجن: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[١] بل لا يأتون بسورة من مثله قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾[٢]. فهو المعجزة التي شاهدها من عاصر الرسول ﷺ، ومن أتى بعده إلى قيام الساعة.

قال القرطبي عن هذه الآية: «كل رسول أُيِّد بمعجزة تدل على صحة رسالته فيظهر صدقه، وتثبت حجته، كما قد علم من أحوالهم بما أخبرنا الله به وبينه عنهم غير أن معجزاتهم تنقرض بانقراضهم، فلا يبقى منها بعدهم إلاَّ الإخبار بها وذلك قد يخفى مع توالي الأعصار ونبينا ﷺ وإن كان قد أعطي من كل نوع من أنواع معجزات الأنبياء قبله، كما قد أوضحناه في كتابنا المسمى بـ«الإعلام بصحة نبوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام» لكنه فُضل على جميعهم بالمعجزة العظمى الباقية ما بقيت الدنيا وهي: الكتاب العزيز الذي أعجزت السورة منه الجن والإنس أي تعجيز فإعجازه

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٨.

مشاهد بالعيان متجدد ما تعاقب الجديدان فمن ارتاب الآن في صدق قوله قيل له: فائت بسورة من مثله، ولما كانت هذه المعجزة قاطعة الظهور مستمرة مدى الدهور اشترك في معرفتها المتقدمون والمتأخرون واستوى في معرفة صدق محمد ﷺ: السابقون واللاحقون فدخل العقلاء في دينه دخولاً متتابعًا وحقق الله تعالى له رجاءه فكان أكثر الأنبياء تابعًا»[١].

٢ ـ خاتم النبوة :

إن من دلائل النبوة الحسية الظاهرة التي أُيد بها ﷺ ما جعل بين كتفيه من أصل خلقه من خاتم النبوة الظاهر لكل متأمل فقد جاء في حديث جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ: «**رأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده**»[٢].

قال القرطبي: خاتم النبوة من علاماته المعروفة في الكتب السابقة، وفي صدور علماء الملل السالفة، ولذا لما حصل عند سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ العلم بصفاته وأحواله وعلاماته وموضع مبعثه ودار هجرته، جد في الطلب، حتى ظفر بما طلب، ولما لقيه جعل يتأمل ظهره، فعلم النبي ﷺ أنه يريد أن يقف على ما يعرفه من خاتم النبوة، فنزع رداءه من على ظهره، فلما رأى سلمان الخاتم، أكب عليه يقبله وهو يقول: أشهد أنك رسول الله»[٣].

٣ ـ عصمته من الناس :

من دلائل نبوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ حفظ الله تعالى له من أعدائه، الذين كانوا يتربصون به، ويسعون للتخلص منه، ولكن الله تعالى تكفل بحفظه فلم يستطيعوا أن يصلوا إليه مع محاولاتهم المتكررة قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[٤].

---

(١) المفهم (٦/ ٥٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات خاتم النبوة وصفته، ومحله من جسده ﷺ ح٢٣٤٤ (١٥/ ١٠٦).

(٣) المفهم (٦/ ١٣٥).

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

وقد جاء في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ قوله: «غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قِبَل نجدٍ فأدْرَكَنا رسولُ الله ﷺ في وادٍ كثير العِضَاةِ فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي، يستظلون بالشجر، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**إن رجلاً أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظتُ وهو قائمٌ على رأسي، فلم أشعر إلَّا والسيف صلتٌ في يده**» فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: «**قلت الله!**» ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال: «**قلت الله!**» قال: «**فشام السيف فها هو ذا جالس**» **ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ**»[١].

قال القرطبي عند شرحه لهذا الحديث: «لم يبال النبي ﷺ بقوله، ولا عرج عليه، ثقة منه بوعد الله، وتوكلاً عليه، وعلمًا منه بأنه ليس في الوجود فعل إلاَّ لله تعالى، فإنه أعلم الناس بالله تعالى، وأشدهم له خشية، فأجابه بقوله: «الله» ثانية وثالثة، فلما سمع الرجل ذلك وشاهد تلك القوة التي فارق بها عادة الناس في مثل تلك الحال تحقق صدقه وعلم أنه لا يصل إليه بضرر.

وهذا من أعظم الخوارق للعادة فإنه عدو متمكن بيده سيف شاهر وموت حاضر، ولا حال تغيرت، ولا روعة حصلت هذا محال في العادات، فوقوعه من أبلغ الكرامات، ومع اقتران التحدي به يكون من أوضح المعجزات»[٢].

٤ ـ انشقاق القمر:

وهو من معجزاته عليه الصلاة والسلام التي تحدى بها قومه ودعاهم بها إلى تصديقه والإيمان به، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾[٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة ح٢٩١٠ (٦/١١٣)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف ح٨٤٣ (٦/٣٧٧).

(٢) المفهم (٦/٦٣).

(٣) سورة القمر، الآيتان: ١، ٢.

قال الطبري في تفسير هذه الآية: «إن كفار مكة سألوا الرسول ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر آية حجة على صدق قوله، وحقيقة نبوته، فلما أراهم أعرضوا وكذَّبوا»[(١)].

قال القرطبي: «وقع ذلك الانشقاق على حقيقته، ووجد ذلك بمكة ومنى بعد أن سألت قريش رسول الله ﷺ آية، فأراهم انشقاقه على نحو ما ذكر من أن عبدالله بن مسعود أوضح كيفية هذا الانشقاق حتى لم يترك لقائل مقالاً، فقال: وكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، وفي رواية: فسترت الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، ونحو ذلك قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وقد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ منهم: عبدالله بن مسعود وأنس، وابن عباس، وابن عمر، وحذيفة، وعلي، وجبير بن مطعم، وغيرهم، وروى ذلك عن الصحابة أمثالهم من التابعين، ثم كذلك ينقله الجم الغفير والعدد الكثير إلى أن انتهى ذلك إلينا، وفاضت أنواره علينا، وانضاف إلى ذلك ما جاء من ذلك في القرآن المتواتر عند كل إنسان فقد حصل بهذه المعجزة العلم اليقين الذي لا يشك فيه أحدٌ من العاقلين»[(٢)].

وقد ردَّ على الذين استبعدوا وقوعه أو كذبوه من بعض أهل الملة أو من الملاحدة قال في ختامه: «والذي يحسم مادة الخلاف بين أهل ملتنا أن نقول: «لا بعد في أن يكون الله تعالى خرق العادة في ذلك الوقت، فصرف جميع أهل الأرض عن الالتفات إلى القمر في تلك الساعة، لتختص مشاهدة تلك الآية بأهل مكة، كما اختصوا بأكثر مشاهدة آياته، كحنين الجذع، وتسبيح الحصى، وكلام الشجر، إلى غير ذلك من الخوارق التي شاهدوها ونقلوها إلى غيرهم، كما قد فصلنا ذلك في كتابنا المسمى «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ» وهذا الكلام خاصٌّ للمنكر للإنشقاق من أهل الإسلام، وأما الملاحدة

---

(١) تفسير الطبري، (١١/ ٥٤٤).

(٢) المفهم (٧/ ٤٠٣).

فالكلام معهم في إبطال أصولهم الفاسدة»(١).

٥ ـ نطق الجمادات :

من دلائل نبوته ﷺ ما جاء في بعض الأحاديث من نطق الحجر والشجر تصديقًا له وآية لرسالته، قال ﷺ: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**»(٢) قال القرطبي: «يعني أنه كان يسلم عليه بالنبوة والرسالة، قبل أن يشافهه الملك بالرسالة، وقد سمع الكثير ممن حضر مجالسه تسبيح الحصى في كفه وحنين الجذع(٣) والمسجد قد غصَّ بأهله»(٤).

٦ ـ الإخبار بالمغيبات :

الغيب لا يعلمه إلاَّ الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾(٥). ولكن قد يظهر الله تعالى بعض أمور الغيب لمن يشاء من عباده، كما أظهر سبحانه للخضر ما أخفاه عن موسى، وكما أظهر لموسى عليه السلام وغيره من الأنبياء ما أخفاه عما سواهم قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾(٦).

ولذا فالإخبار ببعض أمور الغيب، جعلها الله تعالى من دلائل النبوة، التي تدل على صدق الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فيما يخبرون به. وقد وقع للرسول ﷺ من الإخبار ببعض أمور الغيب، فَوَقَعَ منها ماوقع ممَّا شوهد في

---

(١) المفهم (٧/ ٤٠٤).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب نسب الرسول ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ح٢٢٧٧ (١٥/ ٤٢).

(٣) حنين الجذع جاء من حديث جابر رضي الله عنه وغيره، قال: «كان في مسجد رسول الله ﷺ جذع في قبلته يقوم إليه رسول الله ﷺ في خطبته، فلما وضع المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار حتى نزل رسول الله ﷺ فوضع يده عليه» رواه البخاري في كتاب الجمعة باب الخطبة على المنبر ح٩١٨ (٢/ ٤٦١).

(٤) المفهم (٦/ ٥١) بتصرف يسير.

(٥) سورة فاطر، الآية: ٣٨.

(٦) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

حياته ﷺ ومنه ما حدث بعد ذلك، ومنه ما سيأتي. فمنها إخباره ﷺ أن أمره سيظهر وهو يومئذ بمكة بضيق ومحاصرة[١].

قال القرطبي في هذا الخبر: «وهذا من إخباره بالغيب، فهو داخل في باب دلالات نبوته، فإنه أخبر عن غيب وقع على نحو ما أخبر عنه»[٢].

وعند قوله ﷺ عن الخوارج: «**يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان**»[٣].

قال القرطبي: «هذا منه ﷺ إخبارٌ عن أمر غيب وقع على نحو ما أخبر عنه، فكان من أدلة نبوته ﷺ، وذلك أنهم لما حكموا بكفر من خرجوا عليه من المسلمين استباحوا دماءهم، وتركوا أهل الذمة وقالوا: نفي لهم بذمتهم، وعدلوا عن قتال المشركين، واشتغلوا بقتال المسلمين»[٤].

وعند إخباره ﷺ بفتح اليمن والشام والعراق[٥]. قال القرطبي: «وهذا الحديث من دلائل نبوته وصدقه ﷺ فإنه أخبر بوقوع أمور قبل وقوعها، ثم وقعت بعد ذلك على نحو خبره، فكان ذلك دليلاً على صدقه»[٦].

وهذا في السنة كثير يصعب حصره، وقد بيَّن القرطبي عند شرحه لأمثال هذه الأحاديث المخبرة ببعض أمور الغيب التي وقعت كما أخبر بها ﷺ أن هذا من دلائل نبوته، وعلامات صدق رسالته، فقد قال عند ذكر أحد هذه الأخبار: «هذا من المعجزات الغيبية وهي من الكثرة بحيث لا تحصى، يحصل بمجموعها العلم القطعي بأن النبي ﷺ كان يعلم كثيرًا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلاَّ الله، أو من ارتضاه من الرسل، فأطلعه الله عليه،

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب إسلام عمرو بن عبسة ح٨٣٢ (٦/ ٣٦٢).
(٢) المفهم (٢/ ٤٦١).
(٣) سبق تخريجه ص(٣٩٨).
(٤) المفهم (٣/ ١١٤).
(٥) رواه البخاري في كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة ح١٨٧٥ (٤/ ١٠٧)، ومسلم في كتاب الحج، باب الترغيب في المدينة عند فتح الأمصار ح١٣٨٨ (٩/ ١٦٧).
(٦) المفهم (٣/ ٥٠٠).

والنبي ﷺ قد أطلعه الله عليه فهو رسول من أفضل الرسل[(١)]»[(٢)].

٧ ـ تكثير الطعام والشراب:

وقد وقع من ذلك كثير، منها ما جاء في حديث إياس بن سلمة عن أبيه، قال: **خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فأصابنا جهد، حتى هممنا أن ننحر بعض دوابنا، فأمر نبي الله ﷺ فجمعنا أزوادنا، فبسطنا له نطعًا، فاجتمع زاد القوم على النطع، قال: فتطاولت لأحزره[(٣)] كم هو، فحزرته كربضة العنز، ونحن أربع عشرة مئة، قال: فأكلنا حتى شبعنا جميعًا، ثم حشونا جربنا، فقال نبي الله ﷺ: «فهل من وضوء؟» فجاء رجل بإداوة فيها نطفة، فأفرغها في قدح فتوضأنا كلنا نُدَغْفِقُهُ دغفقةً[(٤)] أربع عشرة مئة»**[(٥)].

قال القرطبي في شرحه لهذا الحديث: «هذا الحديث قد اشتمل على معجزتين من معجزات النبي ﷺ في الطعام والشراب، وقد وقع ذلك منه مراتٍ كثيرة، ورُوي من طرق عديدة، ووقع منه في جموع كثيرة، ومشاهد عظيمة، فهي من معجزاته المتواترة وكراماته المتظاهرة»[(٦)].

وقال المازري عند شرحه لهذا الحديث: «هذا أحد معجزاته ﷺ تكثير الماء، وتكثير الطعام، والباري سبحانه قادرٌ على خرق العادات، فيمكن أن يكون كلما أكل منه جزء خلق الباري ـ جلت قدرته ـ جزءًا آخر يخلفه، وكذلك في الماء.

ومعجزات النبي ﷺ ضروب: فأما القرآن فمنقول تواترًا، أما مثل هذه المعجزة فلك فيها طريقان:

أحدهما: أن نقول تواترت على المعنى كتواتر جود حاتم، وحلم الأحنف،

---

(١) المفهم (٦/٥٨).

(٢) انظر: المفهم (٢/١٢٠، ١٣٣، ٣/٦١٧، ٦٢٧، ٦٨٣، ٧٥٤، ٧٦٠، ٤/٥٨، ٥٤٧، ٥/٣٠٩، ٤٠٣، ٦/٢٧٤، ٢٩١، ٢٩٦، ٤١٥، ٤٤٣، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٦، ٥٧٢، ٧٠٥، ٧/٢١٧).

(٣) أي: لأعلم مقداره.

(٤) أي: نأخذ منه ونصب على أيدينا صبًّا شديدًا .

(٥) رواه مسلم في كتاب اللقطة، باب استحباب خلط الأزواد إذا قلت ح١٧٢٩(١٢/٢٧٦).

(٦) المفهم (٥/٢٠٣)، وانظر: المفهم (٢/٣٢١، ٥/٣٠٨، ٦/٥٦).

فإنه لا تنقل قصة بعينها في ذلك تواترًا ولكن تكاثرت القصص من جهة الآحاد حتى صار محصولها التواتر بالكرم والحلم، وكذلك تواترت معجزات سوى القرآن حتى ثبت انخراق العادة له ﷺ بغير القرآن.

والطريق الثانية: أن نقول فإن الصاحب إذا روى مثل هذا الأمر العجيب وأحال على حضوره فيه مع سائر الصحابة وهم يسمعون روايته ودعواه حضورهم معه، ولا ينكرون ذلك عليه، فإن ذلك تصديق له يوجب العلم بصحة ما قال»[١].

وقد أشار أيضًا إلى هذه المعجزة، والتي قبلها عند شرحه لحديث أبي قتادة حيث توضأ ﷺ في أحد الغزوات من ميضأة أبي قتادة، ثم أمره أن يحتفظ بها؛ وأخبره ﷺ أنه سيكون لها نبأ، ثم طلبها منه ﷺ لما عطش الناس، وفُقِدَ الماء، فجعل رسول الله ﷺ يصب وأبوقتادة يسقيهم حتى شربوا وتوضؤوا جميعًا[٢]. حيث قال: «هذا فيه للنبي ﷺ معجزتان: قولية وفعلية، فالقولية: إخباره عليه السلام بالغيب، وأنها سيكون لها نبأ، والفعلية: تكثير الماء القليل»[٣].

٨ ـ نبع الماء من بين أصابعه:

وهي من دلائل نبوته التي شاهدها الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في أكثر من موضع، حيث جاء في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: **رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء، فلم يجدوه، فأُتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناسُ حتى توضؤوا من عند آخرهم»**[٤].

---

(١) المعلم (٢/ ٢٧١).

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد، ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة ح٦٨٠ (٥/ ١٨٨).

(٣) المعلم (١/ ٢٩٥).

(٤) رواه البخاري في كتاب الوضوء، باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة ح١٦٩ (١/ ٣٢٥)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ ح٢٢٧٩ (١٥/ ٤٤).

قال القرطبي عند شرحه لهذا الحديث: «هذه المعجزة تكررت من النبي ﷺ مرات عديدة، في مشاهد عظيمة، وجموع كثيرة، بلغتنا بطرق صحيحة من رواية أنس، وعبدالله بن مسعود، وجابر، وعمران بن حصين، وغيرهم، ممن يحصل بمجموع أخبارهم العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، وبهذا الطريق: حصل لنا العلم بأكثر معجزاته الدالة على صدق رسالاته، كما قد ذكرنا جملة من ذلك في كتاب «الإعلام» وهذه المعجزة أبلغ من معجزة موسى عليه السلام في نبع الماء من الحجر من ضربه بالعصا إذ من المألوف نبع الماء من بعض الحجارة فأما نبعه من بين عظم ولحم وعصب ودم فشيء لم يسمع بمثله ولا تُحُدِّث به عن غيره»[١].

٩ ـ رمي الكفار بالتراب وإصابتهم جميعًا:

جاء في حديث العباس بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ في ذكر غزوة حنين قال: **ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهَزَمُوا وربِّ محمد» قال: فذهبت انظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى قال: فوالله ما هو إلَّا أن رماهم بحصياته فمازلت أرى أحدهم كليلاً وأمرهم مدبرًا»**[٢].

قال القرطبي في شرحه لهذا الحديث: «رميه ﷺ في وجوه الكفار بالتراب، وإصابته أعين جميعهم من أعظم معجزاته، إذ ليس في قوة البشر إيصال ذلك إلى أعينهم، ولا يسع كفه ما يعمهم، وإنما كان ذلك من صنع الله لنبيه ﷺ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٣]»[٤]

١٠ ـ إجابة دعواته:

إن من دلائل نبوته ﷺ استجابة دعائه فكان عليه الصلاة والسلام إذا دعا استجاب الله تعالى له، وقد وقع ذلك كثيرًا، وجاءت السنة به، فمنها: دعوته عليه الصلاة والسلام على أبي جهل وعتبة، وشيبة، ومن معهم، عند

---

(١) المفهم (٦/ ٥٢)، وانظر أيضًا: (٦/ ٨٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين ح١٧٧٥ (١٢/ ٣٥٥).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(٤) المفهم (٣/ ٦١٧).

اشتداد أذاهم، فصرعوا في بدر جميع الذين سمَّاهم ﷺ[١].

قال القرطبي عند شرحه لهذا الحديث: «وإجابة الله تعالى لنبيه ﷺ في مثل هذا الدعاء من أدلة نبوته وصحتها»[٢].

وقد بيَّن القرطبي في عدة مواضع عند ذكر أمثال هذا الحديث. أن استجابة دعوته ـ عليه الصلاة والسلام ـ من دلائل نبوته[٣].

وقال في موضع آخر: «هذه من بعض دعوات النبي ﷺ المعجلة الإجابة، وهي من الكثرة بحيث تفوق الحصر، ويحصل بمجموعها القطع، بأن الله تعالى قد أكرم محمدًا ﷺ بإجابة دعواته، وأسعفه في كثير من طلباته، وكل ذلك يدل على مكانته وصدق رسالته»[٤].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الوضوء باب إذا وضع على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته ح٢٤٠ (١/ ٤١٦)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ح١٧٩٤ (١٢/ ٣٩٣).

(٢) المفهم (٣/ ٦٥٤).

(٣) انظر: المفهم (٢/ ٥٤٦، ٣/ ٣٩٤، ٤/ ٥٥٠، ٥/ ٢٩٧، ٣٣٤، ٦/ ٤٠٤).

(٤) المفهم (٦/ ٦٨).

المبحث الثالث
عصمة الأنبياء

أرسل الله سبحانه وتعالى إلى الناس رسلاً منهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[١]. وقد بيَّن الرسل عليهم السلام لأقوامهم أنهم من البشر، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[٢]. فهم من البشر، لكن الله تعالى منَّ عليهم فجعلهم خير البشر، ووضعهم في المكانة العليا من الكمال البشري، فحفظهم تعالى مما لا يليق بمكانتهم، ولا يتناسب مع رسالتهم. وهذا لا يتنافى مع بشريتهم التي بمقتضاها يحتاجون إلى الطعام والشراب، ويصيبهم ما يصيب البشر من الأمراض والأسقام والابتلاء والموت، قال القرطبي: «الأنبياء من البشر يجوز عليهم من الأمراض والآلام، والغضب، والضجر، والعجز، والسحر، والعين، وغير ذلك ما يجوز على البشر»[٣].

وقال المازري: «النبي ﷺ معصوم من أن يكذب على الله، أو يفسد ما يبلغه عنه، وهو مع هذا غير معصوم من الأمراض، وما يكون من بعض عوارضها، ممالايعود بنقص في منزلته، ولا فساد فيما مهد من شريعته»[٤].

أما بالنسبة لعصمة الأنبياء: فالإجماع قد انعقد على عصمتهم ـ عليهم السلام ـ من الكذب أو الخطأ في التبليغ. قال ابن تيمية: «فالأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه»[٥].

فلا خلاف في عصمتهم في تحمل الرسالة والتبليغ عن الله تعالى فلا ينسون شيئًا مما أوحاه الله إليهم، ولا يكتمون شيئًا، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١١.
(٣) المفهم (٥/ ٥٧٠).
(٤) المعلم (٢/ ٢٣٤).
(٥) الفتاوى (١٠/ ٢٨٩).

ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[(٢)].

قال الشنقيطي: «واعلم أن جميع العلماء أجمعوا على عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في كل ما يتعلق بالتبليغ»[(٣)].

قال القرطبي: «الأنبياء معصومون عما يناقض دلالة المعجزة من معرفة الله تعالى، والصدق والعصمة عن الغلط في التبليغ، وعن هذا المعنى عبر الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[(٤)] من حيث البشرية: يَجوز عليهم ما يجوز عليهم ومن حيث الخاصية النبوية: امتاز عنهم وهو الذي شهد له العلي الأعلى بأن بصره مازاغ وما طغى وبأن فؤاده ما كذب ما رأى، وبأن قوله وحي يوحى وأنه ما ينطق عن الهوى»[(٥)].

وقال المازري: «الأنبياء ـ عليهم السلام ـ معصومون من الكذب فيما طريقه البلاغ عن الله سبحانه، قل ذلك أو جل؛ لأن المعجزة تدل على صدقهم في ذلك»[(٦)].

وأما المعاصي: فالكبائر لا شك أنهم في عصمة منها، وأما الصغائر التي لا تزري بمكانتهم: فقد وقع الخلاف فيها بين أهل العلم، فذهب بعض العلماء إلى عصمتهم من الصغائر؛ لأن القول بوقوعهم فيها ينافي الاقتداء بهم والأمر بمتابعتهم إذ كيف يصح متابعتهم على المعصية؟[(٧)].

وذهب عامة العلماء إلى جواز وقوع الصغائر، منهم من دون إصرار عليها، ولا ملازمة لها، وقد جاءت النصوص في إثبات وقوع ذلك من الأنبياء ومعاتبة الله تعالى لهم. قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.
(٣) أضواء البيان (٤/ ١٠٥).
(٤) سور الكهف، الآية: ١١٠.
(٥) المفهم (٥/ ٥٧٠)، وانظر: المفهم (٦/ ١٦٧).
(٦) المعلم (٣/ ١٣١).
(٧) منهم: ابن الجوزي والحافظ ابن حجر وغيرهما. انظر: فتح الباري (١١/ ١٠٥).

رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[١] وموسى ـ عليه السلام ـ لما قتل القبطي، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾[٢]، وداود عليه السلام قال الله تعالى عنه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾[٣] ففي مسارعتهم إلى التوبة وإنابتهم إلى ربهم زيادة في حسناتهم، ورفعة في درجاتهم.

وأما القول بأن الوقوع في الصغائر يقدح بالتأسي فليس بصحيح، إذ التأسي يكون فيما يُقرّون عليه، كما أن النسخ جائز فيما يبلغون من الأمر والنهي، وليس تجويز ذلك مانعًا من وجوب الطاعة؛ لأن الطاعة تجب فيما لم ينسخ، فعدم النسخ يقرر الحكم، وعدم الإنكار يقرر الفعل، والأصل عدم كل منهما[٤].

وقد جعل شيخ الإسلام هذا القول أحد قولين متطرفين في مسألة العصمة، حيث قال: «واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه: قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب، حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب ومغفرة الله لهم ورفع درجاتهم بذلك، وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دلَّ القرآن على براءتهم منه وأضافوا إليهم ذنوبًا وعيوبًا نزههم الله عنها، وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط مهتديًا إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[٥].

فالقول الوسط في هذه المسألة هو أن الصغائر يجوز وقوعها من

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.
(٢) سورة القصص، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٢٤، ٢٥.
(٤) الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ١٤٨، ١٠/ ٢٩٣).
(٥) الفتاوى (١٥/ ١٥٠).

الأنبياء، ولكنهم لا يُقرّون عليها، ويسارعون بالتوبة منها، ولذا لم يذكر الله تعالى عن نبي شيئًا من ذلك إلاَّ مقرونًا بالتوبة منه، وتوبة الله عليه.

وهذا ما ذهب إليه القرطبي حيث قال: «اختلف الناس في عصمة الأنبياء من الذنوب اختلافًا كثيرًا، والذي ينبغي أن يقال: إن الأنبياء معصومون مما يناقض مدلول المعجزة عقلاً، كالكفر بالله تعالى والكذب عليه، والتحريف في التبليغ والخطأ فيه، ومعصومون من الكبائر، وعن الصغائر التي تزري بفاعلها، وتحط منزلته، وتسقط مروءته إجماعًا... واختلف أئمتنا في وقوع الصغائر منهم، فمن قائل: بالوقوع ومن قائل: بمنع ذلك، والقول الوسط في ذلك: أن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصلوا منها، واستغفروا وتابوا وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا تقبل التأويلات بجملتها، وإن قبل ذلك آحادها لكن الذي ينبغي أن يقال: إن الذي أضيف إليهم من الذنوب ليس من قبيل الكبائر، ولا مما يزري بمناصبهم على ما تقدم ولا كثر منهم وقوع ذلك، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم، وعوتبوا عليها يخف أمرها بالنسبة إلى غيرهم، وإنما عُدِّدَتْ عليهم، وعوتبوا عليها بالنسبة إلى مناصبهم وعلو أقدارهم... فهم وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح ذلك في رتبتهم، بل قد تلافاهم واجتباهم وهداهم، ومدحهم وزكَّاهم، واختارهم، واصطفاهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلى يوم الدين، والكلام على هذه المسألة تفصيلاً يستدعي تطويلاً، وفيما ذكرناه كفاية والله الموفق للهداية[١].

وقال المازري: «أما الكبائر: فهو ـ عليه السلام ـ معصوم منها إجماعًا، وأما الصغائر: فإن المجيزين لوقوعها من الرسل يمنعون أن تضاف إليه ﷺ على جهة الانتقاص[٢].

---

(١) المفهم (١/ ٤٣٤، ٤٣٥).
(٢) المعلم (٢/ ٢٤).

المبحث الرابع
خصائص نبينا محمد ﷺ

لقد منَّ الله تعالى علينا إذ جعلنا من أمة هذا النبي الكريم الذي كمله ربه تعالى بالخصال الحميدة، وخصَّه بالصفات الجميلة والمناقب الفريدة، والمقامات المحمودة التي لم تكن لما سواه من المرسلين فضلاً عن سائر الخلق أجمعين. «فالله سبحانه قد خصَّ نبينا ﷺ من كرم الخُلُق ومن طيب النفس، ومن مقام الفتوة بما لم يخص به أحدًا غيره، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1] وبقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[2]»[3].

وأكرمه سبحانه وتعالى بكمال معرفته وشدة خشيته فصار به ﷺ في المقام الأعلى.

قال القرطبي: «إنما كان النبي ﷺ أعلم الناس بالله، لما خصه الله تعالى به في أصل الخلقة، من كمال الفطنة وجودة القريحة، وسداد النظر وسرعة الإدراك، ولما رفع الله عنه من موانع الإدراك، وقواطع النظر قبل تمامه، ومن اجتمعت له هذه الأمور، سهل عليه الوصول إلى العلوم النظرية، وصارت في حقه كالضرورية، ثم إن الله تعالى قد أطلعه من علم صفاته، وأحكامه وأحوال العالم كله ما لم يُطْلع عليه غيره وهذا كله معلوم من حاله ﷺ بالعقل الصريح والنقل الصحيح، وإذا كان في علمه بالله تعالى أعلم الناس لزم أن يكون أخشى الناس لله تعالى لأن الخشية منبعثة عن العلم وبحسبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[4]»[5].

وهذه المقامات له ﷺ لا تستغرب إذا عُلم أن الله تعالى اصطفاه

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٣) المفهم (١/ ٤٥٥).
(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٥) المفهم (٦/ ١٥٠).

وجعله مختارًا من خيار الناس، كما قال ﷺ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[(١)].

قال القرطبي: «﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[(٢)] قد اصطفى الله تعالى من هذا الجنس الحيواني نوع بني آدم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾[(٣)] يكفيك من ذلك كله: أن الله تعالى خلق العالم كله لأجله، كما صرح بذلك عنه لما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾[(٤)] ثم إن الله تعالى اختار من هذا النوع الإنساني من جعله معدن نبوته، ومحل رسالته، فأولهم آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم إن الله اختار من نطفته نطفة كريمة، فلم يزل ينقلها من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة فكان منها الأنبياء والرسل كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾[(٥)] ثم إن الله تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وإسحاق، كما قال: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[(٦)] ثم إن الله تعالى اصطفى من ولد إسماعيل كنانة كما ذكرهم النبي ﷺ في هذا الحديث ثم إن الله تعالى ختمهم بختامهم وأمّهم بإمامهم وشرفهم بصدر كتيبتهم، وبيت قصيدهم شمس ضحاها هلال ليلتها در تقاصيرها[(٧)] زبرجدها وهو محمد ﷺ أخّره عن الأنبياء زمانًا، وقدّمه عليهم رتبة ومكانًا جعله الله واسطة النظام وكمل بكماله أولئك الملأ الكرام وخصّه من بينهم بالمقام

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ ح٢٢٧٦ (١٥/ ٤١).

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٨.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٤) سورة الجاثية، الآية: ١٣.

(٥) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٣، ٣٤.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

(٧) جمع تقصارة وهي: القلادة انظر: لسان العرب (٥/ ١٠٢).

المحمود في اليوم المشهود»[١].

«فالله تعالى قد حمده بما لم يحمد به أحدًا من الخلق وأعطاه من المحامد ما لم يعط مثله أحدًا من الخلق ويلهمه يوم القيامة من محامده، ما لم يلهمه أحدًا من الخلق، وقد حمده أهل السموات والأرض والدنيا والآخرة»[٢]. نسأل الله تعالى أن يميتنا على ملته ويحشرنا في زمرته. وأذكر هنا خصائصه ﷺ بالتفصيل التي ذكرها القرطبي أو المازري وهي كما يلي:

١ ـ خاتم الأنبياء:

لقد بعث الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٣]، وما من أمة إلاَّ بعث فيها رسول، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[٤]. ولذا تتابع الرسل ـ عليهم السلام ـ واحدًا بعد الآخر، حتى ختمهم الله جلَّ وعلا بصفوة خلقه، وأفضل رسله، فجعل من خصائص هذا النبي الكريم أنه آخر الرسل، كما قال ﷺ: «**مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها، إلاَّ موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع اللبنة! فأنا موضع اللبنة جئت فختمتُ الأنبياء**»[٥].

قال القرطبي في شرح هذا الحديث: «مقصود هذا المثل أن يبين به ﷺ أن الله ختم به النبيين والمرسلين، وتمم به ما سبق في علمه إظهاره من مكارم الأخلاق وشرائع الإسلام، فيه كَمُلَ النظام، وهو ختمُ الأنبياء والرسل الكرام صلى الله عليه وعلى آله أفضل صلاة وسلم عليه أبلغ سلام»[٦].

---

(١) المفهم (٦/ ٤٧).
(٢) المفهم (٦/ ١٤٥).
(٣) سورة النساء، الآية: ١٦٥.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٤.
(٥) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ ح٣٥٣٤ (٦/ ٦٤٥)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ح٢٢٨٧ (١٥/ ٥٧).
(٦) المفهم (٦/ ٨٨).

ولذا انقطعت النبوة بعده ﷺ كما قال عليه السلام: «**إنه لا نبي بعدي**»[١] قال القرطبي: «هذا النفي عام في الأنبياء والرسل؛ لأن الرسول نبي وزيادة، وقد جاء نصًّا في كتاب الترمذي قوله: «**لا نبي بعدي ولا رسول**»[٢] وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[٣] ومن أسمائه في الكتب القديمة وفيما أطلقته هذه الأمة: خاتم الأنبياء، ومما سمى به نفسه: العاقب، والمقفي، فالعاقب: الذي يعقبُ الأنبياء، والمقفي: الذي يقفوهم أي: يكون بعدهم، وعلى الجملة: هو أمر مجمع عليه معلوم من دين هذه الأمة، فمن ادعى أن بعده نبيًّا أو رسولاً، فإن كان مُسرًّا لذلك واطُّلع بالشهادة المعتبرة قُتِلَ قَتْلَة زنديق، فإن صرَّح بذلك فهو مرتد يستتاب، فإن تاب وإلاَّ قُتِل قتلة مرتد»[٤].

٢ ـ الشفاعة:

من الخصائص التي أُكرم بها ﷺ وخُص بها دون الرسل ـ عليهم السلام ـ الشفاعة العامة لأهل المحشر يوم القيامة، وقد جاء إثباتها في الحديث الطويل الذي جاء فيه قوله ﷺ: «**أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون بم ذلك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم، فيأتون آدم ـ ثم ذكر مجيئهم لآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وكلهم يعتذر حتى قال: فيأتوني فيقولون: يا محمد! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وغفر الله لك ما**

---

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ح٣٤٥٥ (٦/ ٥٧١)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول ح١٨٤٢ (١٢/ ٤٧٣).

(٢) رواه الترمذي في أبواب الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات، وقال: حديث حسن صحيح غريب وصحح إسناده الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٥٨).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٤) المفهم (٤/ ٤٨).

تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي، ثم يفتح الله عليَّ، ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد! ارفع رأسك سل تعطه اشفع تشفع»(١).

قال القرطبي: «محمد ﷺ أخَّره عن الأنبياء زمانًا وقدَّمه رتبةً ومكانًا جعله الله واسطة النظام وكمل بكماله أولئك الملأ الكرام، وخصه من بينهم بالمقام المحمود في اليوم المشهود، فهو شفيعهم إذا استشفعوا، وقائدهم إذا وفدوا، وخطيبهم إذا جمعوا وسيدهم إذا ذكروا... الناس كلهم إذا جمعهم موقف القيامة، وطال عليهم، وعظم كربهم، طلبوا من يشفع لهم إلى الله تعالى في إراحتهم من موقفهم، فيبدؤون بآدم ـ عليه السلام ـ فيسألونه الشفاعة فيقول: نفسي نفسي لست لها وهكذا يقول من سُئلها من الأنبياء حتى ينتهي الأمر إلى سيدنا محمد ﷺ فيقول: «**أنا لها**» فيقوم في أرفع مقام ويخص بما لا يحصى من المعارف والإلهام وينادى بألطف خطاب وأعظم إكرام: يا محمد! قل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع وهذا مقام لم ينله أحد من الأنام ولا سمع بمثله لأحد من الملائكة الكرام»(٢).

هذا في شفاعته العامة لأهل المحشر إذ لا شافع في هذا المقام غيره ومن خصائصه أيضًا فيما يتعلق بالشفاعة أنه أول شافع يوم القيامة في الشفاعات الأخرى غير العامة وقد قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع**»(٣).

قال القرطبي في شرح هذا الحديث: «مقصود هذا الحديث أن يبين أنه لا يتقدمه شافع، لا من الملائكة ولا من النبيين، ولا من المؤمنين في

---

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ح٣٣٤٠ (٦/ ٤٢٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة ح١٩٤ (٣/ ٦٦).

(٢) المفهم (٦/ ٤٧).

(٣) سبق تخريجه ص (٥١٩).

جميع أقسام الشفاعات، على أن الشفاعة العامة لأهل الموقف خاصة لا تكون لغيره. وهذه المنزلة أعظم المراتب وأشرف المناقب»(١).

٣ ـ الوسيلة :

ومما خص الله تعالى به نبينا ﷺ الوسيلة وهي: منزلة رفيعة في الجنة، قال ﷺ: «**واسألوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاَّ لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو**»(٢).

قال القرطبي: «قوله: «**وأرجو أن أكون أنا هو**» قال هذا ﷺ قبل أن يبان له أنه صاحبها، إذ قد أخبر أنه يقوم مقامًا لا يقومه أحد غيره، ويحمد الله محامد لم يُلهمها أحد غيره»(٣).

٤ ـ الكوثر:

وهو الحوض المورود، الذي خص الله تعالى به نبينا محمدًا ﷺ في ذلك اليوم العظيم ـ وسيأتي تفصيل ذلك ـ فهو من خصائصه التي لم تكن لغيره.

قال القرطبي: «إن الله تعالى قد خصَّ نبيه محمدًا ﷺ بالكوثر، الذي هو الحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه وآنيته في الأحاديث الكثيرة الصحيحة الشهيرة»(٤).

ومن خصائصه ما جاء في قوله ﷺ: «**أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي. كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود. وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض طيبة طهورًا ومسجدًا، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة**»(٥).

---

(١) المفهم (٦/ ٤٩).

(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل له الوسيلة ح٣٨٤ (٤/ ٣٢٨).

(٣) المفهم (٢/ ١٣).

(٤) المفهم (٦/ ٩٠).

(٥) رواه البخاري في كتاب التيمم ح٣٣٥ (١/ ٥١٩)، ومسلم في كتاب المساجد، =

وقد جاء في بعض الأحاديث: «**أعطيت ثلاثًا**» وجاء في حديث آخر: «**أعطيت ستًّا**» وقد بيَّن القرطبي أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث، فقال: «لا يظن القاصد[1] أن هذا تعارض، وإنما يظن هذا من توهم أن ذكر الأعداد يدل على الحصر، وأنها لها دليل خطاب، وكل ذلك باطل، فإن القائل عندي خمسة دنانير ـ مثلاً ـ لا يدل هذا اللفظ على أنه ليس عنده غيرها، ويجوز له أن يقول تارة أخرى: عندي عشرون، وتارة أخرى: عندي ثلاثون، فإن من عنده ثلاثون صدق عليه أن عنده عشرين وعشرة، فلا تناقض ولا تعارض، ويجوز أن يكون النبي ﷺ أُعلِم في وقت بالثلاث، وفي وقت بالخمس، وفي وقت بالست، والله تعالى أعلم»[2].

وقد بيَّن القرطبي أن هذه المذكورات من الخصائص التي تميز بها ﷺ عن غيره من المرسلين، فقال: «قوله: «**وبعثت إلى الأحمر والأسود**» يعني كافة الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[3]. وقوله: «**جعلت لي الأرض طيبة طهورًا ومسجدًا**» وهذا مما خصَّ الله به نبيه ﷺ، وكانت الأنبياء قبله إنما أبيح لهم الصلاة في مواضع مخصوصة، كالبيَعِ والكنائس. وقوله: «**وأُحلت لي الغنائم**» هذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام، وإنما كانت الغنائم قبله تجمع، ثم تأتي نار من السماء فتأكلها. و«**الرعب**» الفزع، والشفاعة الخاصة بالنبي ﷺ هي الشفاعة لأهل الموقف كما تقدم»[4].

وقال المازري في شرحه لهذا الحديث: «**قوله: «مسجدًا»** قيل: إن من كان قبله إنما أبيح لهم الصلاة في مواضع مخصوصة، كالبيع والكنائس، وقوله: «**وأحلت لي الغنائم**» هو من خصائصه ﷺ وكان من قبله لا تحل لهم الغنائم بل كانت تجمع ثم تأتي نار من السماء

= ومواضع الصلاة ح٥٢١ (٥/٦).

(١) هكذا في الأصل ولعلها: القاصر.

(٢) المفهم (٢/ ١١٥).

(٣) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٤) المفهم (٢/ ١١٦).

فتأكلها»[١].

٥ ـ أول من ينشق عنه القبر:

وهي من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر**»[٢].

قال القرطبي في شرح هذا الحديث: «يعني: أنه أول من يعجل إحياؤه مبالغة في إكرامه وتخصيصًا له بتعجيل جزيل إنعامه»[٣].

٦ ـ أنه نبي التوبة والرحمة:

وقد جاء هذا في قوله ﷺ: «**أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة**»[٤].

كل نبي جاء بالتوبة والرحمة ولا شك ولكن ذكر هذا من النبي ﷺ يدل على اختصاص لم يكن لغيره فيرجع هذا إلى المعنى، وقد قال القرطبي عند شرحه لهذا الحديث: «أي: الذي تكثر التوبة في أمته وتعم حتى لا يوجد فيما ملكته أمته إلاَّ تائب من الكفر... ويحتمل أن يكون معناه: أن أمته لما كانت أكثر الأمم كانت توبتهم أكثر من توبة غيرهم ويحتمل أن تكون توبة أمته أبلغ حتى يكون التائب منهم كمن لم يذنب ولا يؤاخذ لا في الدنيا ولا في الآخرة، ويكون غيرهم يؤاخذ في الدنيا، وإن لم يؤاخذ في الآخرة، والله أعلم. والذي أحوج إلى هذه الأوجه: اختصاص نبينا ﷺ بهذا الاسم مع أن كل نبي جاء بتوبة أمته فيصدق أنه نبي التوبة فلابد من إبداء مزية لنبينا يختص بها كما بيَّنا، وقوله: «ونبي الرحمة» والرحمة إفاضة النعم على المحتاجين والشفقة عليهم واللطف بهم، وقد أعطى الله نبينا ﷺ وأمته منها ما لم يعطه أحدًا من العالمين، ويكفي من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[٥] فهو أعظم كل رحمة وأمته القابلة لما جاء

---

(١) المعلم (١/ ٢٧٢).

(٢) سبق تخريجه ص(٥١٩).

(٣) المفهم (٦/ ٤٨).

(٤) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ ح٢٣٥٥ (١٥/ ١١٤).

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

به قد حصلت على أعظم حظ من هذه الرحمة وشفاعته يوم القيامة لأهل الموقف أعم كل رحمة ولأهل الكبائر أجل كل نعمة وخاتمة ذلك شفاعته في ترفيع منازل أهل الجنة»(١).

وبالجملة فخصائصه ﷺ كثيرة، سواء فيما أعطاه الله تعالى في الدنيا، أو ما جعله له تعالى في الآخرة من المواقف المحمودة، والمقامات الفاضلة، مع ما خص به تعالى أمته، وأكرمها إذ جعلها خير الأمم، وأكثر أهل الجنة. كل ذلك جاءنا من خبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاَّ وحي يوحى.

قال القرطبي: «وهذه الخصائص والفضائل التي حدث بها النبي ﷺ عن نفسه، إنما كان ذلك منه؛ لأنها من جملة ما أُمر بتبليغه؛ لما يترتب عليها من وجوب اعتقاد ذلك، وأنه حق في نفسه وليُرغِّب في الدخول في دينه وليتمسك به من دخل فيه وليعلم قدر نعمة الله عليه في أن جعله من أمة من هذا حاله، ولتعظم محبته في قلوب متبعيه، فتكثر أعمالهم، وتطيب أحوالهم، فيحشرون في زمرته، وينالون الحظ الأكبر من كرامته، وعلى الجملة فيحصل بذلك شرف الدنيا وشرف الآخرة؛ لأن شرف المتبوع متعدٍّ لشرف التابع على كل حال»(٢).

---

(١) المفهم (٦/ ١٤٧).

(٢) المفهم (٦/ ٤٩).

المبحث الخامس

الإيمان بالملائكة والجن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: **الإيمان بالملائكة**

المطلب الثاني: **الإيمان بالجن**

المطلب الأول : الإيمان بالملائكة :

الملائكة هم رسل الله تعالى إلى خلقه، فهم عباده المكرمون الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾[1]، وقد تكلم القرطبي عن الملائكة في مواضع من المفهم أفصِّلها في النقاط التالية:

١ ـ تعريف الملائكة :

قال القرطبي في تعريف الملائكة: الملائكة؛ جمع ملك، وقد اختلف في اشتقاقه ووزنه فقال ابن شميل: لا اشتقاق له، وقال ابن كيسان: وزنه: فعل من الملك، وقال أبوعبيد: هو مفعل من: لأك، أي: أرسل، وقال غيره: إنه مأخوذ من الألوكة، وهي الرسالة، فكأنها تؤلك في الفم، قال لبيد:

وغُـــلامٍ أَرسَلَتْـــهُ أُمُّـــهُ   بألُوكٍ فَبَذَلنَا ما سأل[2]

فأصله على هذا: مَألُكُ فالهمزة فاء الفعل، لكنهم قلبوها إلى عينه، فقالوا: ملأك، ثم سهلوه فقالوا: ملاك، وقدجاء على أصله في الشعر قال:

فَلَسْتَ لإنْسِيٍّ ولكنْ لملأكٍ   تَنَزَّلَ من جوالسماء يَصُوبُ[3]

وقيل: هو مَلْك من مَلَك نحو: شمل من شَمَل[4].

٢ ـ الإيمان بالملائكة :

الإيمان بالملائكة هو أحد أركان الإيمان، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[5]، وقال ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[6]. قال القرطبي عند

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة ص(١٤٠).

(٣) البيت للشاعر الجاهلي: رويشد بن كثير الطائي. انظر: شعر طيء وأخبارها في الجاهلية والإسلام (٢/٣٩٦).

(٤) المفهم (١/١٤٧).

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٦) سبق تخريجه ص(١٠٦).

شرحه لهذا الحديث: «الإيمان بالملائكة: هو التصديق بأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾[(١)]، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾[(٢)]، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾[(٣)] وأنهم سفراء بينه وبين رسله والمتصرفون كما أذن لهم في خلقه»[(٤)].

٣ ـ صفاتهم:

لقد بين ﷺ مادة خلقهم فقال: «**خلقت الملائكة من نور وخلق الجانُّ من مارج من نار وآدم مما وصف لكم**»[(٥)].

قال القرطبي: «قوله «**خلقت الملائكة من نور**» أي: من جواهر مضيئة فكانوا خيرًا محضًا»[(٦)].

وقد جعل الله تعالى للملائكة أجنحة على اختلاف بينهم في عدد الأجنحة كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[(٧)] قال القرطبي: «المراد: أن الله تعالى خلق الملائكة أصنافًا، فمنهم صنف جعل لكل واحد منهم جناحين ومنهم صنف جعل لكل واحد منهم ثلاثة، وصنف جعل لكل واحد منهم أربعة»[(٨)].

وهم مع عظيم خلقهم لهم قدرة على التشكل بغير صورهم التي خلقهم الله عليها، كما أرسل تعالى جبريل ـ عليه السلام ـ إلى مريم في صورة بشر، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾[(٩)].

وكما سبق في حديث جبريل عندما جاء إلى الرسول ﷺ وسأله عن

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.
(٤) المفهم (١/ ١٤٤).
(٥) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة ح٢٩٩٦ (١٨/ ٣٣٣).
(٦) المفهم (٧/ ٣١٥).
(٧) سورة فاطر، الآية ١.
(٨) انظر: المفهم (٧/ ٣٢٧، ٣٢٨).
(٩) سورة مريم، الآية: ١٧.

الإسلام والإيمان والإحسان في حضور الصحابة، وكان على صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر.

وقد قال القرطبي عند شرحه لهذا الحديث: «قوله: «إنه جبريل» دليل على أن الله تعالى مكن الملائكة من أن يتمثلوا فيما شاؤوا من صور بني آدم، كما قد نصَّ الله تعالى على ذلك في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وقد كان جبريل يتمثل للنبي ﷺ في صورة دحية بن خليفة(١) وقد كان لجبريل صورة خاصة خلق عليها لم يره النبي ﷺ عليها سوى مرتين»(٢).

وقال في موضع آخر: «إن الله تعالى قد مكن الملائكة والجن من التشكل في الصور المختلفة والتمثيل بها مع أن للنوعين في أنفسهما خِلقًا خاصة بهما خلقهما الله تعالى عليها، كما قال ﷺ: «**لم أر جبريل على صورته التي خُلق عليها غير مرتين**»(٣) والبحث عن كيفية ذلك التمثيل ليس وراءه تحصيل والواجب التصديق بما جاء من ذلك، ومن أنكر وجود الملائكة والجن وتمثُّلهم في الصور فقد كفر»(٤).

٤ ـ تفاضلهم:

الملائكة عليهم السلام متفاوتون في الرتبة والدرجة فأفضلهم جبريل عليهم السلام، وهو أعظم الملائكة وهو الذي ينزل بالوحي على الرسل عليهم السلام، قال القرطبي: سمي جبريل ـ عليه السلام ـ بالناموس لأن الله تعالى خصه بالوحي وعلم الغيب»(٥).

قال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ:

وجبـريـلُ رسُـولُ الله فينـا ... ورُوحُ القُدسِ ليس له كفاءُ(٦)

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢/ ١٠٧، ٣/ ٣٣٤، ٦/ ٩٤).

(٢) المفهم (١/ ١٥٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير باب (١) ح(٤٨٥٥) (٨/ ٤٧٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معنى قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ح١٧٧ (٣/ ١٠).

(٤) المفهم (٦/ ١٧٢).

(٥) المفهم (١/ ٣٧٩).

(٦) ديوان حسان بن ثابت (١/ ١٨) وفيه: وجبريل أمين الله فينا...

قال القرطبي: أي: لا يقاومه أحد ولا يماثله وروح القدس: هو جبريل ـ عليه السلام ـ والقدس: الطهارة»[١].

ومن الملائكة الذين فضلهم الله تعالى وقدمهم ميكائيل وإسرافيل عليهما السلام وقد كان ﷺ إذا قام من الليل يفتتح صلاته بقوله: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض...**»[٢].

قال القرطبي في شرحه لهذا الحديث: «خص هؤلاء الملائكة بالذكر تشريفًا لهم؛ إذ بهم ينتظم هذا الوجود؛ إذ قد أقامهم الله تعالى في ذلك»[٣].

ويرى القرطبي تفاضل الملائكة بعد ذلك بحسب مراتبهم في السماء، فأفضلهم حملة العرش، ثم الذين في السماء السابعة، ثم الذين في السماء السادسة، وهكذا، استنباطًا من قوله ﷺ: «**ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال فيستخبر بعض أهل السموات بعضًا حتى يبلغ الخبر إلى السماء الدنيا...**»[٤].

حيث قال في شرح هذا الحديث: «فيه دليل على أن حملة العرش أفضل الملائكة، وأعلاهم منزلة، وأن فضائل الملائكة على حسب مراتبهم في السموات... فعلوم الملائكة بالكائنات يستفيده بعضهم من بعض إلاَّ حملة العرش فإنهم يستفيدون علومهم من الحق سبحانه فهم المبدؤون بالإعلام أولاً ثم إن ملائكة كل سماء تستفيد من التي فوقها»[٥].

وأما تفاضل الملائكة وصالحي البشر فهو محل نزاع بين أهل العلم،

---

(١) المفهم (٦/ ٤٢٩).

(٢) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ح٧٧٠ (٦/ ٣٠٣).

(٣) المفهم (٢/ ٤٠٠).

(٤) رواه مسلم في كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ح٢٢٢٩ (١٤/ ٤٧٦).

(٥) المفهم (٥/ ٦٣٨).

والقرطبي ذكر المسألة، وأشار إلى الخلاف ولم يرجح، وذلك عند قوله ﷺ في الحديث القدسي فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ خير منهم**»[١]، **حيث قال: «هذا ظاهر في تفضيل الملائكة على بني آدم، وهو أحد القولين للعلماء، وللمسألة غور ليس هذا موضع ذكره»**[٢].

ومع فضل الملائكة عليهم السلام ومكانتهم إلاَّ أنهم لا يعلمون الغيب إلاَّ إذا أطلعهم الله تعالى عليه كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾[٣].

فالقرطبي عند شرحه لحديث الإسراء، وفيه: أن الملائكة عندما يستفتح جبريل ـ عليه السلام ـ كل سماء ويقول معي محمد يقولون وقد بعث إليه؟[٤]. قال: «هو استفهام من الملائكة عن بعث النبي ﷺ وإرساله إلى الخلق، وهذا يدل على أنهم لم يكن عندهم علم من وقت إرساله[٥].

وقال أيضًا: «الملائكة تستخرج ما عند الله تعالى من علم حال النطفة فتقول: يارب ما الرزق؟ ما الأجل؟ فيقضي ربك ما شاء أي: يظهر من قضائه وحكمه للملائكة ما سبق به علمه وتعلقت به إرادته فيكتب الملك من اللوح المحفوظ ثم يخرج بالصحيفة فيُطْلعُ اللهُ تعالى بسبب تلك الصحيفة من شاء من الملائكة الموكلين بأحواله على ذلك ليقوم كل بما عليه من وظيفته حسب ما سطر في صحيفته»[٦].

---

(١) سبق تخريجه ص(٤٩٨).
(٢) المفهم (٧/٧). وانظر: التفصيل في هذه المسألة في كتاب «مباحث الفاضلة في العقيدة» للدكتور محمد بن عبدالرحمن الشظيفي ص(٣٥٤).
(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٣١، ٣٢.
(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات ح١٦٢ (٢/٥٦٧).
(٥) المفهم (١/ ٣٨٩).
(٦) انظر: المفهم (٦/ ٦٥٤).

٥ ـ أعمالهم :

أ ـ العبادة :

قال تعالى عنهم: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[٢] فهم لا يسأمون ولا يتعبون من العبادة لأن الله تعالى خلقهم كذلك، أما الإنسان فلا يطيق ما يطيقون؛ لأنه كما قال تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾[٣]، قال القرطبي: «دوام الذكر وعدم الفترة من خاصية الملائكة، إذ سنة الله في العالم الإنساني أنه متوسط بين عالمي الملائكة والشياطين فمكن الملائكة في الخير بحيث يفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، ومكَّن الشياطين في الشر والإغواء بحيث لا يغفلون وجعل هذا العالم الإنساني متلونًا فيمكنه ويلونه»[٤].

ب ـ السفارة :

ومن وظائف الملائكة وأعمالهم السفارة بين الله تعالى، وبين رسله، فينزلون بالوحي على الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴾[٥] وكما قال تعالى: ﴿ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ ﴾[٦].

قال القرطبي: «السفرة: جمع سافر وهم ملائكة الوحي، سموا بذلك لأنهم يسفرون بين الله وبين خلقه»[٧].

جـ ـ حفظ أعمال بني آدم :

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾[٨]،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٥٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ٢٨.
(٤) المفهم (٧/ ٦٧، ٦٨). بتصرف
(٥) سورة عبس، الآية: ١٥، ١٦.
(٦) سورة فاطر، الآية: ١.
(٧) المفهم (٢/ ٤٢٥)، وانظر: (٦/ ١٧١).
(٨) سورة الانفطار، الآيات: ١٠-١٢.

وقال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[١]، قال القرطبي: «الحفظة ملازمةٌ للإنسان»[٢].

وعند شرحه لقوله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار**»[٣]. قال: «هؤلاء الملائكة: إن كانوا هم الحفظة فسؤال الله لهم بقوله: «كيف تركتم عبادي؟ إنما هو سؤال عما أمرهم به من حفظهم لأعمالهم وكتبهم إياها عليهم وعلى أنهم هم الحفظة مذهب الجمهور وإن كانوا غيرهم ـ وهو الأظهر عندي ـ فسؤاله تعالى لهم: إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾[٤] وإظهارًا لما سبق في معلومه إذ قال لهم: ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[٥]»[٦].

د ـ حضور مجالس الذكر:

مجالس الذكر هي مجالس العلم، والملائكة ـ عليهم السلام ـ يحرصون على العلم، ويبسطون أجنحتهم لطالبه، كما قال ﷺ: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم**»[٧]. قال القرطبي: «قيل: معناه تخضع له وتعظمه، وقيل: تبسطها له بالدعاء لأن جناح الطائر يده»[٨]. ومن الملائكة عليهم السلام الذين يسعون في الأرض يتبعون مجالس الذكر قال ﷺ: «**إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فُضْلاً يتتبَّعُون مجالس الذكر**»[٩] قال القرطبي: «سيارة: يعني: سائرين يطلبون مجالس العلم والتذكير، وهي

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.
(٢) المفهم (٥/ ٤٢١).
(٣) سبق تخريجه ص(٤٠٠).
(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٦) المفهم (٢/ ٢٦١)،
(٧) رواه الترمذي في أبواب العلم، باب في فضل الفقه على العبادة، وابن ماجه في باب فضل العلماء، والحث على طلب العلم، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٤٣).
(٨) المفهم (٦/ ٦٨٥).
(٩) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر ح٢٦٨٩ (١٧/ ١٧).

المجالس التي يذكر فيها كلام الله وسنةرسوله وأخبار السلف الصالحين»[١]

هـ ـ القتال مع المؤمنين :

إذ قد يؤيد الله تعالى بملائكته من يشاء من عباده كما حدث هذا في معركة بدر وأحد، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[٣].

والرسول ﷺ عندما أُخبر عن الفارس الذي يقول: «**أقدم حيزوم وضرب المشرك من غير أن يرى**»**قال: ذلك مدد السماء الثالثة**»[٤].

قال القرطبي: «أي: من ملائكة السماء الثالثة التي أُمدُّوا بهم وهذا يدل: على أنهم كانوا أُمدُّوا بملائكة من كل سماء ويدل هذا الخبر على أن الملائكة قاتلت يومئذ وهو قول أكثر أهل العلم»[٥].

وبين القرطبي كيفية قتال الملائكة في هذه الحروب فقال: «قتال الملائكة للكفار يوم بدر ويوم أحد لم يخرج عن عادة القتال المعتاد بين الناس ولو أذن الله تعالى لملك من أولئك الملائكة بأن يصيح صيحة واحدة في عسكر العدو لهلكوا في لحظة واحدة أو لخسف بهم في موضعهم أو أسقط عليهم قطعة من الجبل المطل عليهم، لكن لو كان ذلك: لصار الخبر

---

(١) انظر: المفهم (٧/ ١١).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٩.

(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١٢٣ـ١٢٥.

(٤) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزة بدر ح١٧٦٣ (١٢/ ٣٢٧).

(٥) المفهم (٣/ ٥٧٧).

عيانًا والإيمان بالغيب مشاهدة فيبطل سرُّ التكليف فلا يتوجه لومُ ولا تعنيف كما قد صرح الله تعالى بذلك قولاً وذكرًا، إذ قال: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا[١] ﴾[٢].

و ـ خزنة النار:

وهم ملائكة جعلهم الله تعالى غلاظًا شدادًا ليكون أشد في نكال وعذاب أهل النار. قال ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[٣].

قال القرطبي: «ملائكتها ـ كما وصفهم الله تعالى ـ: ﴿ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾[٤] وأما هذا العدد المحصور للملائكة فكأنه عدد رؤسائهم وأما جملتهم فالعبارة عنها ما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾[٥]»[٦].

وقال في تفسير سورة العلق: «قوله: ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ ﴾[٧] أي: لتعذيبه وهم خزنة النار الموكلون بتعذيب الكفار وهم الملائكة الذين قال الله فيهم: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٨] وسموا زبانية من الزبن وهو الدفع لشدة دفعهم وبطشهم»[٩].

المطلب الثاني: الإيمان بالجن:

الإيمان بوجود الجن من الإيمان بالنبوات؛ لأن هذا إنما جاء من علم الغيب الذي جاء به الرسل عليهم السلام. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.
(٢) المفهم (٦/ ١٠١).
(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر جهنم وبعد قعرها، وما تأخذ من المعذبين ح٢٨٤٢ (١٧/ ١٨٥).
(٤) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٥) سورة المدثر، الآية: ٣١.
(٦) المفهم (٧/ ١٨٧).
(٧) سورة العلق، الآية: ١٨.
(٨) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٩) المفهم (٧/ ٤٣٥).

﴿وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾[(١)]، وسميت سورة من سور القرآن الكريم باسمهم. قال شيخ الإسلام: «لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمدًا ﷺ إليهم، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن... لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالاضطرار»[(٢)].

تعريفهم:

قال القرطبي: «أصل الجن من: ج ـ ن ـ للسترة والتستر أينما وقعت فتتبعها تجدها كذلك»[(٣)].

والشيطان: من الجن لكنه: المارد منهم قال القرطبي: «الشيطان وزنه: فَيْعَال من شطن أي: بَعُدَ عن الخير أو من شاط إذا احتد واحترق، وإنه إنما يقال على المارد من الجن وهو الكثير الشر الشديد الضُّرِّ»[(٤)].

وبين القرطبي أن الشيطان إذا أسلم زال عنه هذا الاسم وأصبح مسلمًا[(٥)].

وقد يطلق الشيطان على الإنس، كذلك كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾[(٦)].

وقال ﷺ: «**إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره من الناس فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفع في نحره، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان**»[(٧)].

قال القرطبي: «أي: فعله فعل الشيطان إذا أبى إلاَّ التشويش على

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٢) الفتاوى لابن تيمية (١٩/ ١٠).
(٣) المفهم (٥/ ٥٣٤)، وانظر: معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٢١).
(٤) المفهم (٧/ ٤٠١)، وانظر: (٤/ ٥٨).
(٥) المفهم (٧/ ٤٠٢).
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٧) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب يرد المصلي من مرَّ بين يديه ح٥٠٩ (١/ ٦٩٣)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي ح٥٠٥ (٤/ ٤٦٩).

المصلي ويحتمل أن يكون معناه: أن الحامل على ذلك الفعل هو الشيطان»[١].

وعند شرحه لقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[٢]. قال: يعني: شياطين الإنس من الآباء والمعلمين بتعليمهم وتدريبهم وشياطين الجن بوساوسهم»[٣].

صفاتهم:

بين الله سبحانه وتعالى أن الجن خلقوا من مارج من نار، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾[٤].

قال القرطبي: «أي: من شواظ ذي لهب واتقاد ودخان فكانوا شرًّا محضًّا والخير فيهم قليل»[٥]. والجن لهم قدرة على التشكل بالصور المختلفة إذا أقدرهم الله تعالى على ذلك.

قال القرطبي: «أوجد الله تعالى الجن على صور تخصهم ثم مكنهم من التشكل في صور مختلفة فيتمثلون في أي صورة شاؤوا أو شاء الله»[٦].

وقال أيضًا: «تتمثل الملائكة والجن في الصور المختلفة ولهم في أنفسهم صورٌ خلقهم الله تعالى عليها، والإيمان بذلك كله واجب لما دلَّ عليه من السمع الصادق»[٧].

وبين أن رؤية الناس للجن ممكنة، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[٨] فهذا إخبار عن غالب أحوال بني آدم معهم[٩].

---

(١) المفهم (٢/ ١٠٥).
(٢) سبق تخريجه ص(١٥٨).
(٣) المفهم (٦/ ٧١٢).
(٤) سورة الرحمن، الآية: ١٥.
(٥) المفهم (٧/ ٣١٥).
(٦) المفهم (٢/ ١٥٠).
(٧) المفهم (٦/ ٣٥٩).
(٨) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
(٩) انظر: المفهم (٢/ ١٥٠)، وانظر: الأقوال في هذه المسألة في: كتاب عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة للدكتور عبدالكريم عبيدات ص(٢٩ـ٤١).

والجن يموتون كالإنس كما قال ﷺ: «**أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون**»(١).

قال القرطبي: «إنما خص هذين النوعين بالموت، وإن كان جميع الحيوان يموت لأن هذين النوعين هما المكلفان المقصودان بالتبليغ والله أعلم»(٢).

تكليفهم:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾(٤).

قال القرطبي: «والحاصل من الكتاب والسنة: العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون متعبدون بالأحكام الشرعية، على النحو الذي يليق بخلقتهم وأحوالهم، وأن نبينا محمدًا ﷺ رسول إلى الإنس والجن أجمعين فمن دخل في دينه وآمن به، فهو من المؤمنين، ومعهم في الدنيا والآخرة والجنة مستقر المؤمنين، ومن كذبه وصد عنه فهو الشيطان المبعد عن المؤمنين في الدنيا والآخرة، والنار مستقر الكافرين»(٥).

وقال أيضًا: «قد علمنا قطعًا: أن رسول الله ﷺ بلَّغ الرسالة للإنس والجن، وأنه قد آمن به خلق كثير من النوعين بحيث لا يحصرهم بلد ولا يحيط بهم عدد»(٦).

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله عز وجل: ﴿السلام المؤمن﴾ ح٧٣٨٣ (١٣/ ٣٨٠)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ح٢٧١٧ (١٧/ ٤٢).

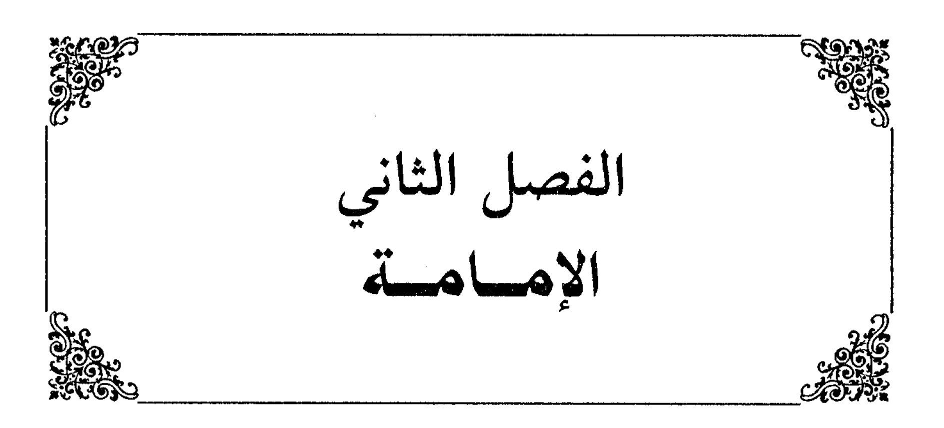
(٢) المفهم (٧/ ٤٦).

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٤) سورة الأحقاف، الآيات: ٢٩ـ٣١.

(٥) المفهم (٧/ ٤٢٠).

(٦) المفهم (٥/ ٥٣١).



الفصل الثاني
الإمـامـة

وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول : **حكم نصب الإمام وبما تنعقد به الإمامة**

المبحث الثاني : **البيعة**

المبحث الثالث: **شروط الإمام**

المبحث الرابع: **واجبات الإمام وحقوقه**

المبحث الخامس : **الموقف من الأئمة**

المبحث الأول

حكم نصب الإمام وبما تنعقد به الإمامة

وجود إمام يتولى أمور المسلمين أمر لابد منه، وهذا معلوم بالعقل والنقل، ولذا نقل النووي رحمه الله الإجماع عليه[١].

ونصب الإمام يكون بالبيعة أو الاستخلاف، فالرسول ﷺ لم يستخلف فاتفق الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على مبايعة الصديق ـ رضي الله عنه ـ والصديق ـ رضي الله عنه ـ استخلف عليهم عمر ـ رضي الله عنه ـ.

ولذا قال عمر ـ رضي الله عنه ـ عند موته: «**وإني إن لا أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن أستخلف فإن أبابكر قد استخلف**»[٢].

قال القرطبي عند قول عمر: «وإن أستخلف فإن أبابكر قد استخلف»: «يعني أن أبابكر استخلفه ونصَّ عليه وعيَّنه، وهذا لا خلاف في أن الأمر كذلك وقع، ولا في أن هذا طريق مشروع في الاستخلاف، ثم إن عمر ـ رضي الله عنه ـ سلك طريقًا بين طريقين، جمعت له الاقتداء بهما، فاقتدى برسول الله ﷺ في أنه لم ينص على واحد بعينه، فصدق عليه أنه غير مستخلف واقتدى بأبي بكر من حيث أنه لم يترك أمر المسلمين مهملاً[٣] فإنه جعل الأمر شورى في ستة ممن يصلح للخلافة وفوض التعيين

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/ ٤٤٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب الاستخلاف ح٧٢١٧ (١٣/ ٢١٨)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب الاستخلاف وتركه ح١٨٢٣ (١٢/ ٤٤٦).

(٣) لا يظن بهذه العبارة أن المقصود من الإهمال: التضييع فهذا لا يليق بالرسول ﷺ، والواقع أيضًا في هذه المسألة بخلافه فإنه كما قال شيخ الإسلام: «دلَّ عليه الصلاة والسلام المسلمين على استخلاف أبي بكر بأمور متعددة من أقواله وأفعاله وأخبر بخلافته إخبار راضٍ بذلك حامدٍ له وعزم على أن يكتب بذلك عهدًا ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك، فلو كان التعيين ممايشتبه على الأمة لبينه رسول الله ﷺ قطعًا للعذر، لكن لما دلهم دلالات متعددة على أن أبابكر هو المتعين وفهموا ذلك حصل المقصود». منهاج السنة لابن تيمية (١/ ١٣٩).

لاختيارهم»[١].

وقد بيَّن القرطبي وجوب نصب الإمام، وطريق ذلك، فقال عند شرحه للحديث السابق: «قد حصل من هذا الحديث أن نصب الإمام لابُدَّ منه، وأن لنصبه طريقين:

أحدهما: اجتهاد أهل الحل والعقد.

والآخر: النصُّ إمَّا على واحد بعينه، وإما على جماعة بأعيانها ويفوَّض التخيير إليهم في تعيين واحد منهم. وهذا مما أجمع عليه السلف الصالح، ولا مبالاة بخلاف أهل البدع في بعض هذه المسائل، فإنهم مسبوقون بإجماع السلف وأيضًا فإنهم لا يعتد بخلافهم»[٢].

وقد بيَّن القرطبي في أكثر من موضع أن النص على الخليفة: أي الاستخلاف كان من الصديق لعمر ـ رضي الله عنهما ـ، وأما الرسول ﷺ فلم ينص على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ كما قال بعض العلماء، ولا على علي ـ رضي الله عنه ـ كما قالت الرافضة، حيث قال: «المعلوم عندهم ـ أي الصحابة رضي الله عنهم ـ أن النبي ﷺ لم يستخلف أحدًا، وكذلك قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «وإن أستخلف فقد استخلف أبوبكر» وهذا بمحضر من الصحابة وعلي والعباس ـ رضي الله عنهم ـ ولم ينكر أحد منهم على عمر، ولا ذكر أحد من الناس نصًّا باستخلاف على أحد، فكان ذلك دليلاً على كذب من ادعى شيئًا من ذلك إذ العادات تحيل أن يكون عندهم نص على أحد في ذلك الأمر العظيم المهم فيكتموه مع تصلبهم في الدين وعدم تقيتهم فإنهم كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم، وكذلك اتفق لهم عند موت النبي ﷺ فإنهم اجتمعوا لذلك وتفاوضوا فيه مفاوضة من لا يتقي شيئًا، ولا يخاف أحدًا حتى قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، ولم يذكر أحد منهم نصًّا، ولا ادعى أحد منهم أنه نص عليه ولو كان عندهم من ذلك شيء لكانوا هم أحق بمعرفته ونقله، ولما اختلفوا في شيء من ذلك، ومن العجب ألا يكون عند أحد من هؤلاء نص على ذلك ولا يذكره مع قرب

---

(١) المفهم (٤/ ١٤).

(٢) المفهم (٤/ ١٥).

العهد وتوفر الدين والجد ودعاء الحاجة الشديدة إلى ذلك، ويأتي بعدهم بأزمان متطاولة وأوقات مختلفة، وقلة علم، وعدم فهم من يدعي: أن عنده من العلم بالنص على واحد معين، ما لم يكن عند أولئك الملأ الكرام، ولا سمع منهم، وهذا محض الكذب الذي لا يقبله سليم العقل، لكن غلبت التعصب والأهواء تُورِّطُ صاحبها في الظلماء، وقد ذهبت الشيعة على اختلاف فرقها إلى أنه نص على خلافة علي ـ رضي الله عنه ـ وذهبت الراوندية إلى أنه نص على خلافة العباس ـ رضي الله عنه ـ واختلق كل واحد منهما من الكذب والزور والبهتان ما لا يرضى به من في قلبه حبة خردل من الإيمان، وما ذكرناه من عدم النص على واحد بعينه، هو مذهب جمهور أهل السنة من السلف والخلف، لا على أبي بكر ولا غيره، غير أنهم استندوا في استحقاق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بالخلافة إلى أصول كلية وقرائن خالية، ومجموع ظواهر جلية، حَصَّلتْ لهم العلم بأنه أحق بالخلافة وأولى بالإمامة يعلم ذلك من استقرأ أخباره وخصائصه»[١].

وقال في موضع آخر: «الأحاديث الدالة على خلافة الصديق ـ رضي الله عنه ـ ليست نصوصًا في ذلك لكنها ظواهر قوية إذا انضاف إليها استقراء ما في الشريعة مما يدل على ذلك المعنى علم استحقاقه للخلافة وانعقادها له ضرورة شرعية والقادح في خلافته مقطوع بخطئه وتفسيقه، وهل يكفر أم لا؟ مختلف فيه، والأظهر: تكفيره لما استقر في الشريعة مما يدل على استحقاقه لها، وأنه أحق وأولى بها، سيما وقد انعقد إجماع الصحابة على ذلك، ولم يبق منهم مخالف في شيء مما جرى هنالك»[٢].

وما ذكره رحمه الله في التشديد على من قال بالنص وتكذيبه يجري على أهل البدع من الشيعة وغيرهم من أهل أهواء.

وأما من ذهب إلى ذلك من أهل السنة فحاشاهم من ذلك، وغاية

---

(١) المفهم (٦/ ٢٤٧).

(٢) المفهم (٦/ ٢٤٩).

الأمر أنهم قد أخطأوا في اجتهادهم، فلا يلامون على ذلك[(١)].

وقال المازري في هذه المسألة: «أما غلو الشيعة في قولهم بأن عليًّا ـ رضي الله عنه ـ وصي النبي ﷺ فباطل لا أصل له، وأما الصديق ـ رضي الله عنه ـ فإذا أثبتنا ولايته باتفاق الصحابة عليه على وجه يوجب إمامته، فإن المحققين من أئمتنا أنكروا أن يكون ذلك بنص قاطع منه ﷺ على إمامته، وقالوا: لو كان النص عند الصحابة لم يقع منها ما وقع عند إقامته والعقد له، ولا كان ما كان من الاختلاف فدل ذلك على أنه رأي منهم وقع فيه تردد من طائفة ثم استقر الأمر، فانجزم الرأي عليه، ويجعل هؤلاء ما وقع في هذا الحديث: «**ويأبى الله والمؤمنون إلَّا أبابكر**»[(٢)] مع ما وقع من أمثاله من الظواهر التي لا تبلغ النص الجلي القاطع الذي لا يسوغ خلافه ولا الاجتهاد معه»[(٣)].

---

(١) انظر: الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة للدكتور عبدالله الدميجي ص(١٣٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب المرضى باب ما رخص للمريض أن يقول ح٥٦٦٦ (١٠/١٢٨)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ح٢٣٨٧ (١٥/١٦٣).

(٣) المعلم (٣/١٣٧).

المبحث الثاني
البيعة

قال القرطبي: «البيعة: مأخوذة من البيع، وذلك أن المبايع يلتزم للإمام أن يقيه بنفسه وماله، فكأنه قد بذل نفسه وماله لله تعالى، وقد وعد الله تعالى على ذلك بالجنة، فكأنه قد حصلت له المعاوضة فصدق على ذلك اسم البيع والمبايعة والشراء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾(١) . . . ثم هي واجبة على كل مسلم لقوله ﷺ: «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»(٢)(٣).

وبيَّن القرطبي أنه لا يكتفى في البيعة بعقد اللسان فقال: «البيعة لا يكتفى فيها بمجرد عقد اللسان فقط، بل لابد من الضرب باليد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(٤) ولكن ذلك للرجال فقط(٥). أي للرجال من أهل الحل والعقد، وإلاَّ فعامة الناس يكتفى منهم بانعقاد قلوبهم على البيعة، وقد بيَّن القرطبي هذا في موضع آخر فقال: «من كان من أهل الحل والعقد والشهرة، فبيعته بالقول، والمباشرة باليد إن كان حاضرًا، أو بالقول والإشهاد عليه إن كان غائبًا، ويكفي من لا يؤبه له ولا يعرف أن يعتقد دخوله تحت طاعة الإمام ويسمع ويطيع له في السر والجهر، ولا يعتقد خلافًا لذلك فإن أضمره، فمات مات ميتة جاهلية؛ لأنه لم يجعل في عنقه بيعة»(٦).

ومن شروط البيعة أن تكون لإمام واحد فلا تنعقد لإمامين لقوله ﷺ:

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال ح١٨٥١ (١٢/ ٤٨٢).

(٣) المفهم (٤/ ٤٤).

(٤) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٥) المفهم (٤/ ٥٢).

(٦) المفهم (٤/ ٤٤).

«إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[1] وقال ﷺ: **«فوا ببيعة الأول فالأول»**[2].

قال القرطبي في شرحه لهذا الحديث: «هذا دليل على وجوب الوفاء ببيعة الأول وسكت في هذا الحديث عما يحكم به على الآخر، وقد نص عليه في الحديث الآتي حيث قال: **«فإن جاء أحد ينازعه فاضربوا عنق الآخر»**[3] وفي رواية: **«فاضربوه بالسيف كائناً من كان»** وهذا الحكم مجمع عليه عند تقارب الأقطار، وإمكان استقلال واحد بأمور المسلمين وضبطها فأما لو تباعدت الأقطار وخيف ضيعة البعيد من المسلمين، ولم يتمكن الواحد من ضبط أمور من بَعُدَ عنه فقد ذكر بعض الأصوليين: أنهم يقيمون لأنفسهم واليًا يدبرهم ويستقل بأمورهم... قلت: ويمكن أن يقال: إنهم يقيمون من يدبر أمورهم على جهة النيابة عن الإمام الأعظم، لا أنهم يخلعون الإمام المتقدم حكمًا، ويولون هذا بنفسه مستقلاً، هذا ما لا يوجد نصًّا عن أحد ممن يعتبر قوله. والذي يمكن أن يفعل مثل هذا إذا تعذر الوصول إلى الإمام الأعظم أن يقيموا لأنفسهم من يدبرهم، ممن يعترف للإمام بالسمع والطاعة فمتى أمكنهم الوصول إلى الإمام فالأمر له في إبقاء ذلك أو عزله. ثم للإمام أن يفوض لأهل الأقاليم البعيدة التفويض العام ويجعل للوالي عليهم الاستقلال بالأمور كلها لتعذر المراجعة عليهم، كما قد اتفق لأهل الأندلس وأقصى بلاد العجم.

فأما لو عقدت البيعة لإمامين معًا في وقت واحد في بلدين متقاربين فالإمامة لأرجحهما[4].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة باب إذا بويع لخليفتين ح١٨٥٣ (١٢/ ٤٨٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل ح٣٤٥٥ (٦/ ٥٧١)، ومسلم في كتاب الإمارة باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول ح١٨٤٢ (١٢/ ٤٧٣).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول ح١٨٤٤ (١٢/ ٤٧٤).

(٤) المفهم (٤/ ٤٩).

المبحث الثالث
شروط الإمام

والمبايعة في الإمامة العظمى لابد لها من شروط يجب أن تتوفر بالإمام كالقرشية والحرية وغيرها من الشروط التي ذكرها العلماء في كتبهم على خلاف بينهم في بعض هذه الشروط وقد اشترط القرطبي لتنصيب الإمام القرشية وحكى الإجماع على شرط الحرية وأما غيرها من الشروط فلم يتعرض لها.

١ ـ القرشية :

جاءت النصوص بحصر الخلافة في قريش، فقد قال ﷺ: «**الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم**»[١] وقال ﷺ: «**الناس تبع لقريش في الخير والشر**»[٢]، وقال ﷺ: «**لايزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان**»[٣].

قال القرطبي بعد ذكره لهذه الأحاديث: «قوله: «**الناس تبع لقريش في هذا الشأن**» يعني به: شأن الولاية والإمارة[٤] وذلك: أن قريشًا كانت في الجاهلية رؤساء العرب وقادتها؛ لأنهم أهل البيت والحرم، حتى كانت العرب تسميهم: أهل الله وإليهم كانوا يرجعون في أمورهم، ويعتمدون

---

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب باب قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...﴾ ح٣٤٩٥ (٦/٦٠٨)، ومسلم في كتاب الإمارة باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ح١٨١٨ (١٢/٤٤١).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ح١٨١٩ (١٢/٤٤٢).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ح١٨٢٠ (١٢/٤٤٢).

(٤) والمقصود بهذا: الإمامة العظمى أما ما سواها فلا يدخل في هذه الأحاديث، قال القرطبي: «أجمعت الأمة على أن جميع الولايات تصح لغير قريش ما خلا الإمامة الكبرى فهي المقصودة بالحديث مطلقًا، وقد قدَّم النبي ﷺ غير قريش على قريش، فإنه قدَّم زيد بن حارثة وولده أسامة ومعاذ بن جبل، وقدَّم سالمًا مولى أبي حذيفة على الصلاة بقباء فكان يؤمهم وفيهم أبوبكر وعمر وغيرهم من كبراء قريش» المفهم (٤/٧)

عليهم فيما ينوبهم، ولذلك توقف كثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام قبل أن تدخل فيه قريش، فلما أسلموا ودخلوا فيه، أطبقت العرب على الدخول في الدين بحكم أنهم كانوا لهم تابعين... ثم لما جاء الإسلام استقر أمر الخلافة والملك في قريش شرعًا ووجودًا، ولذلك قالت قريش يوم السقيفة للأنصار: نحن الأمراء، وأنتم الوزراء، وقال عمر في كلامه: إن هذا الأمر لا تعرفه الناس، إلاَّ لهذا الحي من قريش، فانقادوا لذلك، ولم يخالف فيه أحد، وهو إجماع السلف والخلف، ولا اعتبار بقول النظام(١) ولا ضرار بن عمرو(٢) وأهل البدع من الخوارج وغيرهم، إذ قالوا بجواز صحتها لغير قريش؛ لأنهم إما مُكَفَّر وإما مُفَسَّق، ثم إنهم مسبوقون بإجماع السلف ومحجوجون بهذه الأحاديث الكثيرة الشهيرة»(٣).

وهذا الذي ذهب إليه القرطبي هو الذي عليه جماهير علماء المسلمين قاطبة، وحكى الإجماع عليه من قبل الصحابة والتابعين، وبه قال الأئمة الأربعة»(٤).

قال النووي بعد ذكره للأحاديث السابقة: «هذه الأحاديث وأشباهها دليل ظاهر على أن الخلافة مختصة بقريش لا يجوز عقدها لأحد غيرهم، وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة والتابعين من بعدهم بالأحاديث الصحيحة»(٥).

٢ ـ الحرية:

ويشترط في الإمامة الحرية؛ لأن المملوك لا يحق له التصرف في شيء إلاَّ بإذن سيده، فلا ولاية له على نفسه، فكيف تكون له الولاية على غيره، ووقته ليس ملكًا له، بل ملك لسيده. ولا شك أن في اشتراط

---

(١) هو إبراهيم بن سيار بن هانيء البصري، أبوإسحاق أحد أئمة المعتزلة، توفي سنة (٢٣١). سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٤١).

(٢) هو ضرار بن عمرو المعتزلي من كبار أئمة الاعتزال ثم خالفهم فكفروه وطردوه وتنسب إليه فرقة الضرارية توفي سنة (١٩٠هـ). سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٤٤).

(٣) المفهم (٤/ ٥).

(٤) انظر: الإمامة العظمى للدميجي ص(٢٦٥).

(٥) شرح النووي لصحيح مسلم (١٢/ ٤٤١، ٤٤٢).

القرشية ما يتضمن هذا الشرط.

وأما ما جاء في حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قوله: «**إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبدًا حبشيًا مجدع الأطراف**»[١].

فليس هذا معارضًا لاشتراط الحرية، قال القرطبي في شرح هذا الحديث: «وهذا منه ﷺ على جهة الإغياء على عادة العرب في تمكينهم المعاني وتأكيدها كما قال النبي ﷺ: «**من بنى مسجدًا لله ولو مثل مفحص قطاة بنى الله تعالى له بيتًا في الجنة**»[٢] ومفحص قطاة لا يصلح لمسجد، وإنما هو تمثيل للتصغير على جهة الإنماء، فكأنه قال: أصغر ما يكون من المساجد. وعلى هذا التأويل لا يكون فيه حجة لمن استدل به على جواز تأمير العبد فيما دون الإمامة الكبرى، وهم بعض أهل الظاهر فيما أحسب، فإنه قد اتفق على أن الإمام الأعظم لابد أن يكون حرًا... وأمير الجيش والحرب في معناه، فإنها مناصب دينية يتعلق بها تنفيذ أحكام شرعية، فلا يصلح لها العبد؛ لأنه ناقص بالرق، محجور عليه، لا يستقل بنفسه ومسلوب أهلية الشهادة، والتنفيذ، فلا يصلح للقضاء، ولا للإمارة، وأظنُّ أن جمهور علماء المسلمين على ذلك»[٣].

«وهذا الذي ذكره القرطبي في توجيه الحديث اختاره الحافظ ابن حجر ونسبه إلى الخطَّابي»[٤].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء من غير معصية وتحريمها في المعصية ح١٨٣٧ (١٢/ ٤٦٧).

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب المساجد والجماعات، باب من بنى لله مسجدًا، وابن خزيمة في جماع أبواب فضائل المساجد وبنائها وتعظيمها، باب فضل المسجد، وإن صغر المسجد وضاق وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ١٢٤).

(٣) المفهم (٤/ ٣٧)، والقول بتجويز تأمير العبد فيما دون الإمامة العظمى قال به بعض العلماء، وقد اختاره الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان (١/ ٢٧) وقيل في هذا الحديث: المقصود به ما سبق عليه الرق، فإطلاقه عليه باعتبار اتصافه به سابقًا، كما أطلق الله تعالى لفظ اليتيم على البالغ في قوله: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم...﴾ سورة النساء آية ٢، وقيل المراد به: المتغلب لا المختار. انظر: الإمامة العظمى للدميجي ص٢٤٢.

(٤) فتح الباري (١٣/ ١٣١).

المبحث الرابع
واجبات الإمام وحقوقه

الحكم في الإسلام تبعة ومسؤولية لم يشرع إلاَّ لتحقيق أهداف وبلوغ مقاصد، وتحقيق هذه الأهداف وبلوغ هذه المقاصد مسؤولية مشتركة بين الحكام والمحكومين.

وبما أن الأمة أعطت الحاكم السلطة للسير بها نحو تحقيق هذه المقاصد، لذلك كان عليه من الواجبات ما ليس على غيره، لكنه لا يستطيع القيام وحده بتحقيق هذه المقاصد، مهما بلغ من القوة، لذلك أوجب الإسلام على المحكومين أيضًا واجبات وحقوقًا للإمام مقابل تلك الواجبات الملقاة على عاتقه[(١)].

١ ـ واجبات الإمام:

قال ﷺ: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلَّا حرم الله عليه الجنة**»[(٢)].

قال القرطبي: «الرعاية: الحفظ والصيانة، والغش: ضد النصيحة، وحاصله راجع إلى الزجر عن أن يضيع ما أُمر بحفظه، وأن يقصر في ذلك مع التمكن من فعل ما يتعين عليه»[(٣)].

وعند قوله ﷺ: «**اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم**»[(٤)].

قال القرطبي: «يعني أن الله تعالى كلَّف الولاة العدل وحسن الرعاية

---

(١) الإمامة العظمى للدميجي ص(٣٣٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأحكام باب من استرعي رعية فلم ينصح ح(٧١٥٠) (١٣/ ١٣٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار ح١٤٢ (٢/ ٥٢٤).

(٣) المفهم (١/ ٣٥٤).

(٤) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب في طاعة الأمراء، وإن منعوا الحقوق ح١٨٤٦ (١٢/ ٤٧٧).

وكلف المولى عليهم الطاعة وحسن النصيحة، فأراد أنه إن عصى الأمراء الله فيكم ولم يقوموا بحقوقكم فلا تعصوا الله أنتم فيهم، وقوموا بحقوقهم، فإن الله مجاز كل واحد من الفريقين بما عمل»[١].

وقد قال ﷺ: **«ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته»**[٢].

قال القرطبي: «الراعي: هو الحافظ للشيء المراعي لمصالحه، وكل من ذكر في هذا الحديث قد كلف ضبط ما أسند إليه من رعيته، واؤتمن عليه، فيجب عليه أن يجتهد في ذلك وينصح ولا يفرط في شيء من ذلك، فإن وفَّى ماعليه من الرعاية حصل له الحظ الأوفر، والأجر الأكبر، وإن كان غير ذلك طالبه كل واحد من رعيته بحقه، فكثر مطالبوه وناقشه محاسبوه»[٣].

٢ ـ حقوق الإمام:

للإمام حقٌّ على رعيته جاءت به النصوص من الكتاب والسنة؛ لأنه سبب انتظام الحياة وحصول المقاصد. قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾[٤]. قال القرطبي: «أولوا الأمر في الآية هم الأمراء، وهو أظهر من قول من قال: هم العلماء، قاله الحسن، ومالك، وله وجه وهو: أن الأمراء شرطهم أن يكونوا آمرين بما يقتضيه العلم، وكذلك كان أمراء النبي ﷺ وحينئذ تجب طاعتهم، فلو أمروا بما لا يقتضيه العلم حرمت طاعتهم، فإذًا: الحكم للعلماء والأمراء لهم بالأصالة، غير أنهم لهم الفتيا من غير جبر، وللأمير الفتيا والجبر، وهذان القولان أشبه ما قيل في هذه الآية»[٥].

---

(١) المفهم (٤/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق ح٢٥٥٤ (٥/ ٢١٠)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل ح١٨٢٩ (١٢/ ٤٥٤).

(٣) المفهم (٤/ ٢٧).

(٤) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٥) المفهم (٤/ ٣٤).

وقال ﷺ: **«من يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»**(١).

قال القرطبي: «كل من أطاع أمير رسول الله ﷺ فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، فينتج أن من أطاع أمير رسول الله ﷺ، فقد أطاع الله، وهو حق صحيح، وليس هذا الأمر خاصًّا بمن باشره رسول الله ﷺ بتولية الإمارة، بل هو عام في كل أمير للمسلمين عدل، ويلزم منه نقيض ذلك في المخالفة والمعصية»(٢).

فلا خلاف في وجوب طاعة أمراء المسلمين سواء كان المأمور به موافقًا لنشاط الإنسان وهواه أو مخالفًا له، بل حتى لو استأثر الأمراء بالأموال دون الناس وجبت طاعتهم(٣).

قال ﷺ: **«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلَّا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»**(٤).

قال القرطبي: «هذا ظاهر في وجوب السمع والطاعة للأمراء، والقضاة، ولا خلاف فيه، إذا لم يأمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا تجوز طاعته في تلك المعصية قولاً واحدًا»(٥).

وقوله ﷺ: **«إنما الطاعة في المعروف»**(٦) يعني بالمعروف هنا: ما

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به ح٢٩٥٧ (٦/ ١٣٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء من غير معصية، وتحريمها في المعصية ح١٨٣٥ (١٢/ ٤٦٥).

(٢) المفهم (٤/ ٣٦).

(٣) المفهم (٤/ ٣٦، ٣٧).

(٤) رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ح٧١٤٤ (١٣/ ١٣٠)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ح١٨٣٩ (١٢/ ٤٦٨).

(٥) المفهم (٤/ ٣٨).

(٦) سبق تخريجه ص(٢٩٩).

ليس بمنكر ولا معصية، فيدخل فيه الطاعات الواجبة والمندوب إليها، والأمور الجائزة شرعًا، فلو أمر بجائز لصارت طاعته فيه واجبة ولما حلّت مخالفته[١].

وبيَّن أن شرط الطاعة بالاستطاعة المقصود به: أن رفع الحرج إذا وقعت المخالفة غلطًا أو سهوًا، أو غلبة ليس تسويغًا للمخالفة فيما يشق ويثقل مما يأمر به الإمام إذ جاءت الأحاديث بالنص على الطاعة مع وجود الثقل والمشقة[٢].

فقيام كل من الحاكم والمحكوم بالحقوق التي عليه من أسباب صلاح المجتمع، وترك هذه الحقوق وتضييعها سبب للفساد والانحراف، ولذا قال ﷺ: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم**»[٣].

قال القرطبي: «قوله: **خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم**» أي: تدعون لهم في المعونة على القيام بالحق والعدل، ويدعون لكم بالهداية والإرشاد وإعانتكم على الخير، وكل فريق يحب الآخر لما بينهم من التواصل والتراحم والشفقة والقيام بالحقوق، كما كان ذلك في زمن الخلفاء الأربعة، وفي زمان عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنهم ـ ونقيض ذلك في الشرار لترك كل فريق منهما القيام بما يجب عليه من الحقوق للآخر، ولاتباع الأهواء والجور والبخل والإساءة فينشأ عن ذلك التباغض والتلاعن وسائر المفاسد»[٤].

---

(١) المفهم (٤/ ٤١).
(٢) المفهم (٤/ ٤٦).
(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب خيار الأمة وشرارهم ح١٨٥٥ (١٢/ ٤٨٦).
(٤) المفهم (٤/ ٦٥).

المبحث الخامس
الموقف من الأئمة

قد سبق بيان وجوب طاعة الإمام في غير المعصية، وأن طاعته من طاعة الله عز وجل.

وعدم طاعته في معصية الله أيضًا محل اتفاق بين العلماء. لكن الخلاف في مسألة الخروج على الأئمة ومتى يكون ذلك؟. إذ جاءت الأحاديث الكثيرة بالدعوة إلى الصبر على جور الحكام، وعدم نزع اليد من طاعتهم، والنهي عن الخروج عليهم. والأمر المتفق عليه بين العلماء هو الخروج عليهم حال كفرهم كما قال عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ: **«بايعنا ـ أي: رسول الله ﷺ ـ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، إلَّا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان»**[1].

قال القرطبي: «بواحًا من باح الرجل بالشيء يبوح به بوحًا وبواحًا: إذا أظهره... وقوله: «عندكم من الله فيه برهان» أي: حجة بينة وأمر لا شك فيه، يحصل به اليقين أنه كفر فحينئذ يجب أن يخلع من عقدت له البيعة»[2].

وقال في موضع آخر: «لا تجوز طاعة الإمام في المعصية، وإن كانت هذه المعصية كفرًا، وجب خلعه على المسلمين كلهم، وكذلك لو ترك إقامة قاعدة من قواعد الدين كإقامة الصلاة، وصوم رمضان، وإقامة الحدود، ومنع ذلك، وكذلك لو أباح شرب الخمر والزنى، ولم يمنع منها لا يختلف في وجوب خلعه»[3].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: **«سترون بعدي أمورًا تنكرونها»** ح٧٠٥٦ (١٣/٧)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ح١٨٤٠ (١٢/ ٤٧٠).

(٢) المفهم (٤/ ٤٥).

(٣) المفهم (٤/ ٣٩).

وهذا القول هو الصحيح إذ الكفر سبب لخلع الحاكم بأي طريقة ممكنة، وترك العمل بكتاب الله تعالى جاء النص بأنه سبب لخلع الحاكم والخروج عن طاعته، قال ﷺ: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله**»[١]. وإباحة شرب الخمر والزنى وترك إقامة الصلاة، أو الصيام، والمنع من ذلك كلها صور للكفر بالله تعالى، وترك العمل بكتابه. فالخلاف الذي وقع بين العلماء ليس في الصور السابقة، إنما فيما يكون دون الكفر، كالفسق والظلم ونحوها.

فالقرطبي ذهب إلى عدم الخروج على الإمام الظالم والفاسق، حيث قال: «متى أجمع المسلمون على إمام فلا يخرج عليه، وإن جار... فتشهد مع أئمة الجور الصلوات والجماعات والجهاد، والحج، وتجتنب معاصيهم ولا يطاعون فيها»[٢].

وعند قوله ﷺ: «**يهلكُ أُمتي هذا الحيُّ من قريش**» قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «**لو أن الناس اعتزلوهم**»[٣].

قال القرطبي: «هذا فيه دليل على إقرار أئمة الجور، وترك الخروج عليهم، والإعراض عن هنات ومفاسد تصدر منهم، وهذا ما أقاموا الصلاة، ولم يصدر منهم كفر بواح عندنا من الله فيه برهان»[٤].

وقال المازري: «الإمام العدل: لا يحل الخروج عليه باتفاق، والإمام إذا فسق وجار، فإن كان فسقه كفرًا، وجب خلعه، وإن كان ما سواه من المعاصي فمذهب أهل السنة أنه لا يخلع، واحتجوا بظاهر الأحاديث، وهي كثيرة، ولأنه قد يؤدي خلعه إلى إراقة الدماء، وكشف الحريم، فيكون الضرر بذلك أشد من الضرر به، وعند المعتزلة أنه يخلع، وهذا في إمام

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب إمامة العبد والمولى ح٦٩٣ (٢/٢١٦).
(٢) المفهم (٤/٥٧)، وانظر: (٤/٦٦).
(٣) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة ح٣٦٠٤ (٦/٧٠٨)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت مما يرى من البلاء ح٢٩١٧ (١٨/٢٥٦).
(٤) المفهم (٧/ ٢٥٤).

عقد له على وجه يصح ثم فسق وجار، وأما المتغلبون على البلاد فالكلام فيهم يتسع وليس هذا موضعه»[١].

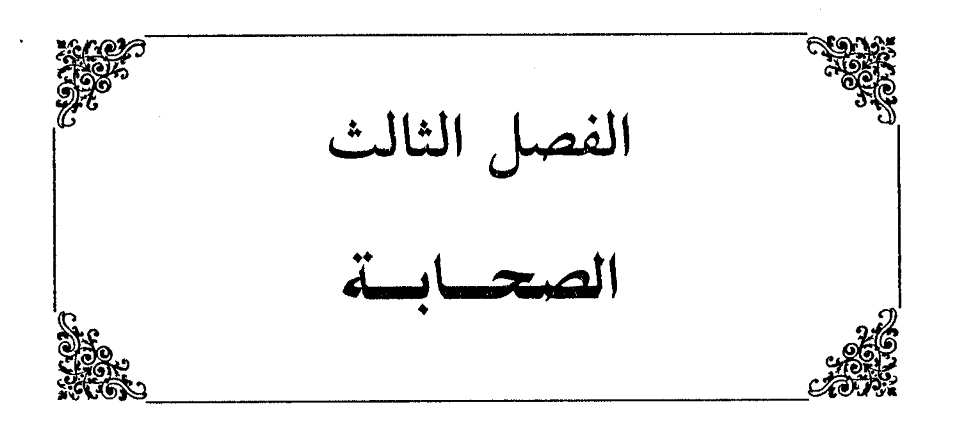
وهذا الذي ذهب إليه القرطبي والمازري هو الذي عليه أكثر علماء أهل السنة، بل قد حكى النووي الإجماع عليه[٢]؛ لأن الخروج على الأئمة يؤدي إلى الفتنة والنصوص الكثيرة قد جاءت في النهي عن القتال في الفتنة، قال ابن تيمية: «ولهذا استقر رأي أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم»[٣].

---

(١) المعلم (٣/ ٣٥).

(٢) شرح مسلم للنووي (١٢/ ٤٦٩).

(٣) منهاج السنة (٢/ ٢٤١).



الفصل الثالث

الصحـــابـــة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: **مكانة الصحابة وفضلهم**

المبحث الثاني: **عدالتهم وعظم الطعن فيهم**

المبحث الثالث: **الموقف مما وقع بينهم**

المبحث الأول
مكانة الصحابة وفضلهم

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ الآية[١]. وقال تعالى: ﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[٢]، وقال ﷺ: «**خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...**»[٣].

قال القرطبي: «من المعلوم الذي لا يُشك فيه: أن الله تعالى اختار أصحاب نبيه لنبيه ﷺ، ولإقامة دينه، فجميع ما نحن فيه من العلوم والأعمال والفضائل والأحوال، والمتملكات، والأموال، والعز، والسلطان، والدين، والإيمان، وغير ذلك من النعم التي لا يحصيها لسان، ولا يتسع لتقديرها زمان، إنما كان بسببهم، ولما كان ذلك وجب علينا الاعتراف بحقوقهم، والشكر لهم على عظيم أياديهم قيامًا بما أوجب الله تعالى من شكر المنعم، واجتنابًا لما حرَّمه من كفران حقه، هذا مع ما تحققناه من ثناء الله تعالى عليهم، وتشريفه لهم ورضاه عنهم كقوله تعالى: ﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ إلى قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾[٤] وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾[٥]، وقوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾[٦] إلى غير ذلك»[٧].

«فإنهم رضي الله عنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة من أمور الدين

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ورضي عنهم ح٣٦٥١ (٧/ ٥)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ح٢٥٣٣ (١٦/ ٣١٨).
(٤) سورة الفتح، الآيات: ١٨ـ٢٩.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.
(٦) سورة الحشر، الآية: ٨.
(٧) المفهم (٦/ ٤٩٢).

ومراعاة أحواله والتمسك بأعمال البر والخير إلى أن توفوا على ذلك، ومن وقع منهم في معصية أو مخالفة لجأ إلى التوبة، ولازمها حتى لقي الله تعالى عليها يُعلَمُ ذلك قطعًا من أحوالهم من طالع سيرهم وأخبارهم»(١).

«فعيشهم رضي الله عنهم لم يزل شديدًا وجهدهم جهيدًا حتى لقوا الله تعالى مؤثرين بما عندهم صابرين على شدة عيشهم، معرضين عن الدنيا وزهرتها، ولذاتها مقبلين على الآخرة، ونعيمها، وكراماتها، فحماهم الله ما رغبوا عنه، وأوصلهم إلى ما رغبوا فيه، حشرنا الله في زمرتهم، واستعملنا بسنتهم»(٢).

وقال المازري: «من المعلوم ضرورة تدين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومبادرتهم إلى الطاعات، والقرب، ورغبتهم ـ رضي الله عنهم ـ في الخير»(٣).

تفضيل الصحابة على من بعدهم:

قال ﷺ: **«لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»**(٤).

هذا الحديث وما سبق ذكره عن بيان فضل الصحابة ومكانتهم يدل على تفضيل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على كل من جاء بعدهم ففضل الصحبة لا يعادله شيء، وهذا هو الذي ذهب إليه جمهور العلماء من السلف والخلف، قال ابن تيمية: «قال غير واحد من الأئمة: أن كل من صحب النبي ﷺ أفضل ممن لم يصحبه مطلقًا»(٥).

وهذا هو الذي رجَّحه القرطبي عند شرحه لقوله ﷺ: **«وددت أنَّا قد**

---

(١) المفهم (٦/ ٤٤٢).
(٢) المفهم (٥/ ٣٠٥). وانظر: (١/ ٣٣٧، ٣/ ٦٤٧، ٤/ ٢٤٢، ٥/ ٤٧٧).
(٣) انظر: المعلم (٣/ ١٥٠).
(٤) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: **«لو كنت متخذًا خليلاً»** (ح٣٦٧٣)(٧/ ٢٥)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ح٢٥٤٠ (١٦/ ٣٢٦).
(٥) الفتاوى (٤/ ٥٢٧).

رأينا إخواننا» قالوا: أولسنا إخوانك يارسول الله؟ قال: «**أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد**»[١]. حيث قال: «قد أخذ أبوعمر ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ من هذا الحديث ومن قوله ﷺ: «**إن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن أجر خمسين منكم**»[٢] أنه يكون فيمن يأتي بعد الصحابة من يكون أفضل ممن كان في جملة الصحابة، وذهب معظم العلماء إلى خلاف هذا، وأن من صحب النبي ﷺ ورآه ولو مرة من عمره أفضل من كل من يأتي بعدُ، وأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل، وهو الحق الذي لا ينبغي أن يصار لغيره لأمور:

أولها: مزية الصحبة ومشاهدة رسول الله ﷺ.

وثانيها: فضيلة السبق للإسلام.

وثالثها: خصوصية الذَّبِّ عن حضرة رسول الله ﷺ.

ورابعها: فضيلة الهجرة والنصرة.

وخامسها: ضبطهم للشريعة وحفظها عن رسول الله ﷺ.

وسادسها: تبليغها لمن بعدهم.

وسابعها: السبق في النفقة في أول الإسلام.

وثامنها: أن كل خير وفضل وعلم وجهاد ومعروف فعل في الشريعة إلى يوم القيامة فحظهم منه أكمل حظ، وثوابهم فيه أجزل ثواب؛ لأنهم سنوا سنن الخير، وافتتحوا أبوابه، وقد قال ﷺ: «**من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[٣] ولا شك في أنهم الذين سنُّوا جميع السُّنن وسابقوا إلى المكارم، ولو عُدِّدت مكارمهم وفُسِّرت خواصهم وحُصرت لملأت أسفارًا، ولكلت الأعين بمطالعتها حيارى.

وعن هذه الجملة قال ﷺ فيما أخرجه البزار عن جابر بن عبدالله

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء ح٢٤٩ (٣/ ١٤٠).

(٢) رواه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، وابن ماجة في كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص(٣٤٦) رقم الحديث (٢٣٤٤).

(٣) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ح١٠١٧ (٧/ ١٠٧).

مرفوعًا: «**إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا ـ فجعلهم أصحابي**» وقال: «**في أصحابي كلهم خير**»[(١)] وكذلك قال: «**اتقوا الله في أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه**»[(٢)] وكفى من ذلك كله ثناء الله تعالى عليهم جملة وتفصيلاً وتعيينًا وإبهامًا، ولم يحصل شيء من ذلك لمن بعدهم، فأما استدلال المخالف بقوله ﷺ: «**إخواننا**» فلا حجة فيه؛ لأن الصحابة قد حصل لهم من هذ الأخوة الحظ الأوفر؛ لأنها الأخوة اليقينية العامة، وانفردت الصحابة بخصوصية الصحبة. وأما قوله: «**للعامل منهم أجر خمسين منكم**» فلا حجة فيه؛ لأن ذلك ـ إن صح ـ إنما هو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه قد قال ﷺ في آخره: «**لأنكم تجدون على الخير أعوانًا ولا يجدون**»[(٣)] ولا بُعد في أن يكون في بعض الأعمال لغيرهم من الأجور أكثر مما لهم فيه ولا تلزم منه الفضيلة المطلقة التي هي المطلوبة بهذا البحث، والله أعلم»[(٤)].

المفاضلة بين الصحابة:

لقد دلَّت نصوص الشرع على وقوع التفاضل بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾[(٥)]. وهذا التفضيل لا يفضي إلى تنقيص المفضول إذ ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[(٦)]. وقال ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: «**كنا نخير**

---

(١) الحديث عند الطبري في صريح السنة ص(٢٣)، ومجمع الزوائد للهيثمي (١٠/١٦)، وذكره أبوإسحاق الحويني في كتابه النافلة في الأحاديث الضعيفة والباطلة ص(٧٢). ولم أجده عند البزار كما ذكر القرطبي.

(٢) سبق تخريجه ص(٥٩٣).

(٣) سبق تخريجه (٥٩٤).

(٤) المفهم (١/٥٠١).

(٥) سورة الحديد، الآية: ١٠.

(٦) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

بين الناس في زمن النبي ﷺ فخير أبابكر ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان»[١] فأهل السنة على إثبات التفاضل بين الصحابة - رضي الله عنهم - وتفاوتهم في الفضيلة، فهم يقدمون الصديق رضي الله عنه ثم عمر على غيرهم من الصحابة، وهذا أمر متفق عليه بين أهل السنة. قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: **«سألت النبي ﷺ من أحب الناس إليك قال: «عائشة» قلت من الرجال؟ قال: «أبوها» قلت: ثم من؟ قال: «عمر بن الخطاب» فعد رجالاً**[٢].

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو واقف على عمر في سرير موته بعد أن ترحم عليه: «ما خلفت أحدًا أحب إليَّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك وحسبت أني كثيرًا أسمع النبي ﷺ يقول: **«ذهبت أنا وأبوبكر وعمر ودخلت أنا وأبوبكر وعمر، وخرجت أنا وأبوبكر وعمر»**[٣].

قال ابن تيمية: «أماتفضيل أبي بكر ثم عمر على عثمان وعلي فهذا متفق عليه بين أئمة المسلمين المشهورين بالإمامة في العلم والدين من الصحابة والتابعين وتابعهم»[٤].

أما عثمان وعلي - رضي الله عنهما - فقد وقع اختلاف يسير في تقديم أحدهما إلاَّ أن الأمر استقر بعد ذلك على تقديم عثمان - رضي الله عنه - قال يحيى بن سعيد[٥]: «من أدركت من أصحاب النبي ﷺ والتابعين لم يختلفوا

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ ح(٣٦٥٥) (٧/ ٢٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: **«لو كنت متخذًا خليلاً»** ح(٣٦٦٢) (٧/ ٢٢). ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ح٢٣٨٤ (١٥/ ١٦٣).

(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ح(٣٦٨٥) (٧/ ٥١)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر - رضي الله عنه - ح٢٣٨٩ (١٥/ ١٦٧).

(٤) الفتاوى (٤/ ٤٢١).

(٥) هو يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري، عالم المدينة في زمانه، وتلميذ الفقهاء السبعة، سمع من بعض الصحابة وحدث عنهم توفي سنة (١٤٤هـ). تهذيب التهذيب =

في أبي بكر وعمر وفضلهما إنما كان الاختلاف في علي وعثمان»[١].

قال ابن تيمية: «مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي ـ رضي الله عنهما ـ بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان: وسكتوا أو ربعوا بعلي وقدم قوم عليًا وقوم توقفوا. لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي، وإن كانت هذه المسألة ـ مسألة عثمان وعلي ـ ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة»[٢].

وهذا هو القول الحق وهو الذي اختاره القرطبي ـ رحمه الله ـ ونصره حيث قال: «إذا قلنا إن أحدًا من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فاضل فمعناه أن له منزلة شريفة عند الله تعالى، وهذا لا يتوصل إليه بالعقل قطعًا، فلابد أن يرجع ذلك إلى النقل، والنقل إنما يتلقى من الرسول ﷺ، فإذا أخبرنا الرسول ﷺ بشيء من ذلك تلقيناه بالقبول، فإن كان قطعيًا حصل لنا العلم بذلك، وإن لم يكن قطعيًا كان كسبيل المجتهدات على ماتقدم وعلى ما ذكرناه في الأصول، وإذا لم يكن لنا طريق إلى معرفة ذلك إلاَّ بالخبر. . . فالمقطوع بفضله وأفضليته بعد رسول الله ﷺ عند أهل السنة هو الذي يقطع به من الكتاب والسنة، أبوبكرالصديق ثم عمر الفاروق، ولم يختلف في ذلك أحد من أئمة السلف، ولا الخلف، ولا مبالاة بأقوال أهل التشيع ولا أهل البدع، فإنهم بين مكفر تضرب رقبته، وبين مبتدع مفسق لا تقبل كلمته، وتدحض حجته، وقد اختلف أئمة أهل السنة في علي وعثمان رضي الله عنهما، فالجمهور منهم على تقديم عثمان وقد رُوي عن مالك أنه توقف في ذلك ورُوي عنه أنه رجع إلى ما عليه الجمهور وهو الأصح إن شاء الله والمسألة اجتهادية لا قطعية ومستندها الكلي أن هؤلاء الأربعة: هم الذين

= (٤/ ٣٦٠)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٨).

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٨/ ١٤٤٩)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٧٣).

(٢) العقيدة الواسطية لابن تيمية ضمن الفتاوى (٣/ ١٥٣)، وانظر: الاستيعاب لابن عبدالبر (٣/ ٢١٤)، وفتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٤).

اختارهم الله تعالى لخلافة نبيه ولإقامة دينه فمراتبهم عنده بحسب ترتيبهم في الخلافة إلى ما ينضاف إلى ذلك بما يشهد لكل واحد منهم من شهادات النبي ﷺ له بذلك تأصيلاً وتفصيلاً[١].

والمازري رحمه الله تكلم في هذه المسألة وذكر الأقوال فيها وبين ما حصل من خلاف في بعض تفاصيلها، ولكنه لم يرجح ولم يبد رأيه فيها بل اكتفى بما نقله من أقوال»[٢].

(١) المفهم (٦/ ٢٣٧).
(٢) انظر: المعلم (٣/ ١٣٧، ١٣٨).

المبحث الثاني
عدالتهم وعظم الطعن فيهم

الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كلهم عدول لأن الله تعالى اختارهم واصطفاهم لصحبة نبيه ﷺ.

قال القرطبي: «الصحابة رضي الله عنهم لا فرق بين إسنادهم وإرسالهم إذ الكل عدول على مذهب أهل الحق فلا خلاف في قبول مراسيل الصحابة؛ لأنهم عدول»(١). فالأصل فيهم ـ رضي الله عنهم ـ صحة الإيمان والعدالة(٢).

وقال المازري: «مذهب أفاضل العلماء أن ماوقع من الأحاديث القادحة في عدالة بعض الصحابة والمضيفة إليهم ما لا يليق بهم، فإنهاترد ولا تقبل إذا كان رواتها غير ثقات، فإن أحب بعض العلماء تأويلها قطعًا للشغب ترك ورأيه، وإن رواها الثقات تؤولت على الوجه اللائق بهم إذا أمكن التأويل ولا يقع في روايات الثقات إلاَّ ما يمكن تأويله»(٣).

فالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لا يذمُّهم ولا يطعن فيهم إلاَّ من هو متهم على دين الإسلام؛ لأنهم ـ رضي الله عنهم ـ حملة الشريعة ونقلة الملة، ولذا فالطعن فيهم أو تنقيصهم أو أحد منهم من منهج أهل الضلال والبدع.

قال القرطبي: «من تعرض لسبهم وجَحَدَ عظيم حقهم فقد انسلخ من الإيمان، وقابل الشكر بالكفران... إذ لا خلاف في وجوب احترامهم وتحريم سبهم، ولايختلف في أن من قال: إنهم كانوا على كفر أو ضلال كافر يُقتل؛ لأنه أنكر معلومًا ضروريًّا من الشرع فقد كذب الله ورسوله فيما أخبرا به عنهم، وكذلك الحكم فيمن كفر أحد الخلفاء الأربعة أو ضللهم

---

(١) المفهم (١/ ١٢٢) بتصرف يسير.
(٢) المفهم (١/ ٤٦٩).
(٣) المعلم (٣/ ١٤١).

وهل حكمه حكم المرتد فيستتاب؟ أو حكم الزنديق فلا يستتاب ويقتل على كل حال؟ هذا مما يختلف فيه، فأما من سبهم بغير ذلك، فإن كان سبًّا يوجب حدًّا كالقذف حُدَّ حدّه ثم ينكل التنكيل الشديد من الحبس والتخليد فيه، والإهانة ما خلا عائشة ـ رضي الله عنها ـ فإن قاذفها يقتل؛ لأنه مكذب لما جاء في الكتاب والسنة من براءتها، قاله مالك وغيره، واختلف في غيرها من أزواج النبي ﷺ فقيل: يُقتل قاذفها؛ لأن ذلك أذى للنبي ﷺ وقيل: يحدُّ وينكل كما ذكرناه على قولين، وأما من سبهم بغير القذف، فإنه يجلد الجلد الموجع وينكل التنكيل الشديد»[1].

وعامة من اشتهر بذلك من أهل البدع الروافض، الذين كفروا عامة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولم يستثنوا إلاَّ نفرًا قليلاً منهم، قال القرطبي في الرد عليهم وبيان حكمهم: «فأما الروافض فقد كفروا الصحابة كلهم؛ لأنهم عندهم تركوا العمل بالحق الذي هو النص على عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ واستخلفوا غيره بالاجتهاد، ومنهم من كفَّر عليًّا ـ رضي الله عنه ـ؛ لأنه لم يطلب حقه، وهؤلاء لا يشكّ في كفرهم؛ لأن من كفَّر الأمة كلها، والصدر الأول، فقد أبطل نقل الشريعة، وهدم الإسلام، وأما غيرهم من الفرق، فلم يرتكب أحد منهم هذه المقالة الشنعاء القبيحة القصعاء، ومن ارتكبها منهم ألحقناه بمن تقدم في التكفير ومأواه جهنم وبئس المصير»[2].

---

(١) المفهم (٦/ ٤٩٣)، وانظر: (٦/ ٤٩٤، ٤٩٥، ٧/ ٤٠٧).
(٢) المفهم (٦/ ٢٧٣).

المبحث الثالث
الموقف مما وقع بينهم

كل ما سبق بيانه من فضل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومكانتهم، وبيان عدالتهم وعظم الطعن فيهم، يبين لنا الموقف مما وقع بينهم من فتن؛ إذ قد نص أهل السنة على السكوت عما شجر بينهم، وبيان أن الجميع مجتهد: فمصيبهم له أجران ومخطئهم له أجر واحد[١].

وهذا هو الذي سلكه القرطبي والمازري رحمهما الله. إذ بيَّن القرطبي أن الخلاف الذي وقع بينهم إنما هو بسبب حرصهم على الخير وشدة تمسكهم بالحق، فقال: «الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يبالون في القيام بالحق، وإن أدى إلى العظائم، وهذا هو أعظم الأسباب التي أوجبت الاختلاف بينهم، حتى أدى ذلك إلى الحروب العظيمة والخطوب الجسيمة، فإن كل طائفة كانت ترى أنها المصيبة المحقة، ومخالفتها المخطئة، فإنها كانت أمورًا اجتهادية، ولم يكن فيها نصوص قطعية»[٢].

وقال أيضًا في بيان الموقف الحق مما وقع بينهم: «والذي عليه جماعة أهل السنة والحق حسن الظن بهم، والإمساك عما شجر بينهم، وطلب أحسن التأويل لفعلهم، وأنهم مجتهدون غير قاصدين للمعصية، والمجاهرة بذلك، وطلب حب الدنيا، بل كلٌّ عملٍ على شاكلته وبحسب ما أدَّاه إليه اجتهاده، لكن منهم المخطىء في اجتهاده، ومنهم المصيب، وقد رفع الله تعالى الحرج عن المجتهد المخطىء في فروع الدين، وضعف الأجر للمصيب، وقد توقف الطبري وغيره عن تعيين المحق منهم وعند الجمهور: أن عليًّا وأشياعه مصيبون في ذبهم عن الإمامة وقتالهم من نازعهم فيها إذ كان أحق الناس بها وأفضل من على الأرض حينئذ، وغيره تأول وجوب القيام بتغيير المنكر في طلب قتلة عثمان الذين في عسكر عليٍّ

---

(١) انظر: عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني ص(٢٩٤)، والإمامة والرد على الرافضة للأصبهاني ص(٣٦٣)، وشرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٧٢٤).

(٢) المفهم (٦/ ٦٢٠).

ـ رضي الله عنه ـ وأنهم لا يعطون بيعة ولا يعقدون إمامة، حتى يقضوا ذلك، ولم يطلبوا سوى ذلك، ولم ير هو دفعهم إذ الحكم فيهم إلى الإمام وكانت الأمور لم يستقر استقرارها، ولا اجتمعت الكلمة بعد، وفيهم عدد، ولهم شوكة ومنعة، ولو أظهر تسليمهم أولاً، أو القصاص لاضطرب الأمر وانبتَّ الحَبْلُ، ومنهم جماعة لم يروا الدخول في شيء من ذلك محتجين بنهي النبي ﷺ عن التلبس بالفتن، والنهي عن قتال أهل الدعوة. . . وعذروا الطائفتين بتأويلهم، ولم يروا إحداهما باغية فيقاتلوها»[١].

وبين أن ما وقع بينهم لا يجيز وصف أحدهم بالفسق، أو الابتداع، بل كل منهم مجتهد عمل على حسب ظنه، وهم في ذلك على ما أجمع عليه المسلمون في المجتهدين من القاعدة المعلومة: وهي أن كل مجتهد مأجور غير مأثوم»[٢].

وبيَّن أنه لا خلاف أن علي ـ رضي الله عنه ـ هو الإمام العدل، وأنه أفضل من معاوية، ومن كل من كان معه[٣].

وكذلك المازري بين أن الخلاف الذي وقع بين علي ومعاوية ومن معهما من الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ لا يقتضي تكفير إحدى الطائفتين أو تفسيقها»[٤].

الدفاع عن صحابة بأعيانهم :

تبين لنا فيما سبق المنهج السوي والموقف المرضي مما وقع بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وذلك لئلا يطعن أحد في نزاهتهم أو يشك في صدقهم، فهم صفوة هذه الأمة، وأعلامها، وقادتها، ونقلة ملتها، فالطعن فيهم أو في أحدهم من علامات أهل البدع، ومناهج أهل الأهواء، فنأخذ جميل أفعالهم، ونقتدي بها، وهوالكثير العام، ونغض الطرف عما وقعوا فيه من الأخطاء والذنوب التي وقعوا فيها بمقتضى البشرية، فغمرت هذه

---

(١) المفهم (٧/ ٢١٢).
(٢) المفهم (١/ ١٢٣).
(٣) المفهم (٣/ ١١٦).
(٤) المعلم (٢/ ٢٦).

الزلات في بحر الإحسان والطاعات، قال ابن قدامة: «ومن السنة تولي أصحاب رسول الله ﷺ ومحبتهم وذكر محاسنهم والترحم عليهم والاستغفار لهم، والكف عن ذكر مساوئهم، وما شجر بينهم، واعتقاد فضلهم ومعرفة سابقتهم»[١].

وقال أبونعيم الأصبهاني: «فالواجب على المسلمين في أصحاب رسول الله ﷺ إظهار ما مدحهم الله تعالى به وشكرهم عليه من جميل أفعالهم وجميل سوابقهم، وأن يغضوا عما كان منهم في حال الغضب والإغفال وفرط منهم عند استزلال الشيطان إياهم... فإن الهفوة والزلل والغضب والإفراط لا يخلو منه أحد»[٢].

وهذا المنهج السوي هو الذي سلكه القرطبي ـ رحمه الله ـ فدافع عن الصحابة عمومًا ونافح عن بعضهم على وجه الخصوص خصوصًا من كان عرضة منهم لأهل البدع والأهواء.

ومن هؤلاء الذين دافع عنهم بأعيانهم:

١ ـ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ:

قال القرطبي في الاعتذار له عن تأخره في مبايعة الصديق ـ رضي الله عنه ـ: «لا يظن بعلي أنه خالف الناس في البيعة لكنه تأخر عن الناس لمانع منعه، وهو الموجدة التي وجدها حين استُبِدَّ بمثل هذا الأمر العظيم، ولم يُنتظر مع أنه كان أحق الناس بحضوره وبمشورته، لكن العذر للمبايعين لأبي بكر على ذلك الاستعجال مخافة ثوران الفتنة بين المهاجرين والأنصار، كما هو معروف في حديث السقيفة، فسابقوا الفتنة، فلم يتأت لهم انتظاره لذلك، وقد جرى بينهم في هذا المجلس[٣] من المحاورة والمكالمة والإنصاف ما يدل: على معرفة بعضهم بفضل بعض وأن قلوبهم متفقة على احترام بعضهم لبعض ومحبة بعضهم لبعض ما يَشْرَقُ به الرافضي

---

(١) لمعة الاعتقاد ص(٣٢).

(٢) الإمامة والرد على الرافضة ص(٣٤١، ٣٤٢).

(٣) وهو ما أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ح(٤٢٤٠،٤٢٤١) (٧/ ٥٦٤)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: **«لا نورث ما تركنا فهو صدقة»** ح١٧٥٨ (١٢/ ٣٢٠).

اللعين وتُشْرِق به قلوب أهل الدين»[١].

وقال في رده على الشيعة فيما نسبوه إلى علي ـ رضي الله عنه ـ من بغضٍ للشيخين وعداءٍ لهما، وحاشاه ـ رضي الله عنه ـ من ذلك: هذا الحديث[٢] ردٌّ من علي ـ رضي الله عنه ـ على الشيعة فيما ينقولونه عليه من بغضه للشيخين ونسبته إياهما إلى الجور في الإمامة وأنهما غصباه، وهذا كله كذب وافتراء، عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ منه براء بل المعلوم من حاله معهما تعظيمه ومحبته لهما واعترافه بالفضل لهما عليه وعلى غيره وحديثه هذا ينص على هذا المعنى، وقد تقدم ثناء عليٍّ على أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ واعتذاره عن تخلفه عن بيعته وصحة مبايعته له، وانقياده له، مختارًا طائعاً سرًّا وجهرًا، وكذلك فعل مع عمر ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وكل ذلك يكذب الشيعة والروافض في دعواهم لكن الهوى والتعصب أعماهم»[٣].

وكذلك رد على من نسب إلى عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ الإعانة على قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ أو التقصير في نصرته حيث قال: «بنوأمية[٤]

---

(١) المفهم (٣/ ٥٧٠).

(٢) وهو حديث ثناء علي على عمر رضي الله عنهما عند موته وقد سبق تخريجه ص(٥٩٦).

(٣) المفهم (٦/ ٢٥٢).

(٤) أرى القرطبي رحمه الله تحامل على بني أمية وذمهم وقدح فيهم، وبالغ في ذلك ومما لا شك فيه أنهم مع ما لهم من المساوىء إلاَّ أن لهم من المحامد: من نصرة الإسلام، ونشر دين الله في شتى البلاد ما لا يخفى، . ولكن لقرب عهدهم بالخلافة الراشدة، بانت عيوبهم، وظهرت، كما أنَّ أكثر المصادر قد كتبت في عهد العباسيين فشحنت أكثرها بروايات مدسوسة للنيل من هؤلاء الخلفاء، والتشنيع عليهم. قال القرطبي في ذمهم بعدما ذكر فضائل آل البيت وحقوقهم: ومع ذلك فقد قابل بنو أمية عظم هذه الحقوق بالمخالفة والعقوق، فسفكوا من أهل البيت دماءهم وسبوا نساءهم وأسروا صغارهم، وخربوا ديارهم، وجحدوا شرفهم، وفضلهم، واستباحوا سبهم، ولعنهم، فخالفوا رسول الله ﷺ في وصيته، وقابلوه بنقيض مقصوده وأمنيته، فواخجلهم إذا وقفوا بين يديه، ويا فضيحتهم يوم يعرضون عليه. المفهم (٦/ ٣٠٤)، وانظر(٦/ ٣١٠).
وقال أيضًا: «فيزيد ـ بن معاوية ـ وأكثر ولاته ومن بعده من خلفاء بني أمية هم الذين يصدق عليهم أنهم «دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها» فإنهم لم يسيروا بالسواء ولا عدلوا في القضاء، يدل على ذلك تصفح أخبارهم، ومطالعة سيرهم، ولا =

كانوايسبون علياً وينتقصونه وذلك كان منهم لما وقر في أنفسهم من أنه أعان على قتل عثمان، وأنه أسلمه لمن قتله، بناءً منهم على أنه كان بالمدينة، وأنه كان متمكناً من نصرته، وكل ذلك ظن كذب، وتأويل باطل، غطَّى التعصب منه وجه الصواب، وقد قدمنا أن علياً ـ رضي الله عنه ـ أقسم بالله أنه ما قتله ولا مالا على قتله ولا رضيه، ولم يقل أحد من النقلة قط ولا سُمع من أحد أن علياً كان مع القتلة ولا أنه دخل معهم الدار عليه. وأما ترك نصرته فعثمان ـ رضي الله عنه ـ أسلم نفسه ومنع نصرته كما ذكرناه في بابه ومما تشبثوا به أنهم نسبوا علياً إلى ترك أخذ القصاص من قتلة عثمان، وإلى أنه منعهم منهم، وأنه قام دونهم، وكل ذلك أقوال كاذبة أنتجت ظنوناً غير صائبة ترتب عليها ذلك البلاء كما سبق به القضاء»[١].

ووجه القرطبي ذم العباس لعلي ـ رضي الله عنهما ـ عندما شكاه إلى عمر بما يتناسب مع مكانة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ[٢].

٢ ـ معاوية ـ رضي الله عنه ـ:

تعرض معاوية ـ رضي الله عنه ـ لطعن الشيعة وذمهم، وليسوا ممن يؤخذ منهم، لكن ربما تأثر بقولهم بعض المنتسبين للسنة، فلم يحسنوا الظن بمعاوية ـ رضي الله عنه ـ قال القرطبي في الثناء على معاوية ـ رضي الله عنه ـ والدفاع عنه فيما نسب إليه من لعن علي وذمه: «يبعد على معاوية أن يصرح بلعن علي وسبه، لما كان معاوية موصوفاً به من الفضل والدين،

= يعترض على هذا بمدة خلافة عمر بن عبدالعزيز بأنها كانت خلافة عدل لقصرها، وندورها في بني أمية، فقد كانت سنتين وخمسة أشهر، فكأن هذا الحديث لم يتعرض لها، والله تعالى أعلم» المفهم (٤/ ٥٦).

قال شيخ الإسلام: «بنو مروان لم يقتلوا على الإطلاق أحدًا من بني هاشم لا آل علي ولا آل العباس، إلاَّ زيد بن علي المصلوب بكناسة الكوفة، وابنه يحيى ولا سبىَ أهل البيت أحد ولا سُبي منهم أحد انظر: الفتاوى (٢٧/ ٤٨١).

وقال أيضًا: ويزيد لم يأمر بقتل الحسين ولم يظهر الرضا به. منهاج السنة (٨/ ١٤١).

وقال: «وأعظم ما نقمه الناس على بني أمية شيئان أحدهما: تكلمهم في علي، والثاني: تأخير الصلاة عن وقتها» منهاج السنة (٨/ ٢٣٩).

(١) المفهم (٦/ ٢٧٢).

(٢) انظر: المفهم (٣/ ٥٦١).

والحلم وكرم الأخلاق، وما يروى عنه من ذلك، فأكثره كذب لا يصح. . . أما التصريح باللعن وركيك القول، مما اقتحمه جهال بني أمية وسفلتهم فحاش معاوية منه، ومن كان على مثل حاله من الصحبة والدين والفضل والعلم»[1].

وكذلك المازري دافع عن هذا الصحابي الجليل فقال: «معاوية من عدول الصحابة وأفاضلهم وما وقع من الحروب بينه وبين علي وما جرى بين الصحابة من الدماء فعلى التأويل والاجتهاد[2].

٣ ـ عائشة ـ رضي الله عنها ـ:

نال عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما نال غيرها من الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ من الشيعة أهل الكذب والافتراء، عندما أولوا إتمامها في السفر على أنها كانت في سفر معصية، فقال القرطبي مدافعًا عنها: هذا باطل قطعًا فإنها كانت اتقى لله وأخوف وأطوع من أن تخرج في سفر لا يرضاه الله تعالى، وهذا التأويل عليها من أكاذيب الشيعة المبتدعة وتشنيعاتهم عليها ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[3] وإنما خرجت ـ رضي الله عنها ـ مجتهدة محتسبة في خروجها تريد أن تطفىء نار الفتنة ثم خرجت الأمور عن ضبطها وأقل درجاتها أن تكون ممن قال فيها رسول الله ﷺ «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر**»[4][5].

٤ ـ فاطمة بنت قيس ـ رضي الله عنها ـ:

دافع القرطبي ـ رحمه الله ـ عن هذه الصحابية الجليلة ممن اتهمها بسلاطة اللسان، وإيذاء الجيران، حيث قال: «إنما أذن النبي ﷺ لفاطمة أن تخرج من البيت الذي طلقت فيه لما ذكره مسلم في الرواية الأخرى من أنها خافت على نفسها من عورة منزلها، وفيه دليل على أن المعتدة تنتقل لأجل

---

(١) المفهم (٦/ ٢٧٨). وانظر: (٤/ ٥٣).

(٢) المعلم (٣/ ١٣٩).

(٣) سورة النور، الآية: ١٦.

(٤) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ح٧٣٥٢ (١٣/ ٣٣٠)، ومسلم في كتاب الأقضية باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ح١٧١٦ (١٢/ ٢٥٤).

(٥) المفهم (٢/ ٣٢٧).

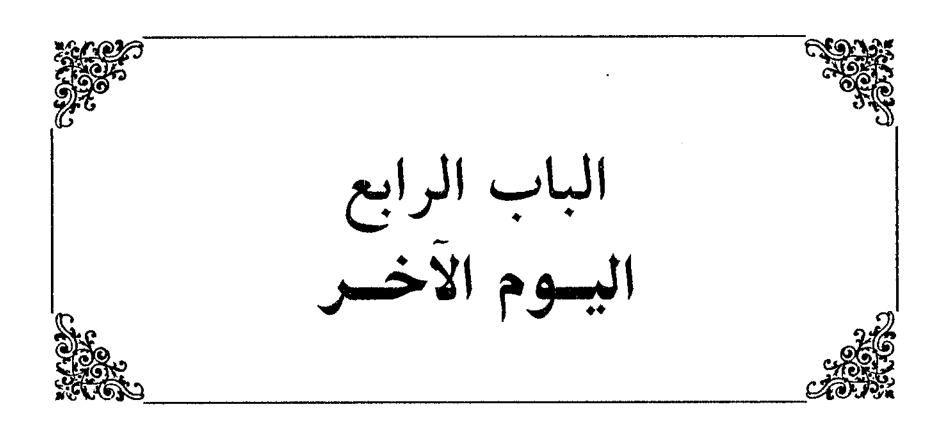
الضرورة وهذا أولى من قول من قال: إنها كانت لسنة تؤذي زوجها وأحماءها بلسانها، فإن هذه الصفة لا تليق بمن اختارها رسول الله ﷺ لحبه وابن حبه[١] وتواردت رغبات الصحابة عليها حين انقضت عدتها، ولو كانت على مثل تلك الحال لكان ينبغي ألا يُرغب فيها ولا يُحرص عليها أيضًا: فلم يثبت بذلك نقل مسند صحيح... ويا للعجب كيف يجترىء ذو دين أن يقدم على غيبة مثل هذه الصحابية التي اختارها النبي ﷺ لحبه ابن حبه لسبب خبر لم يثبت وأعجب من ذلك قول بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾[٢] إنها نزلت في فاطمة لأنها كانت فيها بذاذة لسان وأذى للأحماء وهذا لم يثبت فيه نقل ولا يدل عليه نظر فذكر ذلك عنها ونسبته إليها غيبة أو بهتان[٣].

وقال أيضًا: ويغفر الله تعالى لسعيد بن المسيب ما وقع فيه حيث قال في هذه الصحابية المحتارة: تلك امرأة فتنت الناس إنها كانت لسنة فوضِعَت على يد ابن أم مكتوم وروى عنه أيضًا أنه قال: تلك امرأة استطالت على أحمائها فأمرها النبي ﷺ أن تنتقل فلقد أفحش في القول واغتابها ولابد لها معه من موقف بين يدي الله تعالى[٤].

وقد دافع أيضًا عن كثير من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مما قد ينسب إليهم أو يفهم خطأ عنهم مما لا يليق بهم ولا يتناسب مع مكانتهم: كأبي بكر[٥] وسعيد بن زيد[٦]، وأبي هريرة[٧]، وغيرهم[٨] رضي الله عنهم.

---

(١) وهو أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ١.
(٣) المفهم (٤/ ٢٦٩).
(٤) المفهم (٤/ ٢٧٨).
(٥) انظر: المفهم (٦/ ٢٥٤).
(٦) انظر: المفهم (٤/ ٥٣٦).
(٧) انظر: المفهم (٤/ ٣٧٩، ٤٥٠).
(٨) انظر: المفهم (٧/ ٣٧٩).



الباب الرابع
اليــوم الآخــر

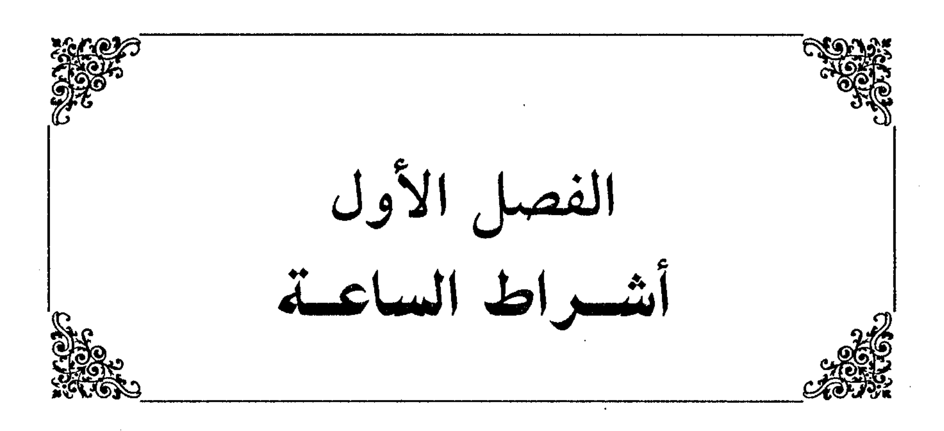
وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: **أشراط الساعة**

الفصل الثاني: **فتنة القبر وعذابه ونعيمه**

الفصل الثالث: **البعث والحشر**

الفصل الرابع: **الجنة والنار**



الفصل الأول
أشــراط الساعــة

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: **تعريف أشراط الساعة وأقسامها**

المبحث الثاني: **أشراط الساعة الصغرى**

المبحث الثالث: **أشراط الساعة الكبرى**

تمهـــيد

لقد أخفى الله تعالى عن عباده وقت وقوع الساعة فلا يعلم أحد متى تقوم الساعة، إلاَّ هو ـ سبحانه وتعالى ـ كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[(١)].

وعندما سأل جبريل ـ عليه السلام ـ الرسول ﷺ عن الساعة قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأحدثك عن أشراطها**»[(٢)].

قال القرطبي: «قوله: «**متى تقوم الساعة**» مقصود هذا السؤال امتناع السامعين من السؤال عنها إذ قد كانوا أكثروا السؤال عن تعيين وقتها، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾[(٣)] و﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ﴾[(٤)] وهو كثير في الكتاب والسنة، فلما أجابه النبي ﷺ بأنه لا يعلمها إلاَّ الله يئس السائلون من معرفتها، فانكفوا عن السؤال عنها، وهذا بخلاف الأسئلة الأُخر، فإن مقصودها استخراج الأجوبة عنها ليستعملها السامعون ويعمل بها العاملون»[(٥)].

فعلم الساعة مما استأثر الله تعالى بعلمه، ولكن الله تعالى جعل لها أشراطًا، وهي الآيات والعلامات الدالة على قربها.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

(٢) سبق تخريجه ص(١٠٦).

(٣) سورة النازعات، الآية: ٤٢.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٦٣.

(٥) المفهم (١/ ١٥٤).

المبحث الأول
تعريف أشراط الساعة وأقسامها

أولاً : تعريف أشراط الساعة :

قال القرطبي: «الأشراط: هي الأمارات والعلامات، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ﴾[(١)] وبها سُمِّي الشُّرط لأنهم يَعَلِّمون أنفسهم بعلامات يعرفون بها»[(٢)].

وقال المازري: «أشراط الساعة بمعنى علاماتها ومنها سُمُّوا أصحاب الشرط؛ لأنه كان لهم في القديم علامات يعرفون بها ومنه: الشرط في كذا بمعنى أنه عَلَمٌ عليه»[(٣)].

وفي معنى الساعة قال القرطبي: «الساعة في أصل الوضع: مقدار ما من الزمان غير معين ولا محدود لقوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾[(٤)].

وفي عرف أهل الشرع: «عبارة عن يوم القيامة، وفي عرف المعدلين[(٥)] جزء من أربعة وعشرين جزءًا من أوقات الليل والنهار»[(٦)].

ثانيًا : أقسامها :

بين القرطبي أن أشراط الساعة تنقسم إلى قسمين، فقال عند شرحه لحديث جبريل: «اقتصر في هذا الحديث على ذكر بعض الأشراط التي يكون وقوعها قريبًا من زمانه وإلاَّ فالشروط كثيرة، وهي أكثر مما ذكر هنا كما دل عليه الكتاب والسنة، ثم إنها منقسمة إلى ما يكون المعتاد، كهذه الأشراط المذكورة في هذا الحديث، وكرفع العلم وظهور الجهل، وكثرة الزنى، وشرب الخمر، إلى غير ذلك، وأما التي ليست من النوع المعتاد:

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٨.
(٢) المفهم (١/ ١٤٧).
(٣) المعلم (٢/ ١٤٨).
(٤) سورة الروم، الآية: ٥٥.
(٥) «المعدِّلون: «المشتغلون بالحساب وتقدير الزمن».
(٦) المفهم (١/ ١٤٧).

كخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، ودابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها والدخان، والنار التي تسوق الناس وتحشرهم»[١].

والتي تكون من النوع المعتاد هي أشراط الساعة الصغرى وقد يظهر بعضها مصاحبًا للأشراط الكبرى أو بعدها. والتي تكون من النوع غير المعتاد هي أشراط الساعة الكبرى، والتي تظهر قرب قيام الساعة[٢].

---

(١) المفهم (١/ ١٥٥).

(٢) انظر: أشراط الساعة ليوسف بن عبدالله الوابل ص(٧٧).

المبحث الثاني
أشراط الساعة الصغرى

أشراط الساعة الصغرى كثيرة جدًّا، وقد تحدث القرطبي عن كثير منها يصعب عرضها جميعًا فأكتفي بذكر بعضها طلبًا للاختصار، فمنها:

١ ـ بعثة النبي ﷺ:

قال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» قال أنس ـ رضي الله عنه: «وضم السبابة والوسطى»[(١)].

قال القرطبي «كهاتين: حال أي: مقترنين... وحاصله تقريب أمر الساعة التي هي القيامة وسرعة مجيئها، وهذا كما قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[(٢)] قال الحسن: أول أشراطها محمد ﷺ»[(٣)].

٢ ـ ظهور نار الحجاز:

قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيءُ أعناق الإبل ببصرى**[(٤)]»[(٥)].

وقد ظهرت هذه النار سنة (٦٥٤هـ)، وكانت نارًا عظيمة أفاض العلماء ممن عاصر ظهورها، ومن بعدهم في وصفها، قال النووي: «خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وست مئة، وكانت نارًا عظيمة جدًّا من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة، وتواتر العلم بها عند

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» ح٦٥٠٤ (١١/ ٣٥٥)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة باب قرب الساعة ح٢٩٥١ (١٨/ ٣٠٠).

(٢) سورة محمد، الآية: ١٨.

(٣) المفهم (٧/ ٣٠٥).

(٤) بُصرى: بضم الباء آخرها ألف مقصورة: مدينة معروفة بالشام ويقال: لها حوران بينها وبين دمشق ثلاث مراحل. معجم البلدان (١/ ٤٤١).

(٥) رواه البخاري في كتاب الفتن باب خروج النار ح٧١١٨ (١٣/ ٨٤)، ومسلم في كتاب الفتن، وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ح٢٩٠٢ (١٨/ ٢٤٦).

جميع الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة»[١].

لكن القرطبي ـ رحمه الله ـ في شرحه لهذا الحدث لم يذكر هذا الحديث، وإن كان عاصره في آخر عمره، إذ خرجت هذه النار قبل وفاته بسنتين وخمسة أشهر، ويبعد أن لا يسمع بها طوال هذه المدة، لكن الذي يظهر أنه قد فرغ من تأليف المفهم قبل خروجها، لذا جعل هذه النار هي النار التي تسوق الناس إلى المحشر. حيث قال: «قوله: «**تضيء أعناق الإبل ببصرى**» أي: تكشف بضوئها أعناق الإبل ببصرى، وهي بالشام، فيضيء ـ والله تعالى أعلم ـ أن هذه النار الخارجة من قعر عدن تمر بأرض الحجاز مقبلة على الشام، فإذا قاربت الشام أضاءت ما بينها وبين بصرى، حتى ترى بسبب ضوئها أعناق الإبل»[٢].

وقد ذكر هذه النار وأفاض في وصفها تلميذه القرطبي في كتابه «التذكرة»[٣].

٣ ـ رفع العلم وظهور الجهل:

قال ﷺ: «**إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل...**»[٤].

قال القرطبي: «وقد بيَّن كيفية رفع العلم وظهور الجهل في حديث عبدالله بن عمرو الذي قال فيه: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء...**» الحديث[٥]. وهو نصٌّ في أن رفع العلم لا يكون بمحوه من الصدور، بل: بموت العلماء وبقاء

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٨/ ٢٤٢).
(٢) المفهم (٧/ ٢٤١).
(٣) التذكرة ص(٧٢١).
(٤) رواه البخاري في كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل ح٨٠ (١/ ٢١٣)، ومسلم في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ح٢٦٧١ (١٦/ ٤٦٢).
(٥) رواه البخاري في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم ح١٠٠ (١/ ٢٣٤)، ومسلم في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ح٢٦٧٣ (١٦/ ٤٦٥).

الجهال الذين يتعاطون مناصب العلماء في الفتيا والتعليم يفتون بالجهل ويعلمونه فينتشر الجهل ويظهر، وقد ظهر ذلك ووجد على نحو ما أخبر به ﷺ فكان ذلك دليلاً من أدلة نبوته، وخصوصًا في هذه الأزمان، إذ قد ولي المدارس والفتيا كثير من الجهال والصبيان وحرمها أهل ذلك الشأن»[١].

٤ ـ أن تلد الأمة ربّتها:

قال ﷺ في أمارتها: «**أن تلد الأمة ربتها**»[٢]. قال القرطبي: «الأمة ـ هنا ـ هي: الجارية المستولَدة،، وربها: سيدها... واختلف في معنى قوله: «**أن تلد الأمة ربتها**» على ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد به أن يستولي المسلمون على بلاد الكفر فيكثر التسرّي فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفه بأبيه، وعلى هذا فالذي يكون من أشراط الساعة استيلاء المسلمين على المشركين وكثرة الفتوح والتسرّي.

وثانيها: أن يبيع السادة أمهات أولادهم ويكثر ذلك، فتتداول الأمهات المستولدة، فربما يشتريها ولدها أو ابنتها ولا يشعر بذلك، فيصير ولدها ربَّها، وعلى هذا فالذي يكون من الأشراط غلبة الجهل بتحريم بيع أمهات الأولاد والاستهانة بالأحكام الشرعية، وهذا على قول من يرى تحريم بيع أمهات الأولاد، وهم الجمهور، ويصح أن يحمل ذلك على بيعهن في حال حملهن وهو محرم بالإجماع.

وثالثها: أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة والسب، ويشهد لهذا قوله في حديث أبي هريرة «المرأة» مكان «الأمة» وقوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظًا**»[٣]»[٤].

٥ ـ التطاول في البنيان:

وقد بيَّن ﷺ أنه من علامات الساعة، فقال: «**وأن ترى الحفاة العراة**

---

(١) المفهم (٦/ ٧٠٥).

(٢) سبق تخريجه ص(١٠٦).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٢٨٥) وأبونعيم في الحلية (٩/ ١٣٨)، والحويني في كتابه النافلة في الأحاديث الضعيفة والباطلة ص(١٩٧).

(٤) المفهم (١/ ١٤٨).

العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان»[(١)] قال القرطبي: «هذه الأوصاف هي غالبة على أهل البادية. . . ومقصود هذا الحديث الإخبار عن تبدل الحال وتغيره، بأن يستولي أهل البادية الذين هذه صفاتهم على أهل الحاضرة، ويتملكوا بالقهر والغلبة فتكثر أموالهم، وتتسع في حطام الدنيا آمالهم فتنصرف هممهم إلى تشييد المباني، وهدم الدين، وشريف المعاني، وأن ذلك إذا وجد كان من أشراط الساعة، ويؤيد هذا ما ذكر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع**»[(٢)] وقد شوهد هذا كله عيانًا فكان ذلك على صدق رسول الله ﷺ وعلى قرب الساعة حجة وبرهانًا»[(٣)].

٦ ـ عبادة الأوثان:

قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة**» وكان صنمًا تعبدها دوس في الجاهلية بتبالة[(٤)]. قال القرطبي: «معنى الحديث أن دوسًا يظهر فيها الارتداد عن دين الإسلام، ويرجعون إلى ماكانوا عليه من عبادة الأوثان كما قال في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى**»[(٥)]»[(٦)].

قال الشيخ حمود التويجري[(٧)] ـ رحمه الله ـ: «وقد وقع الأمر طبق ما

---

(١) سبق تخريجه ص(١٠٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٣٨٩)، والترمذي في أبواب الفتن، باب ما جاء في أشراط الساعة، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٤٢).

(٣) المفهم (١/ ١٤٩).

(٤) رواه البخاري في كتاب الفتن، باب تغير الزمان، حتى تعبد الأوثان ح٧١١٦ (١٣/ ٨٢)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة ح٢٩٠٦ (١٨/ ٢٥٠).

(٥) رواه مسلم في كتاب الفتن، وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة ح٢٩٠٧ (١٨/ ٢٥٠).

(٦) المفهم (٧/ ٢٤٤).

(٧) الشيخ حمود بن عبدالله التويجري من العلماء المعاصرين له العديد من المؤلفات غالبها في الردود ولد في المجمعة بنجد سنة (١٣٣٤هـ) طلب العلم على علماء بلده وجدَّ واجتهد حتى فاق الأقران، تولى القضاء في المنطقة الشرقية والزلفى، ثم طلب الإعفاء =

أخبر به رسول الله ﷺ في هذا الحديث الصحيح وعظم افتتان أهل تبالة ومن حولهم من القبائل بذي الخلصة وأعادوا سيرتها الأولى في زمن الجاهلية حتى ظهر شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ[1] فدعا إلى التوحيد وجدد ما اندرس من معالم الدين، وسعى في محو الشرك ووسائله، وما يدعو إليه ويرغب فيه فبعث إمام المسلمين في ذلك الزمان ـ وهو عبدالعزيز بن محمد بن سعود رحمه الله تعالى[2] عليه وعلى من كان السبب في إمامته ـ جماعة من المسلمين إلى ذي الخلصة فخربوها وهدموا بعض بنائها، وبقي بعضه قائمًا، وزال الافتتان بها في زمن ولاية النجديين على الحجاز، ولما زالت ولا يتهم عن الحجاز عاد الجهال إلى ماكانوا عليه من الافتتان بها حتى ولي الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود[3] على الحجاز، وما حوله فبعث عامله على تلك النواحي جماعة من المسلمين فهدموا ما بقي من بنائها ورموا بأنقاضها في الوادي فعفى بعد

= فأعفي وآثر التفرغ للعلم والبحث والتأليف، ولذا بلغت مؤلفاته أكثر من خمسين مؤلفًا منها: «الرد القويم على المجرم الأثيم» «عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن» وغيرها، توفي رحمه الله سنة (١٤١٣هـ). اتحاف النبلاء بسير العلماء ص(١٨٩) من أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر (١/ ٤١).

(١) محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي الإمام المجدد ولد سنة (١١١٥هـ) وطلب العلم على يد والده وعلماء بلده ورحل لطلب العلم في الحجاز والعراق ثم تصدى للدعوة إلى صفاء العقيدة ومحاربته البدع والخرافات ووجد التأييد من الإمام محمد بن سعود أمير الدرعية في زمنه وتعاهدا على نشر الدعوة ومواجهة خصومها حتى نفع الله تعالى بهذه الدعوة وأعاد البلاد نجد وعامة الجزيرة ما اندرس من معالم الدين توفي سنة(١٢٠٦هـ). الأعلام (٦/ ٢٥٧)،علماء نجد خلال ثمانية قرون (١/ ١٢٥).

(٢) الإمام عبدالعزيز بن محمد آل سعود، تولى الملك بعد والده فهو ثاني ملوك الدولة السعودية الأولى زمن الشيخ محمد بن عبدالوهاب توسعت الدولة في عهده كثيرًا، حتى شملت كافة أنحاء الجزيرة اغتيل على يد أحد الأشرار وهو في مسجده في الدرعية سنة (١٢١٨هـ). الأعلام (٤/ ٢٧).

(٣) عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود مؤسس الدولة السعودية الثالثة والتي أطلق عليها المملكة العربية السعودية سنة (١٣٥١هـ) استولى على الرياض وهو شاب في مقتبل عمره حتى دخلت تحت ولايته بلاد نجد والحجاز وعسير والأحساء وغيرها من البلاد حتى توحدت هذه البلاد تحت مسمى «المملكة العربية السعودية» توفي سنة(١٣٧٣هـ) الأعلام (٤/ ١٩).

ذلك رسمها وانقطع أثرها ولله الحمد والمنة[١].

٧ ـ حسر الفرات عن جبل من ذهب :

قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه فيُقتلُ من كل مئة تسعة وتسعون ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو**»[٢].

قال القرطبي: «قوله: «**يحسر الفرات عن جبل من ذهب**» أي: يكشف، ومنه حسرت المرأة عن وجهها، أي: كشفت، والحاسر: الذي لا سلاح عليه، وكأن هذا إنما يكون إذا أخذت الأرض تقيء ما في جوفها كما تقدم في كتاب الزكاة[٣]»[٤].

٨ ـ عودة أرض العرب مروجًا وأنهارًا :

قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**»[٥].

قال القرطبي: «أي تنصرف دواعي العرب عن مقتضى عاداتهم من انتجاع الغيث والارتحال في المواطن للحروب والغارات، ومن نخوة

---

(١) إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة للشيخ حمود التويجري (٢/ ٢٢٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن، باب خروج ح٧١١٩ (١٣/ ٨٤)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب ح٢٨٩٤ (١٨/ ٢٣٥).

(٣) قال في كتاب الزكاة، جاء في الحديث: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب» رواه مسلم في كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ح١٠١٣ (٧/ ١٠٢).
وهذا عبارة عما تخرج الأرض من الكنوز والندرات ـ وهي القطعة من الذهب ـ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ الزلزلة: ٢، أي: كنوزها على أحد التفسيرين وقيل: موتاها. المفهم (٣/ ٥٦).

(٤) المفهم (٧/ ٢٢٨).

(٥) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ح١٠١٢ (٧/ ١٠١).

النفوس العربية الكريمة الأبية إلى أن يتقاعدوا عن ذلك فينشغلوا بغراسة الأرض وعمارتها، وإجراء مياهها، كما قد شوهد في كثير من بلادهم وأحوالهم»[١].

وقد تحدث عن كثير من هذه الأشراط سوى المذكورة كظهور الفتن[٢]، وصدق رؤيا المؤمن[٣]، وكثرة المال[٤]، وظهور الكذابين[٥]، وتمني الموت من شدة البلاء[٦]، وقتال اليهود[٧] وغيرها[٨].

---

(١) المفهم (٣/ ٥٧).
(٢) انظر: المفهم (٧/ ٢١١، ٢١٥).
(٣) انظر: المفهم (٦/ ١٠).
(٤) انظر: المفهم (٣/ ٥٧، ٧/ ٢٥٣).
(٥) انظر: المفهم (٤/ ١٠).
(٦) انظر: المفهم (٧/ ٢٤٥).
(٧) انظر: (٧/ ٢٥١).
(٨) انظر: المفهم (١/ ٣٦٤، ٧/ ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨).

المبحث الثالث
أشراط الساعة الكبرى

١ ـ المهدي :

وهو عبدٌ صالح من أهل البيت يخرج في آخر الزمان، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا. «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر، والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم»[١].

والقرطبي ـ رحمه الله ـ أثبت خروج المهدي كما جاءت به النصوص وذلك عند شرحه لقوله ﷺ: **«يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثيًا ولا يعده عددًا»**[٢]. حيث قال: روى الترمذي وأبوداود أحاديث صحيحة في هذا الخليفة وسمياه المهدي فروى الترمذي عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي»** قال: حديث حسن صحيح[٣].

وخرجه أبوداود وزاد فيه: **«يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا»**[٤] ومن حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ **«لو لم يبق من الدنيا إلاَّ يوم لطوَّل الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي»** قال: حديث حسن صحيح[٤]، ومن حديث أبي سعيد قال: خشينا أن يكون بعد نبينا حدث فسألناه فقال: **«إن في أمتي المهدي يخرج يعيش خمسًا أو سبعًا أو تسعًا»** زيد الشاك. قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: «**سنين. قال: فيجيء**

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير (١/ ٣١).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ح٢٩١٣ (١٨/ ٢٥٤).

(٣) رواه الترمذي في أبواب الفتن، باب ما جاء في المهدي، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٤٧).

(٤) أخرجه أبوداود في كتاب المهدي وحسنه الألباني انظر: صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٠٨).

إليه الرجل فيقول: يا مهدي أعطني يا مهدي أعطني قال: فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله»[(١)] قال: هذا حديث حسن وروى أبوداود من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**المهدي في أمتي: أجلى الجبهة أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت جورًا وظلمًا يملك سبع سنين**»[(٢)].

وروى أيضًا أبوداود عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هاربًا إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعث من أهل الشام، فيخسف بهم بالبيداء، بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك آتاه أبدال أهل الشام، وعصائب أهل العراق، فيبايعونه ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث إليهم بعثًا فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب، فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم، ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض، فيلبث سبع سنين ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون**»[(٣)] وفي رواية «تسع سنين» فهذه أخبار صحيحة ومشهورة عن النبي ﷺ تدل على خروج هذا الخليفة الصالح في آخر الزمان، وهو ينتظر إذ لم يسمع كملت له جميع تلك الأوصاف التي تضمنتها تلك الأخبار والله تعالى أعلم»[(٤)].

فالقرطبي ـ رحمه الله ـ أثبت خروج المهدي كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، وحشد الأدلة في الرد على من خالفهم فيه، قال السفاريني ـ رحمه الله ـ: «قد كثرت الأقوال في المهدي حتى قيل لا مهدي إلاَّ عيسى، والصواب الذي عليه أهل الحق أن المهدي غير عيسى، وأنه يخرج قبل

---

(١) رواه الترمذي في أبواب الفتن، باب ما جاء في المهدي وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٤٧).

(٢) رواه أبوداود في كتاب المهدي وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٠٨).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٣١٦)، وأبوداود في كتاب المهدي وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤/ ٤٣٥) حديث ١٩٦٥.

(٤) المفهم (٧/ ٣٥٢ـ ٣٥٤).

نزول عيسى عليه السلام، وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي، وشاع ذلك بين علماء السنة، حتى عدَّ من معتقداتهم»[١].

٢ ـ المسيح الدجال:

خروج الدجال يكون في آخر الزمان، وهو من أشراط الساعة الكبرى، وقد حذَّر الرسول ﷺ منه وبين أن جميع الأنبياء قد حذروا أممهم منه لعظم فتنته، وشدة الابتلاء به، فقال ﷺ: «**إني لأنذركموه ما من نبي إلَّا وأنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكن أقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لقومه، إنه أعور، وإن الله تبارك وتعالى ليس بأعور... إنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه من كره عمله أو يقرؤه كل مؤمن وتعلمون أنه لن يرى أحد منكم ربه عزَّوجل حتى يموت**»[٢].

وقد بيَّن القرطبي أن تحذير الأنبياء ـ عليهم السلام ـ منه بسبب عظم فتنته، وأن فائدة هذا التحذير الإيمان بوجوده، كما جاءت بذلك الآثار، وهو مذهب أهل السنة، ورد على منكري الدجال من المبتدعة، وذلك عند شرحه لهذا الحديث حيث قال: «إنما كان هذا من الأنبياء لما علموا من عظيم فتنته، وشدة محنته، ولأنهم لما لم يعين لواحد منهم زمان خروجه توقع كل واحد منهم خروجه في زمان أمته فبالغ في التحذير، وفائدة هذا الإنذار الإيمان بوجوده، والعزم على معاداته، ومخالفته، وإظهار تكذيبه، وصدق الالتجاء إلى الله تعالى في التعوذ من فتنته، وهذا مذهب أهل السنة وعامة أهل الفقه والحديث خلافًا لمن أنكر أمره وأبطله، من الخوارج وبعض المعتزلة»[٣].

«وسمي الدجال مسيحًا لأنه ممسوح العين اليمنى، أو لأنه مسح

---

(١) لوامع الأنوار للسفاريني (٢/ ٨٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير باب كيف يعرض الإسلام على الصبي ح٣٠٥٧، (٦/ ١٩٩)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد ح٢٩٣٠ (١٨/ ٢٦٨).

(٣) المفهم (٧/ ٢٦٧).

الأرض أي: قطعها بالذهاب ومن سماه المسيخ بالخاء فهو من المسخ[١].

وشدة الابتلاء به لِمَا أظهر الله تعالى على يديه من خوارق العادات من إنزال المطر والخصب على من يصدقه والجدب على من يكذبه، واتباع كنوز الأرض له، وما معه من جنة ونار، ومياه تجري، كل ذلك محنة من الله واختبار ليهلك المرتاب، وينجو المتيقن، وكل هذا أمر مخوف[٢].

وما مع الدجال من هذه حقيقة لا خيال، كما زعم ذلك الجهمية، وبعض المعتزلة. قال ابن كثير: «إن الدجال يمتحن الله به عباده بما يخلقه معه من الخوارق المشاهدة في زمانه، ثم ذكر الخوارق التي معه ثم قال: وهذا كله ليس بمخرقة بل له حقيقة امتحن الله بها عباده في آخر الزمان، فَيُضلُّ به كثيرًا ويهدي به كثيرًا يكفر المرتابون ويزداد الذين آمنوا إيمانًا»[٣].

وقد رد القرطبي على هؤلاء الذين زعموا أن ما معه من باب الخيال فقال: «الجبائي من المعتزلة ومن وافقنا على إثباته من الجهمية وغيرهم زعموا أن ما عنده مخارق وحيل قال: لأنها لو كانت أمورًا صحيحة لكان ذلك إلباسًا للكاذب بالصادق، وحينئذ لا يكون فرق بين النبي والمتنبيء وهذا هذيان لا يلتفت إليه، فإن هذا إنما كان يلزم لو أن الدجال يدعي النبوة، وليس كذلك، فإنه إنما ادعى الإلهية، وكذبُه في هذه الدعوى واضح للعقول، إذ أدلة حدثه ونقصه وفقره مُدرَكٌ بأول الفطرة، بحيث لا يجهله من له أدنى فكرة، وقد زاد النبي ﷺ هذا المعنى إيضاحًا في هذه الحديث من ثلاثة أوجه:

أحدها: بقوله: «**ولكن أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لأمته، إنه أعور وإن الله ليس بأعور**» وهذا تنبيه للعقول القاصرة أو الغافلة على أن من كان ناقصًافي ذاته عاجزًاعن إزالة نقصه،لم يصلح لأن يكون إلهًالعجزه وضعفه، ومن كان عاجزًا عن إزالة نقصه، كان أعجز عن نفع غيره، وعن مضرته.

---

(١) المفهم (١/ ٣٩٨)، والمعلم (١/ ٢٢٢).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١١١).

(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٢١).

وثانيها: قوله: «**أنه مكتوب بين عينيه «كافر» يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب**» وهذا أمرٌ مشاهد للحس يشهد بكذبه وكفره.

وثالثها: قوله: «**تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت**» وهذا نصٌّ جليٌّ في أن الله تعالى لا يُرى في هذه الدار... وحاصل هذا: أن الصادق قد أخبر أن الله تعالى لا يراه أحد في الدنيا، والدجال يراه الناس، فليس بإله، وهذا منه ﷺ نزول إلى غاية البيان بحيث لا يبقى معه ريبة لإنسان»[١].

وقد رد القرطبي سائر تأويلاتهم وشبهاتهم المتعلقة بهذه المسألة[٢].

هل ابن صياد هو الدجال؟:

ويقال له: ابن صائد، واسمه صاف، ذكر أن نسبه في بني النجار، وقيل: من اليهود، وكانوا حلفاء بني النجار، وكانت حاله في صغره حالة الكهان يصدق مرة ويكذب مرارًا، ثم إنه أسلم لما كبر وظهرت منه علامة الخير من الحج والجهاد مع المسلمين، ثم ظهرت منه أحوال وسمعت منه أقوال له تشعر بأنه الدجال، وبأنه كافر، وقيل: إنه تاب ومات بالمدينة، وقيل: فقد يوم الحرة ولم يوقف عليه[٣].

قال القرطبي: «اختلف بابن صياد، هل هو الدجال أم لا؟ وقد ذكره ابن جرير وغيره في الصحابة غير أنه قد ظهرت منه أمور بعضها كفر وبعضها يشعر بأنه الدجال، وهي أمور تقارب النص أنه هو، وأما ما ورد من إسلامه وحجه وغير ذلك من أعمال تنافي حال الدجال، فقد يكون أسلم ثم كفر أو يكون هذا منه من باب النفاق.

وأما كون الدجال لا يولد له ولا يدخل مكة ولا المدينة وابن صياد ولد له ودخل مكة والمدينة، فربما يكون هذا من الدجال إذا خرج على الناس، وقد اجتمعت قرائن كثيرة تفيد أن ابن صياد هو الدجال، ولذلك

---

(١) المفهم (٧/ ٢٦٧).
(٢) انظر: المفهم (٧/ ٢٦٨، ٢٦٩).
(٣) المفهم (٧/ ٢٦٢).

كان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قد اعتقد ذلك، وصمم عليه، بحيث كان يحلف على ذلك، وكذلك جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ وعلى الجملة فأمره كله مشكلة على الأمة، وهوفتنة ومحنة والله أعلم بحقيقته»[١].

والرسول ﷺ لم يَعْلَم بحقيقة ابن صياد هل هو الدجال أم لا؟.

ولذا قال: ﷺ لعمر حينما استأذنه في قتل ابن صياد: «**إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله**»[٢].

قال القرطبي: «هذا يدل على أن النبي ﷺ لم يتضح له شيء من أمر كونه هو الدجال أم لا؟ وليس هذا نقصًا في حق النبي ﷺ؛ لأنه لم يكن يعلم إلاَّ ما علمه الله، وهذا مما لم يعلمه الله تعالى به، ولا هو مما تُرهِق إلى علمه حاجة لا شرعية ولا عادية ولا مصلحية، ولعل الله تعالى قد علم في إخفائه مصلحة فأخفاه، والذي يجب الإيمان به: أنه لابد من خروج الدجال يدعى الإلهية، وأنه كذاب أعور كما جاء في الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي قد حصلت لمن عاناها العلم القطعي بذلك[٣].

من ينجو من فتنته:

الذي ينجو من فتنة الدجال هو الذي صدق في إيمانه وتوكله على الله سبحانه، قال القرطبي: «لا شك في أن من صح إسلامه في ذلك الوقت أنه يكفى تلك الفتن... قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٤] أي: كافيه مشقة ما توكل عليه فيه، وموصله إلى مايصلحه منه، ومع هذا فقد أرشد النبي ﷺ إلى ما يقرؤه على الدجال فيؤمن من فتنته وذلك عشر آيات من أول سورة الكهف أو آخرها على اختلاف في ذلك، والاحتياط والحزم يقتضي أن يقرأ عشرًا من أولها، وعشرًا من آخرها، على أنه قد روى أبوداود من حديث النواس: «**فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، فإنها جوار**

---

(١) انظر: المفهم (٧/ ٢٦٢، ٢٧٠، ٢٧٢).
(٢) هو جزء من الحديث الذي سبق تخريجه في تحذير النبي ﷺ من الدجال ص(٦٢٢).
(٣) المفهم (٧/ ٢٦٥).
(٤) سورة الطلاق، الآية: ٣.

لكم من فتنته»[١]»[٢].

٣ ـ **نزول عيسى عليه السلام :**

عيسى ـ عليه السلام ـ أحد الأنبياء الكرام الذين فضلهم الله تعالى على العالمين، وقد كذَّبه اليهود وآذوه، وحاولوا قتله، لكن الله تعالى حفظه منهم: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[٣] ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾[٤].

قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويقبض المال، حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها**» ثم يقول أبوهريرة: «واقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾[٥] ﴾[٦]».

وتقدم حديث حذيفة بن أسيد في ذكر الآيات العشر وفيه: «**ونزول عيسى ابن مريم**».

فالأدلة قد تضافرت على إثبات نزوله عليه السلام في آخر الزمان، ونزوله من علامات الساعة الكبرى.

قال ابن كثير: «تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر «بنزول عيسى ـ عليه السلام ـ قبل يوم القيامة إمامًا عادلاً وحكمًا مقسطًا»[٧].

قال الطحاوي: «ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجال ونزول

---

(١) رواه أبوداود في كتاب الملاحم باب خروج الدجال والحديث أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف، وآية الكرسي ح٨٠٩ (٦/ ٣٤٠)، بلفظ: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال».

(٢) المفهم (٧/ ٢٧٧).

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٨.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

(٦) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسي ابن مريم عليه السلام ح٣٤٤٨ (٦/ ٥٦٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ ح١٥٥ (٢/ ٥٤٨).

(٧) تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٣).

عيسى ابن مريم ـ عليه السلام من السماء»[١].

قال ابن تيمية: «والمسيح[٢] ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى سائر النبيين لابد أن ينزل إلى الأرض... كما ثبت في الأحاديث الصحيحة، ولهذا كان في السماء الثانية مع أنه أفضل من يوسف وإدريس وهارون؛ لأنه يريد النزول إلى الأرض قبل يوم القيامة بخلاف غيره»[٣].

هذا هو قول أهل السنة وهو الذي نصره القرطبي ـ رحمه الله ـ وأيَّده إذ قال بعد ذكره للأحاديث المثبتة لنزول عيسى ـ عليه السلام ـ: «تضمنت تلك الأحاديث المتقدمة أن عيسى عليه السلام ينزل ويقتل الدجال، وهو مذهب أهل السنة، والذي دل عليه قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾[٤] والأحاديث الكثيرة الصحيحة المنتشرة، وليس في العقل ما يحيل ذلك ولا يرده، فيجب الإيمان به والتصديق بكل ذلك، ولا يبالى بمن خالف ذلك من المبتدعة، ولا حجة لهم في اعتمادهم في نفي ذلك على التمسك بقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[٥] وبما ورد في السنة من أنه لا نبي بعده ولا رسول[٦]، ولا بإجماع المسلمين علي ذلك، ولا على أن شرعنا لا ينسخ، وهذا ثابت إلى يوم القيامة، لأنا نقول بموجب ذلك كله؛ لأن عيسى عليه السلام إنما ينزل لقتل الدجال، ولإحياء شريعة محمد ﷺ، وليعمل بأحكامها، وليقيم العدل على مقتضاها، وليقهر الكفار، وليظهر للنصارى

---

(١) الطحاوية مع شرحها لابن أبي العز (٢/ ٧٥٤).

(٢) قال القرطبي في سبب تسميته ـ عليه السلام ـ بالمسيح: «اختلف في المسيح ابن مريم ممَّاذا أخذ؟ فقيل: لأنه مسح الأرض، أي: ذهب فيها فلم يسكن بكنّ (هو كل ما يردُّ البرد والحر يستتر به الإنسان من الأبنية ونحوها. انظر: معجم مقاييس اللغة ٥/ ١٢٣) ـ وقيل: لأنه ممسوح بدهن البركة، وقيل: لأنه كان ممسوح الأخمصين، وقيل: لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلاّ برأ، وقيل: لأنه الجمال مسحه أي: أصابه وظهر عليه، وقال ابن الأعرابي: المسيح: الصديق وبه سمي عيسى، وقيل: هو اسم سماه الله تعالى به أي: أنه غير مشتق». المفهم (١/ ٣٩٨)، وانظر: المعلم (١/ ٢٢٢).

(٣) الفتاوى (٤/ ٣٢٩).

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٨.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٦) سبق تخريجه ص(٥٥٥).

ضلالتهم، ويتبرأ من إفكهم، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويأتم بإمام هذه الأمة. والحاصل: أنه لم يأت برسالة مستأنفة ولا شريعة مبتدأة، وإنما يأتي عاضدًا لهذه الشريعة، وملتزمًا بأحكامها، غير مغير لشيء منها، والمنفي بالأدلة السابقة: إنما هو رسول يزعم أنه قد جاء بشرع مبتدأ، أو برسالة مستأنفة، فمن ادعى ذلك كان كاذبًا كافرًا قطعًا»[١].

٤ ـ يأجوج ومأجوج

قال القرطبي: «يأجوج ومأجوج: يهمزان ولا يهمزان: لغتان وقرىء بهما فمن همزهما جعلهما من أجيج النار، وهو ضوءها وحرارتها وسمُّوا بذلك لكثرتهم وشدتهم، وقيل: من الأُجاج، وهو الماء الشديد الملوحة، وقيل: هما اسمان أعجميان غير مشتقين»[٢].

أصلهم:

قال القرطبي: «قال مقاتل[٣]: هم من ولد يافث بن نوح عليه السلام. وقال الضحاك[٤]: من الترك. وقال كعب: احتلم آدم عليه السلام فاختلط ماؤه بالتراب فأسف فخلقوا من ذلك. وفيه نظر؛ لأن الأنبياء لا يحتلمون»[٥].

قال القرطبي: «قال الغزنوي[٦] في كتابه المسمى بـ«عيون المعاني»: أن النبي ﷺ قال: «**يأجوج أمة لها أربعمائة أمير، وكذلك مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده، صنف منهم كالأرز طولهم مئة**

---

(١) المفهم (٧/ ٢٩٢).

(٢) المفهم (٧/ ٢٠٧).

(٣) مقاتل بن سليمان الأزدي البلخي من التابعين، وهو إمام في التفسير، رمي بالتشبيه، وقدح فيه عدد كبير من العلماء، توفي سنة (١٥٠هـ). تهذيب التهذيب (٤/ ١٤٣)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠١).

(٤) أبوالقاسم الضحاك بن مزاحم الهلالي، صدوق كثير الإرسال، توفي بعد المائة. تهذيب التهذيب (٢/ ٢٢٦)، صفة الصفوة (٤/ ٥٠).

(٥) المفهم (٧/ ٢٠٧).

(٦) محمد بن طيفور الغزنوي مفسر مقرىء نحوي، من مؤلفاته «علل القراءات» توفي سنة (٥٦٠هـ). طبقات المفسرين للأدنه وي ص(٢٧٤)، معجم المؤلفين (٣/ ٣٧٤).

وعشرون ذراعًا، وصنف يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، لا يمرون بفيل ولا خنزير إلَّا أكلوه، ويأكلون من مات منهم، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يشربون أنهار المشرق، وبحيرة طبرية، فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس»(١) وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: وصنف منهم في طول شبر، لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعي الحمام وتسافد البهائم، وعواء الذئب، وشعور، تقيهم الحر والبرد، وآذان عظام إحداها وبرة يُشتُّون فيها، والأخرى جلدة يصيِّفون فيها، يحفرون السد حتى كادوا ينقبونه، فيعيده الله كما كان حتى يقولوا: ننقبه غدًا إن شاء الله، فينقبون ويخرجون، ويتحصن الناس بالحصون، فيرمون إلى السماء فيُرَدُّ إليهم السهم ملطخًا بالدم، ثم يهلكهم الله بالنغف في رقابهم يعني الدود»(٢).

قلت: أي القرطبي وسيأتي من أخبارهم الصحيحة ما يشهد بالصحة لأكثر هذين الحديثين(٣).

خروجهم من السد:

خروج يأجوج ومأجوج من السد يكون في آخر الزمان، وهو من أشراط الساعة الكبرى، وقد دلَّ على خروجهم أدلة من الكتاب والسنة: قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾(٤)، وجاء في صحيح مسلم قوله ﷺ: **«إذ أوحى الله إلى عيسى: أني قد أخرجت عبادًا لي لا يَدَان لأحدٍ بقتالهم، فحَرِّز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ـ وهم من كل حدبٍ ينسلون ـ فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماءٌ ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه، حتى**

---

(١) هذا وما بعده نقله القرطبي عن الغزنوي ولم أجدها في شيء من كتب الحديث، وقد ذكرهما الطريري ـ في دراسته حول المفهم ـ في الأحاديث الواهية التي ذكرها القرطبي في كتابه. انظر: القرطبي ومنهجه في كتابه المفهم للطريري (١/ ١٧٥).

(٢) نفس الحديث الذي قبله.

(٣) المفهم (٧/ ٢٠٧).

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٩٦، ٩٧.

يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مئة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيُرسلُ الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم فيصبحون فرس كموت نفس واحدة. . .»[١].

وقد بيَّن القرطبي في شرح هذا الحديث أن يأجوج ومأجوج لا قدرة لأحد على قتالهم، لذا يهلكهم الله تعالى بالنغف وهي دودة محتقرة تكون في أنوف الإبل والغنم إتلافها شديد[٢].

٥ ـ الخسوفات الثلاثة :

عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**إن الساعة لن تقوم حتى تروا عشر آيات» فذكر الدخان. . . وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب»**[٣].

قال القرطبي: الخسوفات الثلاثة وقع بعضها، ذكر أبوالفرج الجوزي: «أنها وقعت بعراق العجم زلازل وخسوفات هائلة هلك بسببها خلق كثير، وقد سمعنا ونحن بالأندلس: أن بلدًا بشرقها خسف به وهلك كثير من أهله»[٤].

والصحيح أنه لم يحدث شيء منها إلى الآن، وإنما وقع بعض الخسوفات في أماكن متفرقة وفي أزمان متباعدة، وذلك من أشراط الساعة الصغرى، كما قال ﷺ: «**يكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف**» قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: قلت: يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا ظهر الخبث**»[٥].

وهذه الخسوفات قد وجد منها في مواضع من الأرض في الشرق

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال ح٢٩٣٧ (١٨/ ٢٧٧).
(٢) المفهم (٧/ ٢٨٥، ٢٨٦).
(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ح٢٩٠١ (١٨/ ٢٤٣).
(٤) المفهم (٧/ ٢٣٩).
(٥) رواه الترمذي في أبواب الفتن، باب ما جاء في الخسف وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٣٥٥) ح/ ٨١٥٦.

والغرب قبل هذا الزمن[١].

أما الخسوفات الثلاثة المذكورة في العشر آيات العظام فتكون خسوفات عظيمة.

قال ابن حجر: «وقد وجد الخسف في مواضع ولكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف الثلاثة قدرًا زائدًا على ما وجد، كأن يكون أعظم منه مكانًا وقدرًا»[٢].

٦ ـ الدخان:

قال تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ ﴾[٣].

والمعنى: انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين واضح يغشى الناس ويعمهم، وعند ذلك يقال لهم: هذا عذاب أليم، تقريعًا لهم، وتوبيخًا، أو يقول بعضهم لبعض ذلك[٤].

وذهب ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وجماعة من السلف إلى أن هذا الدخان هو ما أصاب قريشًا من الشدة والجوع، عندما دعا عليهم النبي ﷺ حين لم يستجيبوا له، فأصبحوا يرون في السماء كهيئة الدخان[٥].

والقرطبي رجَّح أن الدخان يأتي في آخر الزمان، ويكون من علامات الساعة حيث قال: «وأما الدخان فهو الذي دلَّ عليه قوله تعالى ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ ﴾ على ما ذهب إليه غير ابن مسعود، وهم جماعة من السلف، وهو مروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة، وابن عباس، والحسن، وابن أبي مليكة، وروى حذيفة عن النبي ﷺ أن من أشراط

---

(١) انظر: أشراط الساعة للوابل ص(١٧٤، ٣٨٢).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٩٠).

(٣) سورة الدخان، الآيتان: ١٠، ١١.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٢٢٨)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٨٧).

(٥) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ ح٤٨٢١ (٨/ ٤٣٤)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الدخان ح٢٧٩٨ (١٧/ ١٤٦).

الساعة دخانًا يمكث في الأرض أربعين يومًا»[(١)].

«قلت ـ أي القرطبي ـ: ويؤيد هذا قوله تعالى في الآية ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ وهذا يبعد قول من قال: إنه الدخان الذي يعذب به الكفار يوم القيامة، وهو مروي عن زيد بن علي[(٢)].

وفي رده للقول الآخر المخالف لهذا القول الذي عليه ابن مسعود رضي الله عنه ومن وافقه قال: «الذي حمل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه على إنكار ما ذهبنا إليه قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾[(٣)] وقوله: ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴾[(٤)] ولذلك قال: أفيكشف عذاب الآخرة؟ وهذا لا دليل فيه على نفي ما قاله ذلك القائل؛ لأن حديث أبي سعيد إنما دل على أن ذلك الدخان يكون من أشراط الساعة قبل أن تقوم القيامة، فيجوز انكشافه كما تنكشف فتن الدجال ويأجوج ومأجوج، وأمَّا الذي لا ينكشف فعذاب الكافر بعد الموت فلا معارضة بين الآية والحديث[(٥)].

وجمع من العلماء ذهب إلى الجمع بين هذه النصوص بأنهما دخانان ظهرت إحداهما وبقيت الأخرى، وهي التي ستقع في آخر الزمان، فأما التي

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١/٢٢٨) وقال: «حدثني عصام بن رواد قال: حدثني أبي قال: حدثنا سفيان بن سعيد الثوري قال: حدثنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول ـ ثم ساق الحديث وقال بعده: أنا لم أشهد لهذا الحديث بالصحة لأن محمدبن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل روادًا عن هذا الحديث هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا، فقلت له: فقرأته عليه؟ فقال: لا، فقلت له: فقرئ عليه وأنت حاضر فأقرَّ به؟ فقال: لا، فقلت: فمن أين جئت به، قال: جاءني به قوم فعرضوه عليَّ وقالوا لي: اسمعه منَّا فقرأوه عليَّ ثم ذهبوا فحدثوا به عني. وقال ابن كثير بعد نقله لكلام ابن جرير السابق: وقد أجاد ابن جرير في هذا الحديث هاهنا فإنه موضوع بهذا السند. تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٠). وقال ابن حجر: إسناده ضعيف. فتح الباري (٨/ ٤٣٦).

(٢) المفهم (٧/ ٢٣٩).

(٣) سورة الدخان، الآية: ١٢.

(٤) سورة الدخان، الآية: ١٥.

(٥) المفهم (٧/ ٣٩٦).

ظهرت فهي ما كانت تراه قريش كهيئة الدخان، وهذا الدخان غير الدخان الحقيقي الذي يكون عند ظهور الآيات التي هي من أشراط الساعة(١).

٧ ـ طلوع الشمس من مغربها :

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾(٢)، وجاءت الأحاديث الصحيحة موضحة بأن المراد ببعض الآيات المذكورة في هذه الآية هي طلوع الشمس من مغربها(٣). قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا**»(٤)، وقال ﷺ: «**بادروا بالأعمال ستًّا: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم**»(٥).

والقرطبي عند شرحه لقوله ﷺ: «**إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبًا**»(٦). قال: «يعني ـ والله أعلم ـ أول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة والطبع على كل قلب بما فيه؛ لأن ما قبل طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة، وإيمان الكافر يصح فيه بدليل ما رواه أبوداود من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا

---

(١) أشراط الساعة للوابل ص(٣٨٧)، وانظر: تفسير الطبري (١١/ ٢٢٨)، إتحاف الجماعة للتويجري (٣/ ١٨٨).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٤٠٤)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٨٤)، وفتح القدير للشوكاني (٢/ ١٨٢).

(٤) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب طلوع الشمس من مغربها ح٦٥٠٦ (١١/ ٣٦٠)، ومسلم في كتاب الإيمان باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ح١٥٧ (٢/ ٥٥٣).

(٥) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال ح٢٩٤٧ (١٨/ ٢٩٩).

(٦) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه ح٢٩٤١ (١٨/ ٢٩٠).

تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا»[(١)] ومعنى قوله: «**إذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها**» أي: حصل لجميع من على الأرض التصديق الضروري بأمور القيامة الذي لا يكلف به ولا ينفع صاحبه لكون أمور الآخرة معاينة، وإنما كان طلوع الشمس مخصوصًا بذلك لأنه أول تغيير هذا العالم العلوي الذي لم يشاهد فيه تغيير منذ خلقه الله تعالى، وإلى ذلك الوقت، وأما ما قبله من الآيات فقد شوهد ما يقرب من نوعه، فإذا كان ذلك، وطبع على كل قلب بما فيه من كفر وإيمان أخرج الله الدابة مُعَرِّفة لما في بواطن الناس من إيمان وكفر فتكلمهم بذلك»[(٢)].

وقال في رده على المبتدعة الذين يؤولون عامة هذه الآيات بمحض عقولهم: «مذهب أهل السنة حمل طلوع الشمس من مغربها وغيرها من الآيات على ظاهرها إذ لا إحالة فيها وهي أمور ممكنة ي أنفسها، وقد تضافرت الأخبار الصحيحة بها مع كثرتها وشهرتها، فيجب التصديق بها، ولا يلتفت لشيء من تأويلات المبتدعة لها»[(٣)].

٨ ـ الدابة :

قال تعالى: ﴿ ۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[(٤)] أي: مع تمادي الناس بالعصيان وإعراضهم عن آيات الرحمن وترك النزول على حكمها بحيث لا تنفع فيهم الموعظة، ولا تردعهم التذكرة، يقول تعالى: إذا صاروا كذلك أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أي: دابة تعقل وتنطق ليعلم الناس أن ذلك آية من عند الله[(٥)]. قال ﷺ: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من**

---

(١) سبق تخريجه ص(٦٣٣).
(٢) المفهم (٧/ ٢٤٢).
(٣) المفهم (١/ ٣٧٣).
(٤) سورة النمل، الآية: ٨٢.
(٥) انظر: التذكرة للقرطبي ص(٧٨٥).

قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»[١].

قال القرطبي عن هذه الآية: «أما الدابة فهي التي قال الله فيها: ﴿ ۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ ذكر أهل التفسير: أنها خلق عظيم تخرج من صدع الصفا، لا يفوتها أحد تسِمُ المؤمن فينير وجهه، ويكتب بين عينيه مؤمن، وتسم الكافر فيسود وجهه، ويكتب بين عينيه كافر، وعن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أن هذه الدابة هي الجسَّاسة المذكورة في الحديث، وعن ابن عباس: أنها الثعبان الذي كان ببئر الكعبة فاختطفته العقاب[٢]، وقد اختلف في صورتها، وفي أي موضع تخرج منه على أقوالٍ كثيرة، وليس في شيء من ذلك خبر صحيح مرفوع، قال بعض المتأخرين من المفسرين: الأقرب أن تكون هذه الدابة: إنسانًا متكلمًا يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة.

قلت ـ أي القرطبي ـ: وإنما كان هذا عند القائل الأقرب لقوله تعالى: ﴿تكلمهم﴾ وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة، ولا تكون من جملة العشر الآيات المذكورة في الحديث[٣]؛ لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير فلا آية خاصة، فلا ينبغي أن تذكر مع العشر وترتفع خصوصية وجودها، فإذا وقع القول ثم: فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذي يحتج على أهل الأرض باسم الإنسان أو بالعالم، أو بالإمام، إلى أن يسمى بدابة، وهذا خروج عن عادة الفصحاء، وعن تعظيم العلماء[٤]، وليس ذلك دأب العقلاء، فالأولى

---

(١) رواه مسلم في كتب الإيمان، باب بيان الزمان الذي لا يقبل فيه الإيمان ج١٥٧ (٥٥٣/٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٩٣)، والتذكرة للقرطبي ص(٧٨٧)، وفتح القدير للشوكاني (٤/ ١٥١).

(٣) سبق تخريجه ص(٦٣٠).

(٤) وقد نقل القرطبي المفسر هذا الكلام عن شيخه ولم ينسبه إليه (التذكرة ص٧٨٦)، ولذا=

ما قاله أهل التفسير، وأما كيفية صفتها وخلقتها، وبماذا تكلمهم فالله أعلم بذلك»[١].

وأحسن القرطبي في رده للأقوال التي لا دليل عليها إذ أمور الغيب لا تحكم فيها العقول.

٩ ـ النار التي تحشر الناس:

وهي آخر أشراط الساعة وهي نار تخرج من اليمن من «قعر عدن» تسوق الناس إلى محشرهم. قال ﷺ: في بيان الآيات العشر التي تكون قبل الساعة: «**وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**».

قال القرطبي «قوله: «آخر ذلك النار تخرج من اليمن» وقال فيما تقدم: «من قعر عدن»[٢] وقال في رواية: «من أرض الحجاز» قال القاضي: فلعلهما ناران تجتمعان لحشر الناس، أو يكون ابتداء خروجها من اليمن وظهورها من الحجاز»[٣].

وأما كيفية حشرها للناس فقد قال ﷺ: «**يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين، واثنان على بعير وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشُر بقيتهم النار تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا**»[٤].

قال القرطبي: «الطرائق الأحوال المختلفة، والفرق المتفرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾[٥] أي: فرقًا مختلفة قال القاضي: هذا

= نقله المتأخرون عنه ونسبوه إليه، ورأيت من هذا شيئًا كثيرًا في مسائل العقيدة، فلشهرة القرطبي المفسر التي فاق بها شيخه وانتشار تفسيره خصوصًا عند المتأخرين وبقاء تراث شيخه العلمي رهن الحبس طوال هذه القرون أدَّىٰ إلى نسبة كثير من أقوال أبي العباس إلى تلميذه أبي عبدالله، والله يؤتي فضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١) المفهم (٧/ ٢٤٠)، وانظر: (٧/ ٢٤٢).

(٢) وهو من بعض ألفاظ الحديث السابق.

(٣) المفهم (٧/ ٢٤١).

(٤) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب الحشر ح٦٥٢٢ (١١/ ٣٨٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة ح٢٨٦١ (١٧/ ٢٠٠).

(٥) سورة الجن، الآية: ١١.

الحشر هو في الدنيا قبل قيام الساعة، وهو آخر أشراطها... ويدل على أنها قبل يوم القيامة قوله: «**فتقيل معهم حيث قالوا، وتمسي معهم حيث أمسوا وتصبح معهم حيث أصبحوا**»... وعلى هذا فيكون معنى راغبين في لقاء الله وفي ثوابه وهؤلاء هم المؤمنون الذين وسموا باسم الإيمان، وراهبين: أي خائفين يعني بهم الكفار الذين وسموا باسم الكفر، وذلك إذا طبع على كل قلبٍ بما فيه عند طلوع الشمس من مغربها، وإذا خرجت دابة الأرض فنفخت في وجوه الناس ما تسم في وجه المؤمن مؤمن، وفي وجه الكافر كافر»[1].

(١) المفهم (٧/ ١٥٣).

الفصل الثاني
فتنة القبر وعذابه ونعيمه

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: **الروح**

المبحث الثاني: **فتنة القبر**

المبحث الثالث: **عذاب القبر ونعيمه**

المبحث الرابع: **سماع الموتى**

المبحث الأول

الـــروح

تباينت الأقوال في الروح ما هي، وهل هي النفس أم لا؟ ثم تعلق هذه الروح بالجسد ومستقر الأرواح بعد الموت إلى غير ذلك من المباحث المتعلقة بهذه المسألة. وقد بيَّن شارح الطحاوية أن النفس تطلق على أمور، وكذلك الروح فيتحد مدلولها تارة ويختلف تارة. فالنفس تطلق على الروح، ولكن غالب ما تسمى نفسًا إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها»[١].

وقد تعرض القرطبي لهذه المسألة، وبيَّن الاختلاف الواقع فيها، حيث قال: «اختلف الناس في الأرواح قديمًا وحديثاً ما هي؟ وعلى أي حال هي؟ اختلافًا كثيرًا، واضطربوا فيها اضطرابًا شديدًا، الواقف عليه يتحقق أن الكل منهم على غير بصيرة منها، وإنما هي أقوال صادرة عن ظنون متقاربة، ولا يشك في أنه مما انفرد الله تعالى بعلم حقيقته، وعلى هذا المعنى حمل أكثر المفسرين قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾[٢] فليقطع العاقل طمعه من علم حقيقته، ولينظر هل ورد في الأقوال الصادقة ما يدل على شيء من صفته؟ وعند تصفح ذلك واستقراء ما هنالك يحصل للباحث: أن الروح أمر ينفخ في الجسد ويقبض منه ويتوفى بالنوم والموت ويؤمن ويكفر ويعلم ويجهل ويفرح ويحزن ويتنعم، ويتألم، ويخرج، ويدخل، والإنسان يجد من ذاته بضرورته قابلاً للعلوم وأضدادها وللفكر وأضدادها، ولغير ذلك من المعاني فيحصل من مجموع تلك الأمور على القطع: أن الروح ليس من قبيل الأعراض لاستحالة كل ما ذكر عليها، فيلزم أن تكون الروح من قبيل ما يقوم بنفسه، وأنه قابل للأعراض.

وهل هو متحيز أو ليس بمتحيز؟ ذهبت طوائف من الأوائل، ومن نحا

---

(١) شرح الطحاوية (٢/ ٥٦٧).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

نحوهم من الإسلاميين، إلى أنه قائم بنفسه غير متحيز، وذهب أكثر أهل الإسلام إلى أن ذلك من أوصاف الحق سبحانه وتعالى الخاصة به، وأنه لا تصح مشاركته في ذلك لأدلة تذكر في علم الكلام، وأن الروح قائم بنفسه متحيز، فهو من قبيل الجواهر.

ثم اختلف هل هو يقبل الانقسام فيكون جسمًا، أو لا يقبله فيكون جوهرًا فردًا؟ فذهبت طائفة من جلة علماء أهل السنة إلى أنه جسم لطيف مشابك لجميع أجزاء البدن أجرى الله العادة ببقائه في الجسم مادام حيًّا، فإذا أراد الله إماتة الحيوان نزعه منه وأزل اتصاله بالحياة، وأعقبها بالموت، وأطبق معظم المتكلمين من أهل السنة على أنه جزء فرد من أجزاء القلب أو غيره، مما يكون في الإنسان أجرى الله العادة بحياة ذلك الجسم مادام ذلك الجزء متصلاً به، والله تعالى أعلم وأحكم والتسليم أولى وأسلم»[(١)].

وقال المازري: «الكلام في الروح والنفس مما يغمض ويدق، ولكنه مع هذا أكثر الناس الكلام فيه حتى ألف بعضهم فيه التواليف، ولكن مشاهير المقالات في الروح قول أبي الحسن الأشعري إنه النفس الداخل والخارج، والقاضي أبوبكر بن الطيب يراه مما يتردد بين هذا الذي قاله أبوالحسن الأشعري، وبين الحياة، وبعض الناس يرى أنه جسم مشابك للأجسام الظاهرة والأعضاء الظاهرة، ومال بعض المتكلمين من أئمتنا إلى أنه الأظهر فيه أنه جسم لطيف خلقه الباري تعالى وأجرى العادة بأن الحياة لا تكون مع فقده، وإذا شاء موت إنسان أعدم هذا الجسم منه إعدام الحياة، وهذا الجسم إن كان حيًّا فلا يحيى إلاَّ بحياة تختص به أيضًا، وهو مما يصح صرف القبض إليه والبلوغ إلى مكان ما من الجسم وكونه في مكان في العالم أو حواصل طير إلى ذلك، مما وقع في الظواهر، ويصح في العقل صرف ما أشرنا إليه من الظواهر إلى غيره من جواهر القلب أو الجسم الحية، والمسألة تحتمل الاتساع الكثير، وإنما ذكرنا في هذا الموضع ما يليق به»[(٢)].

---

(١) المفهم (٣/ ٧١٧).

(٢) المعلم (٣/ ٢٠٢).

مستقر الأرواح بعد مفارقة الأبدان :

مذهب أهل السنة بقاء الأرواح بعد فراق الأجساد بمعنى أنها لا تفنى، قال شيخ الإسلام: «الأرواح مخلوقة بلا شك،، وهي لا تعدم، ولا تفنى، ولكن موتهامفارقة الأبدان،وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى الأبدان»[١] .

وأما من قال بانتقال الأرواح بعد فراقها للأبدان إلى أبدان أخرى فهو معلوم البطلان، وهو القول بالتناسخ، وقد رد عليه القرطبي وبين فساده وكفره حيث قال: «لا يلتفت لقول التناسخية القائلين بأن الأرواح تنتقل إلى أجساد أُخر، فأهل السعادة ينقلون إلى أجساد حسنة مشرقة مرفهة، فتتنعم بها، وأهل الشقاء تنقل أرواحهم إلى أجسام خسيسة قبيحة فتعذب فيها، حتى إذا استوفت أمد عقابها رجعت إلى أحسن بنية وهكذا أبدًا، وهذا معنى الإعادة والثواب والعقاب عندهم، وهو مناقض لما جاءت به الشريعة، ولما أجمعت الأمة عليه، ومعتقده يكفر قطعًا، فإنه أنكر ما علم قطعًا من إخبار الله تعالى وإخبار نبيه ﷺ عن أمور الآخرة، وعن تفاصيل أحوالها، وأن الأمر ليس على شيء مما قالوه فالتناسخ والقول به باطل محال عقلاً»[٢] .

فالسؤال أين تكون هذه الأرواح بعد مفارقتها للأبدان؟

هذا مما وقع فيه الخلاف، وتعددت فيه الأقوال:

فقيل: إن الأرواح تكون على أفنية القبور، وقد تفارقها، وقيل: تسرح حيث شاءت، وقيل: تجتمع في موضع من الأرض، والقول الصحيح في هذه المسألة التفصيل:

فأرواح الأنبياء عليهم السلام في أعلى عليين، وقد ثبت في الصحيح أن آخر كلمة قالها ﷺ عند موته: «**اللهم الرفيق الأعلى**»[٣] أما أرواح الشهداء فالصحيح أنها في الجنة، كما جاء عنه ﷺ عندما سئل عن حياة الشهداء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ

---

(١) الفتاوى (٤/ ٢٧٩).

(٢) المفهم (٣/ ٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ح٦٥٠٩ (١١/ ٣٦٥).

رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[١] حيث قال: «**أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل**»[٢].

وأما غير الشهداء من المؤمن فقد جاء في الحديث أن «**نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه**»[٣]. فالبعض فهم من هذا الحديث أن أرواح المؤمنين في الجنة كالشهداء والقرطبي جعل المقصود بهذا الحديث المؤمن الشهيد كما سيأتي بيانه.

وأما أرواح الكافرين ففي النار قال شيخ الإسلام: «أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين في النار، تنعم أرواح المؤمنين وتعذب أرواح الكافرين إلى أن تعاد إلى الأبدان»[٤].

وقد بيَّن الحافظ ابن رجب الفرق بين أرواح الشهداء وأرواح عامة المؤمنين من غير الشهداء، مع أنهما جميعًا في الجنة[٥].

ومع كون الروح في مستقرها، فإن لها تعلقًا بالبدن في أوقات وعلى كيفيات الله أعلم بحقيقتها[٦].

وقد قال القرطبي في هذه المسألة عند شرحه للحديث الذي فيه أن أرواح الشهداء في جوف طير خضر في الجنة، حيث قال: «تضمن هذا الحديث معنى قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[٧].

وأن معنى حياة الشهداء أن لأرواحهم من خصوص الكرامة ما ليس لغيرهم بأن جعلت في جوف طير كما في هذا الحديث، أو في حواصل طير خضر، كما في الحديث الآخر، صيانة لتلك الأرواح، ومبالغة في إكرامها

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب أرواح الشهداء في الجنة ح١٨٨٧ (١٣/ ٣٤).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٣٥٥)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٦٩٤) حديث ٩٩٥.

(٤) الفتاوى (١٤/ ٣١١).

(٥) أهوال القبور لابن رجب ص(١٢٥، ١٢٦).

(٦) انظر: شرح الطحاوية (٢/ ٥٧٨).

(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

لاطلاعها على ما في الجنة من المحاسن والنعم... وأما اللذات الجسمانية، فإذا أعيدت تلك الأرواح إلى أجسادها استوفت من النعيم جميع ما أعد الله تعالى لها، وهذا مخصوص بالشهداء»[١].

ورجَّح القرطبي تخصيص هذا بالشهيد، وأما المؤمن غير الشهيد، فلا تكون روحه في الجنة، بل يطَلِع على منزلته في الجنة دون أن يباشر هذا أو يشاهده، وروح الكافر كذلك تشاهد ما أُعد لها من العذاب، وتتألم بذلك حيث قال: «قوله ﷺ: «**إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في ثمر الجنة**» فالمراد بالمؤمن هنا: الشهيد... وقد دلَّ على صحة هذا قوله في الحديث الآخر: «**إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوةً وعشيًا: إمالنار وإما الجنة فيقال: هذا مقعدك حتى تبعث إليه**»[٢] فالمؤمن غير الشهيد هو الذي يعرض عليه مقعده من الجنة، وهو في موضعه من القبر أو الصُّور أو حيث شاء الله تعالى غير سارح في الجنة، ولا داخل فيها، وإنما يدرك منزلته فيها بخلاف الشهيد، فإنه يباشر ذلك ويشاهده، وهو فيها على ما تقدم، وكذلك أرواح الكفار تشاهد ما أعد الله لها من العذاب عند عرض ذلك عليها، كما قال تعالى في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾[٣] وعند هذا العرض تدرك روح الكافر من الألم والتخويف والحزن والعذاب بالانتظار ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فنسأل الله العافية، كما أنه يحصل للمؤمن عند عرض الجنة من الفرح والسرور والتنعم بانتظار المحبوب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فإذا أُعيدت الأرواح إلى الأجساد استكمل كل فريق منهم ما أعد الله له وبهذا الذي ذكرناه تلتئم الأحاديث وتتفق، والله الموفق»[٤].

---

(١) المفهم (٣/ ٧١٥).
(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب سكرات الموت ح٦٥١٥ (١١/ ٣٦٩).
(٣) سورة غافر، الآية: ٤٦.
(٤) المفهم (٣/ ٧١٦).

المبحث الثاني
فتنة القبر

المقصود بفتنة القبر سؤال الملكين للعبد في قبره كما ورد بذلك الحديث الصحيح الذي قال فيه ﷺ: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ـ وإنه ليسمع قرع نعالهم ـ أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبدالله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا، وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري أقول مايقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين**»(١).

ولذا كان ﷺ يتعوذ بالله من فتنة القبر(٢).

قال القرطبي: «فتنة القبر: هي الضلال عن صواب إجابة الملكين فيه وهما: منكر ونكير»(٣).

فالمؤمن يوفق للجواب، والكافر يضل عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾(٤).

وعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، قال: نزلت في عذاب القبر،**

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال ح١٣٣٨ (٣/ ٢٤٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه ح٢٨٧٠ (١٧/ ٢٠٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام ح٨٣٢ (٢/ ٣٦٩)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ح٥٨٩ (٥/ ٩١).

(٣) المفهم (٧/ ٣٣).

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

فيقال: من ربك؟ فيقول: ربي الله ونبيي محمد ﷺ، فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ[١] ﴾[٢]

قال القرطبي: «أي يثبتهم في هذه الدار على التوحيد والإيمان بالنبي ﷺ ثم يميتهم عليه، وفي الآخرة عند المساءلة في القبر كما فسرها النبي ﷺ فإن كان النبي ﷺ قاله فهو المقصود، وإن كان من قول البراء، فهذا لا يقوله أحد من قبل نفسه ورأيه، فهو محمول على أن النبي ﷺ قاله وسكت البراء عن رفعه لعلم المخاطب بذلك، والله تعالى أعلم، وقد قيل عن البراء أنه قال: هما سؤال القبر وسؤال القيامة يعني: فيرشد المؤمن فيهما إلى الصواب ويصرف الكافر عن الجواب»[٣].

وذهب القرطبي ـ رحمه الله ـ إلى مشروعية تلقين الميت عند وضعه في قبره، وقد استدل بوصية عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: «فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنًّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور، ويقسم لحمها، حتى استأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي»[٤].

قال القرطبي: «الميت ترد عليه روحه ويسمع حس من هو على قبره، وكلامهم، والملائكة تسأله في ذلك الوقت، وهذا كله إنما قاله عمرو عن النبي ﷺ؛ لأن مثله لا يدرك إلاَّ من جهة النبي ﷺ، وعلى هذا فينبغي أن يرشد الميت في قبره حين وضعه فيه إلى جواب السؤال، ويذكر بذلك، فيقال له: قل: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد رسولي، فإنه عن ذلك يسأل كما جاءت به الأحاديث، وقد جرى العمل عندنا بقرطبة كذلك»[٥].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٢) رواة البخاري في كتاب الجنائز باب ماجاء في عذاب القبر ح(١٣٦٩) (٣/ ٢٧٤) ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه ح(٢٨٧١) (١٧/ ٢٠٩).

(٣) المفهم (٧/ ١٤٨).

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله ح١٢١ (٢/ ٤٩٦).

(٥) المفهم (١/ ٣٣٢).

وقد ذهب إلى هذا القول بعض العلماء، منهم: الشنقيطي في أضواء البيان[١].

وهذا فيه نظر لأنه لم يرد دليل صحيح صريح في المسألة والأصل فيها التوقف حتى يأتي دليل، وقد أرشد ﷺ عند دفن الميت إلى الاستغفار له وسؤال التثبيت ولم يثبت أنه عليه الصلاة والسلام لقَّن ميتًا أو أمر بذلك.

وقد سُئِلَ شيخ الإسلام عن هذا التلقين فقال: «هذا التلقين المذكور قد نقل عن طائفة من الصحابة أنهم أمروا به كأبي أُمامة الباهلي وغيره، وروي فيه حديث عن النبي ﷺ لكنه مما لا يحكم بصحته، ولم يكن كثير من الصحابة يفعل ذلك»[٢].

---

(١) أضواء البيان (٦/١٣٨).

(٢) الفتاوى (٢٤/٢٩٦).

المبحث الثالث
عذاب القبر ونعيمه

أجمع أهل السنة على إثبات عذاب القبر ونعيمه، واستدلوا على ذلك بأدلة من الكتاب والسنة منها: قوله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧ ﴾[٢].

ومن السنة: قوله ﷺ عندما مر على قبرين: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان بكبير**»[٣] وقوله ﷺ: «**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا ألا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه**»[٤] والأحاديث الدالة عليه كثيرة.

قال شارح الطحاوية: «قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً وسؤال الملكين فيجب اعتقاد ثبوت ذلك، والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له به في هذه الدار»[٥].

فمذهب أهل السنة والجماعة إثبات عذاب القبر ونعيمه، كما جاءت به الأدلة الصحيحة الصريحة، قال القرطبي: «عذاب القبر ممايجب الإيمان به، وقد صحَّ الإخبار عنه في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، ولا

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٥، ٤٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

(٣) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب عذاب القبر من الغيبة والبول ح١٣٧٨ (٣/٢٨٦)، ومسلم في كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ح٢٩٢ (٣/٢٠٤).

(٤) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار، وإثبات عذاب القبر ح٢٨٦٧ (١٧/٢٠٧).

(٥) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢/٥٧٨).

يلتفت لاستبعاد المبتدعة، فإن الإمكانات متسعة والقدرة صالحة[١].

وقال عند شرحه لحديث الاستعاذة من عذاب القبر: هذا الحديث وما في معناه يدل على صحة اعتقاد أهل السنة في عذاب القبر، وأنه حق ويرد على المبتدعة المخالفين في ذلك»[٢].

وقال المازري في إثبات عذاب القبر: «عذاب القبر ثابت عند أهل السنة، وقد وردت به الآثار، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾[٣]﴾[٤]

(١) المفهم (٧/ ١٤٥).
(٢) المفهم (٢/ ٢٠٧). وانظر: (١/ ٣٢١، ٤/ ٥٧٥، ٦/ ٦٨٢، ٧/ ١٤٧، ٣٨٨)
(٣) سورة غافر، الآية: ٤٦.
(٤) المعلم (٣/ ٢٠٧).

المبحث الرابع
سماع الموتى

هذه المسألة هي مما وقع فيها الاختلاف بين العلماء، إذ قال بعض العلماء بإثبات سماع الموتى، واستدلوا على ذلك بتكليم الرسول ﷺ للقتلى من المشركين الذين رموا في القليب يوم بدر، وقوله ﷺ لأصحابه: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»[(١)]، وبقوله ﷺ عن الميت بعد دفنه: «**إنه ليسمع قرع نعالهم**»[(٢)] وبأمثالهما من الأحاديث المثبتة لذلك.

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «النصوص الصحيحة عنه ﷺ في سماع الموتى لم يثبت في الكتاب ولا في السنة شيء يخالفها»[(٣)]. وقد ذهب إلى هذا القول عدد من العلماء منهم ابن عبدالبر، وابن كثير، وابن القيم، وابن رجب وغيرهم[(٤)].

وذهب آخرون منهم عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى إنكار ذلك والاعتراض عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[(٥)] وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾[(٦)].

والقرطبي ـ رحمه الله ـ أخذ بالقول الأول، وأثبت أنه لا تعارض بين الآيات والأحاديث في هذه المسألة، فقال بعد تقريره لسماع الموتى: «ولا يعارض هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾، ولا بقوله ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لأن النبي ﷺ قد نادى أهل القليب وأسمعهم، وقال: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون جواباً**» وقال في الميت:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر ح١٣٧٠ (٣/ ٢٧٤)، ومسلم في كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه ح٩٣٢ (٦/ ٤٨٨).

(٢) سبق تخريجه ص(٦٤٤).

(٣) أضواء البيان (٦/ ١٢٩).

(٤) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٦٨٥). وأضواء البيان للشنقيطي (٦/ ١٢٤ـ١٤٢)، وأهوال القبور لابن رجب ص(٨٦).

(٥) سورة النمل، الآية: ٨٠.

(٦) سورة فاطر، الآية: ٢٢.

«**إنه ليسمع قرع نعالهم**» وإن هذا يكون في حال دون حال ووقت دون وقت. وقال في الجمع بين هذه النصوص: إنكار عائشة على ابن عمر سماع أهل القليب إنكار لما رواه الثقة الحافظ لأجل أنها ظنت أن ذلك مُعَارَضٌ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ وبقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولا تعارض بينهما لوجهين:

أحدهما: أن الموتى في الآية إنما يراد بهم الكفار، فكأنهم موتى في قبورهم والسماع يراد به الفهم والإجابة هنا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1] وهذا كما سماهم صم وبكم وعمي مع سلامة هذه الحواس منهم.

وثانيهما: أنا لو سلمنا أن الموتى في الآية على حقيقتهم فلا تعارض بينها وبين أن بعض الموتى يسمعون في وقت ما أو في حال ما، فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص وقد وجد هنا بدليل هذا الحديث[2]، وحديث أبي طلحة الذي قال فيه النبي ﷺ في أهل بدر: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**» وهو متفق عليه، وبما في معناه مثل قوله في الميت: «**إنه ليسمع قرع النعال**» وبالمعلوم من سؤال الملكين للميت في قبره وجوابه لهما إلى غير ذلك مما لا ينكر، فحديث ابن عمر صحيح النقل، وما تضمنه يقبله العقل، فلا طريق لتخطئته والله تعالى أعلم»[3].

وهذا القول هو الذي ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: «والنص الصحيح عن النبي ﷺ مقدم على تأويل من تأول من أصحابه

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٣.

(٢) وهو حديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي قال فيه قال الرسول ﷺ: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**» فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: **وَهَلَ إنما قال رسول الله** ﷺ: «**إنه ليعذب بخطيئته أو بذنبه وإن أهله ليبكون عليه الآن**». وذلك مثل قوله: إن رسول الله ﷺ **قام على القليب يوم بدر وفيه قتلى بدر من المشركين، فقال لهم ما قال:** «**إنهم ليسمعون ما أقول**» وقد وَهَلَ إنما قال: «إنهم ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق» ثم قرأت: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ ﴿ما أنت بمسمع من في القبور﴾ رواه مسلم في كتاب الجنائز باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه ح٩٣٢ (٦٦/ ٤٨٨).

(٣) المفهم (٢/ ٥٨٥).

وغيرهم، وليس في القرآن ما ينفي ذلك، فإن قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[(١)] إنما أراد به السماع المعتاد الذي ينفع صاحبه، فإن هذا مثلٌ ضُرِبَ للكفار، والكفار تسمع الصوت، لكن لا تسمع سماع قبول بفقه واتباع، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾[(٢)] فهكذا الموتى الذين ضرب لهم المثل لا يجب أن ينفى عنهم جميع السماع المعتاد أنواع السماع كما لم ينف ذلك عن الكفار، بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذي ينتفعون به، وأما سماع آخر فلم ينف عنهم وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن الميت يسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين، فهذا موافق لهذا، فكيف يدفع ذلك؟»[(٣)].

وأما المازري فذهب إلى إنكار سماع الموتى، وجعل حديث الرسول ﷺ لأهل القليب وإثباته لسماعهم إنما هوإحياء لهم ليسمعوا كلام الرسول ﷺ توبيخًا لهم حيث قال عند شرح هذا الحديث: «ذهب بعض الناس إلى أن الميت يسمع أخذًا بظاهر هذا الحديث، والذي عليه المحصلون من العلماء أن الله تعالى خرق العادة. بأن أعاد الحياة إلى هؤلاء الموتى ليقرعهم ﷺ وإلى هذا ذهب قتادة، وقد ذكر الحديث لعائشة فقالت: إنما قال النبي ﷺ: «إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم الحق» ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فأنت ترى عائشة كيف أنكرت ظاهر الحديث وحولته إلى لفظ آخر، والتشكك في سماع سائر الموتى وحسهم يخرم الثقة بالعلوم الضرورية»[(٤)].

وقال في موضع آخر: «اغتر بعض الناس بحديث القليب، فقال: إن الميت يسمع، وهذا غير صحيح عند أهل الأصول؛ لأن الحياة شرط في السمع فلا يسمع غير حي، وحمل بعض الناس ذلك على أنهم أعيدت لهم الحياة حتى سمعوا تقريعه عليه السلام لهم»[(٥)].

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧١.
(٣) الفتاوى (٤/ ٢٩٨).
(٤) المعلم (٣/ ٢٠٧).
(٥) المعلم (١/ ٣٢٤).

الفصل الثالث
البعـث والنشـور

وفيه ثمانية مباحث:

المبحث الأول: **النفخ في الصور**

المبحث الثاني: **البعث والنشور**

المبحث الثالث: **الحشر**

المبحث الرابع: **الميزان**

المبحث الخامس: **الشفاعة**

المبحث السادس: **الحوض**

المبحث السابع: **الصراط**

المبحث الثامن: **ذبح الموت**

المبحث الأول
النفخ في الصور

النفخ في الصور هو المؤذن بقيام الساعة وعنه ينشأ الصعق والبعث، وقد عرف القرطبي الصور، فقال: الصور قيل: إنه جمع صورة. والصحيح ما صح عن النبي ﷺ أنه قال «**الصور قرن ينفخ فيه**»[١].

وأمّا الصعق الذي ينشأ عن النفخ في الصور فقال القرطبي في تعريفه: «أصل الصعق والصعقة: الصوت الشديد المنكر كصوت الرعد وصوت الحمار، وقد يكون معه موت لشدته، وهو المراد بقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٢] وقد تكون معه غشية، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾[٣] فإن كان معه نار فهو الصاعقة»[٤].

عدد النفخات في الصور:

اختلف العلماء في عدد النفخات فقيل: ينفخ في الصور نفختان وقيل: ثلاث نفخات وقيل: أربع.

ومفهوم كلام القرطبي ميله إلى أنه ينفخ في الصور نفختان حيث قال: اختلف في عدد النفخات فقيل: ثلاثة: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث، وقيل: هما نفختان: نفخة الفزع، هي نفخة الصعق؛ لأن الأمرين لازمان لها والله أعلم[٥].

وعند شرحه لقوله ﷺ: «**بين النفختين أربعون**»[٦] قال: «يعني:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٢٦)، والترمذي في أبواب صفة القيامة، باب ما جاء في الصور وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٦٨) حديث ١٠٨٠.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٤) المفهم (٦/ ٢٣٢).

(٥) المفهم (٦/ ٢٣٢).

(٦) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ ح٤٨١٤ (٨/ ٤١٤)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين ح٢٩٥٥ (١٨/ ٣٠٣).

نفختي الصعق والبعث يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[1]»[2].

والقول الراجح الذي تؤيده الأدلة أن النفخ في الصور نفختان فقط:

الأولى: نفخة إماتة يموت فيها كل من كان حيًا إلاَّ من استثنى الله تعالى وهي نفخة الصعق.

والثانية: نفخة إحياء يحيى بها من مات، وهي نفخة البعث.

ولكن الإشكال مع هذا ما جاء من قوله ﷺ في بيان فضل موسى عليه السلام، إذ قال: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلَّا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يبعث** ـ وفي رواية ـ: **أول من يفيق فإذا موسى آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي**»[3].

وقد بيَّن القرطبي هذا الإشكال ووجه الانفصال عنه فقال: هذا مشكل بالمعلوم من الأحاديث الدالة على أن موسى ـ عليه السلام ـ قد توفي، وأن النبي ﷺ قد رآه في قبره، وبأن المعلوم المتواتر: أنه توفي بعد أن ظهر دينه وكثرت أمته ودفن بالأرض ووجه الإشكال: أن نفخة الصعق إنما يموت بها من كان حيًّا في هذه الدار فأما من مات فيستحيل أن يموت مرة أخرى؛ لأن الحاصل لا يستحصل ولا يبتغى، وإنما ينفخ في الموتى نفخة البعث وموسى قد مات، فلا يصح أن يموت مرة أخرى، ولا يصح أن يكون مستثنى ممن صعق؛ لأن المستثنين أحياء لم يموتوا، ولا يموتون، فلا يصح استثناؤهم من الموتى، وقد رام بعضهم الانفصال عن هذا الإشكال فقال: يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا قول باطل بما ذكرناه، قال القاضي عياض: «يحتمل أن المراد بهذه الصعقة صعقة فزع بعد النشر حين تنشق السموات والأرضون قال: فتستقل الأحاديث والآيات. قلت: وهذه غفلة عن مساق الحديث، فإنه يدل على بطلان ما ذُكر دلالة

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٢) المفهم (٧/٣٠٦).
(٣) سبق تخريجه ص(٥٢٢).

واضحة فإن النبي ﷺ، قال: إنه حين يخرج من القبر فيلقى موسى وهو متعلق بالعرش وهذا كان عند نفخة البعث ثم إنَّ النبي ﷺ عندما يرى موسى يقع له تردد في موسى على ظاهر هذا الحديث هل مات عند نفخة الصعق المتقدمة على نفخة البعث فيكون قد بعث قبله، أو لم يمت عند نفخة الصعق لأجل الصعقة التي صعقها على الطور جعلت له تلك عوضًا من هذه، وعلى هذا فكان حيًّا حالة نفخة الصور، ولم يصعق، ولم يمت وحينئذ يبقى الإشكال إذا لم يحصل عنه انفصال.

قلت: والذي يزيحه إن شاء الله تعالى أن يقال: إن الموت ليس بعدم، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين فهذه صفات الأحياء في الدنيا، وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى... فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق، صعق كل من في السموات والأرض إلاَّ من شاء الله، فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق فهذا الذي يظهر لي والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله»[١].

قال الشيخ الغنيمان بعد نقله لكلام القرطبي السابق: «قلت: وحاصل هذا الجواب أن الصعقة المذكورة في الحديث هي الصعقة الأولى، وأن الصعق يكون للأرواح، وكل ذلك باطل؛ لأن الحديث ينص على أنها نفخة البعث، ومعلوم أن الأرواح لا تموت، فكيف يكون صعق غير الأنبياء موتًا مع أنه زعم أن الصعق للأرواح وكل ذلك يفتقر إلى دليل، والأدلة بخلافه.

ولهذا قال ابن القيم: وحمل الحديث على هذا لا يصح لأنه ﷺ تردد هل أفاق موسى قبله، أو لم يصعق بل جوزي بصعقة الطور. فالمعنى لا أدري أصعق أم لم يصعق؟.

وقال في الحديث: **«فأكون أول من يفيق»** وهذا يدل على أنه ﷺ

---

(١) المفهم (٦/ ٢٣٢، ٢٣٤).

يصعق فيمن يصعق وأن التردد حصل في موسى هل صعق وأفاق قبله من صعقته أو لم يصعق؟ ولو كان المراد به الصعقة الأولى، وهي صعقة الموت، لكان ﷺ قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أو لم يمت وهذا باطل... فالأقرب في هذه المسألة ما قاله الحليمي: «أن المعنى إذانفخ في الصور مرة أخرى كنت أول من بعث فأجد موسى مبعوثًا قبلي، فلا أدري أفضل بذلك على سائر الخلق، أو أن ذلك جزاء له بصعقه الطور، وهذا بناء على أن النفخ في الصور مرتان وهو الذي تؤيده الأدلة الصحيحة»[١].

واختلف في المستثنى من النفخ من هو؟ فقيل: الملائكة، وقيل: الأنبياء، وقيل: الشهداء، والصحيح: أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل، والله أعلم[٢].

قال شيخ الإسلام: وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل من استثنى الله، فإن الله أطلق في كتابه وتوقف النبي ﷺ، فصار هذا مثل العلم بوقت الساعة لا ينال إلاَّ بالخبر والله أعلم[٣].

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان (١/ ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٨).
(٢) المفهم (٧/ ٣٠٦).
(٣) الفتاوى (٤/ ٢٦١) بتصرف.

المبحث الثاني
البعث والنشور

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾[1]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾[2]، وقال ﷺ في حديث جبريل: «**وتؤمن بالبعث الآخر**»[3].

قال القرطبي: «وصف البعث بالآخر يحتمل أن يكون على جهة التأكيد، كما قالوا: أمس الدابر، وأمس الذاهب، ويحتمل أن يقال: إن البعث إحياء بعد إماتة، وقد فعل الله ذلك مرتين فأحيانا بعد أن كنا نطفًا وعلقًا ومضغًا، وهي أموات، ثم يحيينا ليوم القيامة، وهو البعث الآخر، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾[4]»[5].

صفة البعث والنشور:

جاء في صفة البعث والنشور، قوله ﷺ: «**ثم يُنْزِلُ اللهُ من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلَّا يبلى إلَّا عظمًا واحدًا لا تأكله الأرض أبدًا هو عجبُ الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة**»[6].

قال القرطبي: «قوله: «**ثم ينزل الله من السماء ماء**» يعني به بعد نفخة الصعق ينزل هذا الماء هو كمني الرجال، فتتكون فيه الأجسام بقدرة الله تعالى، وعن ذلك عبَّر بقوله: «**فينبتون كما ينبت البقل**، فإذا تهيأت الأجسام وكمُلَت نفخ في الصور نفخة البعث فخرجت الأرواح من المحال التي هي

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٦، ٧.
(٢) سورة التغابن، الآية: ٧.
(٣) سبق تخريجه ص(١٠٦).
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨.
(٥) المفهم (١/ ١٥١).
(٦) هو حديث «بين النفختين أربعون» سبق تخريجه ص(٦٥٣).

فيها، قال بعضهم: فتأتي كل روح إلى جسده فيحييها الله تعالى كل ذلك في لحظة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾[1]»[2].

وقال عن «عجب الذنب» الذي يركب منه الخلق يوم القيامة: «عجب الذنب» يقال بالباء والميم، وهو جزء لطيف في أسفل الصلب، وقيل هو رأس العصعص... وهو أول ما خلق منه الإنسان، ثم الله تعالى يبقيه إلى أن يركب الخلق منه تارة أخرى»[3].

وبيَّن القرطبي أن الأرض تأكل لحوم بني آدم، كما جاء في هذا الحديث، وهو عام، لكن النبي والشهيد والمؤذن المحتسب مستثنى من هذا العموم»[4].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٢) المفهم (٧/ ٣٠٦).
(٣) المفهم (٧/ ٣٠٧).
(٤) انظر: المفهم (٧/ ٣٠٧).

المبحث الثالث

الحشر

قال القرطبي: «الحشر: الجمع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾[١]»[٢].

وقد جاء في الحشر قوله ﷺ: «**يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين وراهبين**»[٣].

وقد اختلف العلماء في هذا الحديث، فمنهم من حمله على الحشر في الدنيا، ومنهم من حمله على الحشر في الآخرة، وقد ذهب القرطبي إلى القول الأول[٤].

والحديث الذي اتفق العلماء على وروده في الحشر هو قوله ﷺ: «**يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة غرلاً** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾[٥] **ألا وإن أول الناس يكسى يوم القيامة إبراهيم**»[٦].

قال القرطبي: «قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي: يعيده على خلقته الأولى لا ينقص منها شيء. وقوله: «**ألا إن أول الناس يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام**» هذا يدل على أن الناس كلهم ـ الأنبياء وغيرهم ـ يحشرون عراة كما قال في الحديث، وأن أهل السعادة يكسون من ثياب الجنة، ولا شك في أن من كسي من ثياب الجنة فقد لبس جبة تقيه

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٧.

(٢) المفهم (٧/ ١٥٢).

(٣) سبق تخريجه ص(٦٣٦).

(٤) انظر: المفهم (٧/ ١٥٣).

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٦) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ ح٤٦٢٥ (٨/ ١٣٥)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ح٢٨٦٠ (١٧/ ٢٠٠).

مكاره الحشر وعرقه وحرَّ الشمس والنار وغير ذلك»[١].

أرض المحشر:

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾[٢].

اختلف العلماء في المراد بالتبديل في هذه الآية هل هو بتغيير ذاتها وصفاتها أو بتغيير صفاتها فقط؟

قال القرطبي عن هذه الآية مبينًا رأيه في هذه المسألة: «هذا يدل على أن معنى التبديل: إزالة هذه الأرض والإتيان بأرض أخرى لا كما قاله كثير من الناس: أنها تبدل صفاتها وأحوالها فتسوى آكامها وتغير صفاتها وتمد مد الأديم. ولو كان هذا لما أشكل كون الناس فيها عند تبديلها ولما جمعوا على الصراط حينئذ، وقد دل على صحة الظاهر المتقدم حديث عائشة إذ سألت عن هذا رسول الله ﷺ فقال مجيبًا لها: «**على الصراط**»[٣] والأرض المبدلة هي الأرض التي ذكرها في حديث سهل بن سعد حيث قال: «**يحشر الناس على أرض بيضاء عفراء، ليس فيها علم لأحد**»[٤]وهذا الحشر هو جمعهم فيها بعد أن كانوا على الصراط والله أعلم[٥].

وبيَّن أنه قد يكون التبديل هو قلب الأسفل أعلى، كما قال ﷺ: «**تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر**»[٦]

---

(١) المفهم (٧/ ١٥٢).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٣) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة ح٢٧٩١ (١٧/ ١٤٠).

(٤) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ح٦٥٢١ (١١/ ٣٧٩)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة ح٢٧٩٠ (١٧/ ١٤٠).

(٥) المفهم (١/ ٥٧٣). وانظر: (٧/ ٣٥١).

(٦) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب نفخ الصور ح٦٥٢٠ (١١/ ٣٧٩)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب نزل أهل الجنة ح٢٧٩٢ (١٧/ ١٤١).

قال القرطبي في شرح هذا الحديث ظاهره أنَّ هذه الأرض تقلب فيعاد ماكان أسفلها أعلاها كما يفعل بالخبزة وهو تبديل صحيح لأن الوجه الذي كان أسفل هو أرض أخرى غير الوجه الذي كان أعلى فهو تبديل محقق فيجوز أن يكون هذا هوالتبديل الذي أراد الله تعالى في الآية[١].

(١) المفهم (٧/ ٣٥٢).

المبحث الرابع
الميزان

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾[١]، وقال ﷺ: «**يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت**»[٢].

قال الحافظ ابن حجر: «أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأنكرت المعتزلة الميزان، وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة؛ لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين»[٣].

وقد قال بعض أهل السنة أن الميزان بمعنى العدل والقضاء[٤].

والصحيح ما عليه جمهور أهل السنة وهو الذي ذهب إليه القرطبي.

ما الذي يوزن في الميزان:

اختلف أهل العلم في الذي يوزن في الميزان هل هو الأعمال أم صحائف الأعمال أم العامل نفسه؟[٥].

والقرطبي قد رجّح أن الذي يوزن هي الأعمال، ونفى وزن الأشخاص، وذلك عندشرحه لقوله ﷺ: «**ليأتي الرجل العظيم السمين يوم**

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب الأهوال، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٦١٩) حديث ٩٤١.

(٣) فتح الباري (١٣/ ٥٤٨)، وقد نقله عن الزجاج.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٣٣)، وتفسير القرطبي (١١// ١٩٤)، وزاد المسير لابن الجوزي (٣/ ١٣٠).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٣٣)، والتذكرة للقرطبي ص (٣٦٠)، ومعارج القبول للحكمي (٢/ ٨٤٤).

القيامة لا يزن جناح بعوضة، اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾(١)»(٢).

حيث قال: «أي: لا قيمة له ولا قدر إذ لا عمل له يوزن فإن الأعمال هي التي توزن أي: صحتها لا أشخاص العاملين، وقد قال ﷺ في عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «**أتعجبون من حموشة ساقيه؟ لهيَ أثقل في الميزان من أُحد**»(٣) أو كما قال. أي: الأعمال التي عمل بها أثقل في الميزان، لا أن ساقيه توضعان في الميزان، ولا شخصه، كما قد ذهب إليه بعض المتكلمين على هذه الآية، فقال: إن الأشخاص توزن»(٤).

وما نسبه القرطبي إلى المتكلمين قد قال به بعض أهل السنة، فالمسألة خلافية بينهم.

والذي يترجح جمعًا بين الأقوال، وإعمالاً لجميع النصوص الواردة في ذلك ماذهب إليه الشيخ حافظ الحكمي(٥) ـ رحمه الله ـ: حيث قال: «والذي استظهر من النصوص ـ والله أعلم ـ أن العامل وعمله وصحيفة عمله ـ كل ذلك يوزن؛ لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل ذلك ولا منافاة بينها»(٦).

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم﴾ ح٤٧٢٩ (٨/ ٢٧٩)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ح٢٧٨٥ (١٧/ ١٣٥).

(٣) رواه أحمد في المسند (١/ ١١٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الفضائل، باب ما ذكر في عبدالله بن مسعود (٦/ ٣٨٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد وأبويعلى والبزار والطبراني من طرق، وأمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح (٩/ ٢٨٩).

(٤) المفهم (٧/ ٣٥٩).

(٥) حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، ولد ونشأ وتعلم في جيزان جنوب المملكة، برز من صغره وكان آية في الذكاء والحفظ حتى فاق أقرانه، ودرَّس زملاءه، تولى إدارة المعهد العلمي بصامطة حتى توفي وذلك بمكة بعد موسم الحج سنة (١٣٧٧هـ) وعمره ٣٥ سنة رحمه الله تعالى. العلماء الذين لم يتجاوزوا سن الأشد ص(٢١٥)، معجم المؤلفين (١/ ٥١٩).

(٦) معارج القبول للحكمي (٢/ ٨٤٨).

المبحث الخامس
الشفـاعة

قال القرطبي في تعريف الشفاعة: «الشفاعة أصلها؛ الضم والجمع، ومنه ناقة شفوع، إذا جمعت بين حلبتين في حلبة واحدة، وناقة شافع، إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها والشفع ضم واحد إلى واحد، والشفعة: ضم ملك الشريك إلى ملكك. فالشفاعة إذن: ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك، فهي على التحقيق: إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع وإيصال منفعة إلى المشفوع»(١).

وقد دلَّ الكتاب والسنة على وقوع الشفاعة يوم القيامة بشرطين:

الأول: أن تكون بعد إذن الله تعالى للشافع.

الثاني: أن يرضى الله تعالى عن المشفوع له.

قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾(٣).

والأحاديث فيها كثيرة، منها حديث الشفاعة العامة الطويل الذي سبق تخريجه عند الحديث عن خصائص الرسول ﷺ، ومنها قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع**»(٤).

ولم ينكرها إلاَّ الخوارج والمعتزلة بناء على مذهبهم في مرتكب الكبيرة، ويرد عليهم قوله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»(٥).

أنواع الشفاعة:

ذكر القرطبي عن القاضي عياض أن شفاعات النبي ﷺ يوم القيامة

---

(١) المفهم (١/ ٤٢٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٤) سبق تخريجه ص(٥١٩).

(٥) رواه أبوداود في كتاب السنة، باب في الشفاعة والترمذي في أبواب صفة القيامة، باب ما جاء في الشفاعة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٩١) حديث ٣٧١٤.

أربع، وهي:

الأولى: شفاعته العامة لأهل الموقف ليعجل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم، وهي الخاصة به ﷺ.

الثانية: في إدخال قوم الجنة دون حساب.

الثالثة: في قوم من موحدي أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيخرجون من النار ويدخلون الجنة بشفاعته، وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة: الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة، وهي الاستحقاق العقلي المبني على التحسين والتقبيح العقليين، وتلك الأصول قد استأصلها أئمتنا في كتبهم لأنها مصادمة لأدلة الكتاب والسنة الدالة على وقوع الشفاعة في الآخرة، ومن تصفح الشريعة والكتاب والسنة وأقوال الصحابة وابتهالهم إلى الله تعالى في الشفاعة علم على الضرورة صحة ذلك وفساد من خالف في ذلك.

الرابعة: في زيادة الدرجات في الجنة وترفيعها[١].

وبيَّن شفاعات غير النبي ﷺ في يوم القيامة عند شرحه لقوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأوَّل من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع**»[٢] حيث قال: «مقصود هذا الحديث أن يبين أنه لا يتقدمه شافع، لا من الملائكة ولا من النبيين، ولا من المؤمنين في جميع أقسام الشفاعات، على أن الشفاعة العامة لأهل الموقف لا تكون لغيره»[٣].

---

(١) المفهم (١/ ٤٣٧).

(٢) سبق تخريجه ص(٥١٩).

(٣) المفهم (٦/ ٤٩).

المبحث السادس

الحـوض

لقد أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بخصائص كثيرة، منها هذا الحوض الذي جاءت الأحاديث في إثباته ووصفه وبيان من يَرِدُ عليه ممن يذاد عنه.

وجوب الإيمان به والرد على من أنكره :

قال القرطبي: «ومما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به: أن الله تعالى قد خصَّ نبيه محمدًا ﷺ بالكوثر، الذي هو الحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه وآنيته في الأحاديث الكثيرة الصحيحة الشهيرة، التي يحصل بمجموعها العلم القطعي واليقين التواتري، إذ قد روى ذلك عن النبي ﷺ من الصحابة نيِّفٌ على الثلاثين، في الصحيحين منهم نيِّفُ على العشرين، وباقيهم في غيرهما، مما صح نقله واشتهرت روايته، ثم قد رواها عن الصحابة من التابعين أمثالهم ثم لم تزل تلك الأحاديث مع توالي الأعصار وكثرة الرواة لها في جميع الأقطار تتوفر همم الناقلين لها على روايتها وتخليدها في الأمهات، وتدوينها إلى أن انتهى ذلك إلينا، وقامت به حجة الله علينا، فلزمنا الإيمان بذلك، والتصديق به كما أجمع عليه السلف وأهل السنة من الخلف، وقد أنكرته طائفة من المبتدعة، وأحالوه عن ظاهره، وغلوا في تأويله من غير إحالة عقلية، ولا عادية تلزم من إقراره على ظاهره، ولا منازعة سمعية ولا نقلية تدعو إلى تأويله، فتأويله تحريفٌ صدر عن عقل سخيف خرق به إجماع السلف، وفارق به مذهب أئمة الخلف»[١].

موضع الحوض :

وقع الاختلاف بين العلماء في موضع الحوض: أهو قبل الصراط أم بعده؟

والقرطبي ـ رحمه الله ـ يرى أن الحوض بعد الصراط، واستدل بقوله

---

(١) المفهم (٦/ ٩٠).

ﷺ عن الحوض: «**من شرب منه لم يظمأ أبدًا**»[١] حيث قال: «ظاهر هذا وغيره من الأحاديث: أن الورود على هذا الحوض والشرب منه إنما يكون بعد النجاة من النار، وأهوال القيامة؛ لأن الوصول إلى ذلك المحل الشريف والشرب منه والوصول إلى موضع يكون فيه النبي ﷺ، ولا يمنع عنه من أعظم الإكرام، وأجل الإنعام، ومن انتهى إلى مثل هذا كيف يعاد إلى حساب أو يذوق بعد ذلك تنكيل خزي وعذاب؟! فالقول بذلك أوهى من السراب»[٢].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر الخلاف في هذا، وبيَّن استدلال كل فريق بما ذهب إليه، واستظهر أن مذهب البخاري أن الحوض بعد الصراط؛ لأن البخاري أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة وأحاديث الصراط[٣].

وقد حاول الشيخ زيد بن عبدالعزيز الفياض[٤] الجمع بين القولين، فقال بعد أن أورد الأحاديث المبينة لعظم الحوض وطوله: «فإذا كان بهذا الطول والسعة فما الذي يحيل امتداده إلى ماوراء الجسر، فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعده، فهذا في حيز الإمكان، ووقوعه موقوف على خبر الصادق والله أعلم»[٥].

عظم الحوض ودفع دعوى الاضطراب في أحاديث تحديده:

لقد جاءت أحاديث كثيرة في بيان صفة هذا الحوض، وقع فيها بعض

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب في الحوض، وقوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ ح٦٥٧٩ (١١/ ٤٧٢)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ح٢٢٩٢ (١٥/ ٦٠).

(٢) المفهم (٦/ ٩١).

(٣) فتح الباري ١١/ ٤٧٤).

(٤) زيد بن عبدالعزيز بن زيد بن فياض أحد العلماء المعاصرين المكثرين من التأليف درَّس في جامعة الإمام، وتولى قبلها عدة أعمال في الافتاء ورئاسة القضاء له العديد من المؤلفات منها: «نظرات في الشريعة» و«واجب المسلمين في نشر الإسلام» وغيرها. توفي رحمه الله في (٢١/ ١١/ ١٤١٦هـ) علماء نجد للبسام (٢/ ٢٠٣) موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين لأحمد سعيد بن مسلم (٣/ ٧٠).

(٥) الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية لزيد الفياض ص(٣٣٩).

الاختلاف في تقدير مسافة الحوض، مما جعل بعض العلماء يحكمون على تلك الأحاديث بالاضطراب، فقال القرطبي في الرد عليهم: «قد اختلفت الألفاظ الدالة على مقدار الحوض، كما هو مبين في الروايات المذكورة في الأصل، وقد ظنَّ بعض القاصرين أن ذلك اضطراب وليس كذلك، وإنما تحدث النبي ﷺ بحديث الحوض مرات عديدة، وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة إشعارًا بأن ذلك تقدير لا تحقيق، وكلها تفيد أنه كبير متسع متباعد الجوانب والزوايا، ولعل سبب ذكره للجهات المختلفة في تقدير الحوض أن ذلك إنما يكون بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهات فيخاطب كل قوم بالجهة التي يعرفونها والله أعلم»(١).

من يَرِدُ الحوضَ ومن يُرَدُّ عنه :

قال ﷺ: «**إني لبعُقْرِ حوضي أذود الناس لأهل اليمن**»(٢) قال القرطبي في شرح هذا الحديث: «يعني السابقين من أهل اليمن الذين نصره الله بهم في حياته وأظهر الدين بهم بعد وفاته، وقد تقدم أن المدينة من اليمن، وأنهم أحق بهذا الإكرام من غيرهم، لما ثبت لهم من النُّصرة والأثرة، ولذلك قال للأنصار: «**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**»(٣) وأذود: أدفع، فكأنه يطرِّق لهم مبالغة في إكرامهم حتى يكونوا أول شارب كما يفعل بفقراء المهاجرين إذ ينطلق بهم إلى الجنة، فيدخلهم إلى الجنة قبل الناس كلهم»(٤).

وقد جاء في حديث آخر: دفع أناس عنه، حيث قال ﷺ: «**ألا ليُذَادنَّ**

---

(١) المفهم (٦/ ٩٢)، وانظر: (٦/ ٩٥)، وقد قرر الحافظ ابن حجر ما قرره القرطبي وحاول الجمع بين هذه الألفاظ فقال في توجيه هذا الاختلاف: «وإذا تقرر ذلك رجع جميع المختلف إلى أنه لاختلاف السير البطيء والسريع» فتح الباري (١١/ ٤٨٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا محمد ﷺ وصفاته ح٢٣٠١ (١٥/ ٦٨).

(٣) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي عليه السلام للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض» ح٣٧٩٢ (٧/ ١٤٦)، ومسلم في كتاب الزكاة باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام ح١٠٥٩ (٧/ ١٥٧).

(٤) المفهم (٦/ ٩٦).

رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم: ألا هَلُمَّ ألا هلُمَّ فيقال: إنهم قد بدَّلوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا»[١]، قال القرطبي: «اختلف العلماء في تأويله فالذي صار إليه الباجي[٢] وغيره وهو الأشبه بمساق الأحاديث، أن هؤلاء الذين يقال لهم هذا القول ناس نافقوا وارتدوا من الصحابة وغيرهم فيحشرون في أمة النبي ﷺ... وعليهم سيماء هذه الأمة من الغرة والتحجيل، فإذا رآهم النبي ﷺ عرفهم بالسيماء، ومن كان من أصحابه بأعيانهم فيناديهم؛ «ألا هلم» فإذا انطلقوا نحوه حيل بينهم وبينه وأُخذ بهم ذات الشمال، فيقول النبي ﷺ: «**يارب أمتي ومن أمتي**» وفي لفظ آخر: «**أصحابي**» فيقال له إذ ذاك: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، وإنهم لم يزالوا مرتدين منذ فارقتهم» فإذ ذاك تذهب عنهم الغرة والتحجيل ويطفأ نورهم فيبقون في الظلمات فينقطع بهم عن الورود وعن جواز الصراط، فحينئذ يقولون للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ فيقال لهم: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورًا﴾[٣] مكرًا وتنكيلاً ليتحققوا مقدار مافاتهم فيعظم أسفهم وحسرتهم أعاذنا الله من أحوال المنافقين، وألحقنا بعباده المخلصين، وقال الداودي وغيره: يحتمل أن يكون هذا في أهل الكبائر والبدع الذين لم يخرجوا عن الإيمان ببدعتهم، وبعد ذلك يتلافاهم الله برحمته ويشفع لهم النبي ﷺ قال القاضي عياض: والأول أظهر»[٤].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء ح٢٤٩ (٣/ ١٤٠).

(٢) أبوالوليد سليمان بن خلف التجيبي القرطبي الشهير بالباجي رحل كثيرًا في طلب العلم حتى برز له تصانيف كثيرة مشهورة توفي سنة (٤٧٤هـ). سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٣٥)، الديباج المذهب ص(١٩٧).

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٣.

(٤) المفهم (١/ ٥٠٤، ٥٠٥).

المبحث السابع
الصـراط

قال القرطبي في تعريف الصراط: «الصراط في اللغة: هو الطريق، وفيه لغات: الصاد والسين والزاي، وهو هنا: الطريق من أرض المحشر إلى الجنة، وهو منصوب على متن جهنم، أدقُّ من الشعر، وأحدُّ من السيف، وهو المسمى بالجسر في الحديث الآخر»[١].

«فجهنم ـ أعاذنا الله منها ـ محيطة بأرض المحشر وحائلة بين الناس وبين الجنة، ولا طريق للجنة إلاَّ الصراط الذي هو جسر ممدود على متن جهنم، فلابد لكل من ضمه المحشر من العبور عليه فناج مُسَلَّمٌ، ومخدوش مرسل، ومُكَردسٌ في نار جهنم»[٢].

وأول من يجتاز هذا الصراط هذه الأمة إكرامًا لها، كما قال ﷺ: «**فأكون أنا وأمتي أول من يجيز**»[٣].

وصفةمرور الناس على الصراط على قدرأعمالهم كماقال ﷺ: «**وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلاَّ زحفًا، قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج، ومكردس في جهنم**»[٤].

قال القرطبي: «قوله: «**تجري بهم أعمالهم**» يعني: أن سرعة مرهم على الصراط بقدر أعمالهم ألا تراه كيف قال: «**حتى تعجز أعمال العباد**» وشد الرجال: جريهم الشديد... والزحف: مشي الضعيف والموبق بعمله: المهلك بعمله السيء»[٥].

---

(١) المفهم (١/ ٤١٩).

(٢) المفهم (٦/ ٤٤٤).

(٣) سبق تخريجه ص(٥٠٩).

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة ح١٩٥ (٣/ ٧٠).

(٥) انظر: المفهم (١/ ٤٢٠، ٤٤٨).

المبحث الثامن

ذبح الموت

لقد جاء في الحديث أن الموت يذبح يوم القيامة بين الجنة والنار إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ليكون زيادة في سعادة أهل الجنة وإكمالاً لنعيمهم وأمنًا لهم وعذابًا لأهل النار وزيادة لأحزانهم قال ﷺ: «**يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة! هل تعرفون من هذا؟ فيشرئبون فينظرون فيقولون: نعم هذا الموت! قال: ويقال: يا أهل النار! هل تعرفون من هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون فيقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح قال: ثم يقال: يا أهل الجنة! خلود فلا موت ويا أهل النار! خلود فلا موت**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾[١] وأشار بيده إلى الدنيا»[٢].

وقد استشكل هذا الحديث على البعض إذ قالوا: إن الموت عرض والعرض لا ينقلب جسمًا فكيف يذبح؟ فزعموا أن هذا يخالف صريح العقل[٣].

لذا ذهب بعضهم إلى الطعن في صحة الحديث ومن سلم بالحديث صرفه عن ظاهره حيث جعلوا هذا من باب التمثيل لا الحقيقية، وقال آخرون: أن هذا الذبح لمتولي الموت لا للموت نفسه.

والقرطبي ـ رحمه الله ـ ممن استشكل عليه هذا الحديث فالتمس له التأويل حيث قال في شرحه: «ظاهر هذا الحديث مستحيل وذلك أن العقلاء

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ ح٤٧٣٠ (٨/ ٢٨٢)، ومسلم في كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها ح٢٨٤٩ (١٧/ ١٩٠).

(٣) قال شيخ الإسلام: «الأنبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول» الفتاوى (٢/ ٣١٢)، وانظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢/ ٥٧٨).

اتفقوا على أن الموت: إما عرض مخصوص، وإمانفي الحياة، ولم يذهب أحد إلى أنه من قبيل الجواهر وأيضًا: فإن المدرك من الموت والحياة إنما هما أمران متضادان متعاقبان على الجواهر كالحركة وكالسكون، وقد دل على ذلك من جهة السمع قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾(١) فهذا يبطل قول من قال من المعتزلة: إن الموت عدم الحياة لأن العدم لا يخلق ولا يوجب اختصاصًا للجواهر واستيفاء المباحث العقلية في علم الكلام وإذاتقرر ذلك استحال أن ينقلب الموت كبشًا لأن ذلك انقلاب الحقائق وهو محال وقد تأول الناس ذلك الخبر على وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى خلق صورة كبش خلق فيها الموت فلما رآه أهل الجنة وأهل النار وعرفوه فعل الله فيه فعلاً يشبه الذبح أعدمه عند ذلك الفعل حتى يأمنه أهل الجنة فيزدادوا سرورًا إلى سرورهم وييأس منه أهل النار فيزدادوا حزنًا إلى حزنهم وعلى هذا يدل باقي الحديث، ولا إحالة في شيء من ذلك ولا بُعد.

والوجه الثاني: أن المراد بالحديث تمثيل عدم الموت على جهة التشبيه والاستعارة ووجهه: أن الموت لما عدم في حق هؤلاء صار بمثابة الكبش الذي يذبح فينعدم فعبَّر عنه بذلك وهذا فيه بُعْدُ وتحميل للكلام على ما لا يصلح له والوجه المعنى: الأول والله أعلم»(٢).

وكذا المازري أوَّل هذا الحديث فقال: الموت عرض من الأعراض عندنا يضادُّ الحياة وقال بعض المعتزلة: ليس بمعنى وهو يرجع إلى عدم الحياة وعلى المذهبين وإن كان الثاني منهما خطأ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ فأثبت الموت مخلوقًا ولغير ذلك من الأدلة لا يصح أن يكون الموت كبشًا ولا جسمًا من الأجسام وإنما المراد التشبيه والتمثيل وقد يخلق الباري سبحانه هذا الجسم ثم يذبح ويجعل هذا مثالاً؛ لأن الموت لا يطرأ على أهل الآخرة»(٣).

---

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

(٢) المفهم (٧/ ١٩٠).

(٣) المعلم (٣/ ٢٠٣).

والصحيح أن ما أنكروه ليس بمحال إذ لا مانع أن ينشيء الله من الأعراض أجسادًا يجعلها مادة لها كما ثبت في صحيح مسلم في حديث: «**أن البقرة وآل عمران يجيئان كأنهما غمامتان**»[١] ونحو ذلك من الأحاديث[٢].

وهذا الحديث وأمثاله ينبغي أن نؤمن به ونترك الخوض في حقيقته ونعلم «أن الله تعالى على كل شيء قدير» «وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون» فالعقول لا تحكم بمثل هذه المسائل وهي مسائل الغيب، والله تعالى أعلم.

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ح٨٠٤ (٦/ ٣٣٧).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤٢٩).

الفصل الرابع
الجنة والنار

الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين الذين عملوا بطاعته في الدنيا، وابتعدوا عن معصيته، وقد أعد سبحانه وتعالى لهم فيها من أنواع النعيم ومن الحور والقصور ما لا يعلمه إلاَّ الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾[١].

وقد قال ﷺ في بيان ما أعد الله تعالى في الجنة من النعيم، قال الله عز وجل: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[٢]، وأما النار فهي دار أعدها الله تعالى لمن عصاه، وخالف أمره، في هذه الدنيا، فهي دار الذل والهوان والعذاب، ولذا جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ في بيان عذاب أهلها وشدة نكالهم ما فيه رادع لمن له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، قال تعالى محذرًا منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾[٤].

فنحن نؤمن بالجنة وما أعد الله فيها من النعيم، ويكون هذا الإيمان

---

(١) سورة الدخان، الآيات: ٥١_٥٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ح٣٢٤٤ (٦/ ٣٦٦)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ح٢٨٢٤ (١٧/ ١٧١).

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٤) سورة النبأ، الآيات: ٢١_٢٦.

دافعًا للعمل الصالح المقرب إلى الله تعالى الموصل إلى دار كرامته[١].

ونؤمن بالنار، وما أعد الله تعالى فيها لمن عصاه ويكون هذا الإيمان مانعًا من اقتراف المعاصي والذنوب لأنها هي الطريق إلى هذا العذاب الأليم والنكال والجحيم[٢].

فالإيمان بالجنة والنار ينحصر في ثلاثة أمور:

الأول: اعتقاد كونهما حقًّا لا ريب فيه.

الثاني: اعتقاد وجودهما الآن.

الثالث: اعتقاد دوامهما وبقائهما بإبقاء الله تعالى لهما وأنهما لا تفنيان أبدًا ولا يفنى من فيهما.

قال الصابوني: ويشهدأهل السنة ويعتقدون أن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما باقيتان لا تفنيان أبدًا وأن أهل الجنة لا يخرجون منها أبدًا وكذلك أهل النار الذين هم أهلها خلقوا لها[٣] لا يخرجون أبدًا»[٤].

خلق الجنة والنار:

الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن فالجنة معدة للمتقين والنار معدة للكافرين قال تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[٥] وقال تعالى عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[٦] والأدلة من السنة كثيرة: منها قوله ﷺ عندما قال الصحابة: فلان شهيد، قال: «**كلا إني أريته في النار في بردة غلها أو عباءة**»[٧].

قال القرطبي؛ «قوله: «**إني أريته في النار**» ظاهره أنها رؤية عيان ومشاهدة لا رؤية منام فهو حجة لأهل السنة على قولهم: إن الجنة والنار قد

---

(١) انظر: المفهم (١/ ٤٢٣، ٤٣٨، ٢/ ٣٣، ٥/ ٢٧١، ٦/ ٥٣٠، ٧/ ١٦٦١).

(٢) انظر: المفهم (١/ ٤٢٢، ٤٩٥، ٢/ ٢٤٤، ٥٥٤، ٧/ ١٨٦، ١٨٧).

(٣) وهم الكفار وأما من يدخل النار من الموحدين فلم يخلق لها.

(٤) عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص(١٠٣).

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٧) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب تحريم الغلول ح١١٤ (٢/ ٤٨٧).

خلقتا ووجدتا»[١].

وقوله ﷺ في حديث خسوف الشمس: «**رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به حتى لقد رأيتني أريد أن آخذ قطفًا من الجنة حين رأيتموني أتقدم، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا حين رأيتموني تأخرت ورأيت فيها ابن لحي**[٢]»[٣].

قال القرطبي: «هذه الرؤية رؤية عيان حقيقة لا رؤية علم بدليل: أنه رأى في الجنة والنار أقوامًا بأعيانهم ونعيمًا وقطفًا من عنب وتناوله وغير ذلك ولا إحالة في إبقاء هذه الأمور على ظواهرها لاسيما على مذاهب أهل السنة: في أن الجنة والنار قد خلقتا ووجدتا كما دل عليه الكتاب والسنة»[٤].

وقال في موضع آخر: «أهل السنة يقولون: أن الجنة والنار قد خلقتا ووجدتا خلافًا للمبتدعة الذين قالوا: إنهما لم تخلقا بعد وستخلقان»[٥].

وهذا هو القول الصواب؛ إذ أهل السنة والجماعة قد اتفقوا على ذلك.

قال الآجري: اعلموا ـ رحمنا الله وإياكم ـ أنَّ القرآن شاهد أن الله خلق الجنة والنار قبل أن يخلق آدم ـ عليه السلام ـ وخلق للجنة أهلاً قبل أن يخرجهم إلى الدنيا لا يختلف في هذا من شمله الإسلام وذاق حلاوة طعم الإيمان دل على ذلك القرآن والسنة فنعوذ بالله ممن كذب بهذا»[٦].

خلود الجنة والنار:

الجنة والنار باقيتان لا تفنيان قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ

(١) المفهم (١/ ٣٢١).
(٢) عمرو بن لحي الخزاعي وهو أول من غير دين إبراهيم وأدخل عبادة الأثان في مكة.
(٣) رواه البخاري في كتاب الكسوف باب صلاة الكسوف جماعة ح١٠٥٢ (٢/ ٦٢٧)، ومسلم في كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف ح٩٠١ (٦/ ٤٥٣).
(٤) المفهم (٢/ ٥٥٣).
(٥) المفهم (٦/ ٥٤٠). وانظر: (٧/ ١٨٨).
(٦) الشريعة للآجري (٣/ ١٣٤٣)، وانظر: شرح الطحاوية(٢/ ٦١٤).

﴿فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥﴾[2]، وقال ﷺ: **«يدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يؤذن مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت كل خالد فيما هو فيه»**[3].

قال القرطبي: «من مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله تعالى رحمة ويخلد في النار أبد الآباد من غير انقطاع عذاب ولا تصرم آباد وهذا معلوم ضروري من الدين مجمع عليه من المسلمين»[4].

وقال في موضع آخر: «أما نشأة الأخرة فهي للبقاء، إما في نعيم أو في عذاب إذ لا موت كما قال في حق الكفار: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾[5]»[6].

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافًا لمن خالفهم فيها قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلاَّ طائفة من أهل الكلام المبتدعين كجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع سلف الأمة وأئمتها»[7].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٤، ٦٥.
(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ح٦٥٤٤ (١١/ ٤١٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ح٢٨٥٠ (١٧/ ١٩٢).
(٤) المفهم (١/ ٢٩٠).
(٥) سورة النساء، الآية: ٥٦.
(٦) المفهم (٧/ ٣٢).
(٧) الفتاوى (١٨/ ٣٠٧)، وانظر: شرح الطحاوية (٢/ ٦٢٠).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتجبر العثرات وتنال المكرمات وصلى الله على البشير النذير والسراج المنير وعلى آله وصحبه أجمعين.

فقد منَّ الله تعالى عليَّ بإتمام هذا البحث وبيان مسائله عرضًا ونقدًا ولا أدَّعي فيه الكمال أو الإحاطة ولكن حسبي أني بذلت فيه قصارى جهدي وكامل قوتي فإن أصبت فمن الله وحده وإن أخطأت في ذلك أو بعضه فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله من ذلك كله، وقد كان من توفيق الله تعالى لي أن توصلت من خلال دراستي هذه إلى بعض النتائج أوجزها فيما يلي:

(١) لقد عاش المازري النصف الثاني من القرن الخامس والثلث الأول من القرن السادس والقرطبي عاش في الربع الأخير من القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع، وهذا الزمن ابتليت الأمة فيه بالإضطرابات والفتن وتسلط الأعداء عليها مما كان له الأثر الواضح على حياتهما خصوصًا القرطبي الذي تسببت هذه الفتن في تركه لبلده وهجرته إلى مصر حين قضى فيها بقية عمره بعد أن سقطت بلاده الأندلس في أيدي النصارى.

(٢) تبين من خلال دراسة ذلك العصر أنَّ المذهب الأشعري في الإعتقاد هو السائد خصوصًا في تلك البلاد وهذا يظهر من خلال التزام المازري والقرطبي بهذا المعتقد كما كان عليه شيوخهما ومن أخذا العلم عنهما.

(٣) المازري والقرطبي خفي معظم آثارهما ومعالم حياتهما ورغم كثرة مؤلفاتهما إلاَّ أنه لم يصل إلينا إلاَّ القليل منها، إذ ضاعت عامة هذه المؤلفات وربما كان لأحداث تلك العصور أثر في هذا.

(٤) كتاب المعلم للمازري لايعتبر في الحقيقة شرحًا لصحيح مسلم إنما هو تعليق على بعض الأحاديث فيه وإن لم يحو جميع مسائل العقيدة إلاَّ أنَّ عقيدة المازري ظهرت من خلال هذا الكتاب ظهورًا واضحًا لا لبس فيه ولاغموض.

(٥) القرطبي رحمه الله رغم إبداعه في تلخيصه لصحيح مسلم وقوته في شرحه لهذا التلخيص في كتابه «المفهم» بحيث اعتمد عليه المتقدمون من العلماء إلاَّ أنَّ العجب من بقائه طوال هذه المدة في خزائن المخطوطات مع أهميته ومسيس الحاجة إليه وقد أخرج من الكتب مالا يقاربه ولا يدانيه.

(٦) القرطبي والمازري تفقها على مذهب الإمام مالك وهو المنتشر في تلك البلاد حتى أصبحا من أعيان المذهب المالكي.

(٧) ظهر من خلال الرسالة انتساب المازري والقرطبي للمذهب الأشعري وقد كان المازري خالصًا في أشعريته لايخرج عن مذهب الأشاعرة في جميع مسائل العقيدة ويصرح بالانتساب إليه ويدافع عنه بحماس شديد ويسمي الأشاعرة أهل السنة وأهل الحق ويضلل من خالفهم.

والقرطبي وإن كان على مذهب الأشاعرة في عامة مسائل العقيدة إلاَّ أنه قد خالفهم في بعض المسائل أو خالف المشهور من مذهب الأشاعرة إذ أثبت أنَّ أول واجب على المكلف هو النطق بالشهادتين وردَّ على من قال: إنَّ أول واجب هو النظر أو القصد إلى النظر. وكان رحمه الله شديدًا في توحيد العبادة ولم يجعل المعجزات هي الطريق الوحيد لبيان صدق الأنبياء عليهم السلام وغيرها من المسائل التي يخالف فيها ماشتهر عن الأشاعرة. ولكنه في مسائل الإيمان وباب الصفات على مذهب الأشاعرة لم يخرج عنه وله كلام شديد وعبارات قاسية فيمن خالف ما ذهب إليه الأشاعرة خصوصًا في إثبات صفات الله تعالى كما وردت في الكتاب والسنة وكما هو مذهب سلف الأمة واتضح هذا من خلال المباحث الخاصة بهذه المسائل مما لايستدعي التطويل هنا بالتفصيل فيها.

(٨) تبين من خلال هذه الرسالة قوة القرطبي رحمه الله في محاربته للفرق الضالة فقد بين انحرافات الخوارج وشطحات الصوفية وردَّ على عامَّة الفرق المنحرفة وأصحاب الإعتقادات الباطلة.

(٩) ظهرت قدرة القرطبي رحمه الله في الجمع بين الأقوال المختلفة

والأدلة المتعارضة كما قد ذكر ذلك من ترجم له.

وماحصرته في هذه النقاط مبسوط في مكانه والله تعالى أسأل أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح وأن يجعلنا ممن يبحث عن الحق ويلتزم به وأن يرزقنا تعالى الإخلاص في القول والعمل، والحمدلله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهـــارس

١ـ فهرس الآيات

سورة الفاتحة

سورة البقرة

سوة آل عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سوة الأنفال

سورة التوبة

سورة النحل

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورة مريم

سورة السجدة

سورة الأحزاب

سورة سبأ

سورة فاطر

سورة الصافات

سورة ص

سورة الزمر

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الزخرف

سورة الدخان

سورة الجاثية

سورة الأحقاف

سورة محمد

سورة الفتح

سورة الحجرات

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الحشر

سورة الممتحنة

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة العلق

سورة القدر

سورة البينة

سورة العصر

سورة الإخلاص

٢ـ فهرس الأحاديث والآثار

حرف الباء

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

أحاديث أشير إليها بالمعنى دون اللفظ

٣ ـ فهرس الأبيات الشعرية

٤ ـ فهرس الأعلام

حرف الهمزة

حرف الزاي

حرف السين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٥ـ فهرس المصادر والمراجع

حرف الألف

ـ الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ.

ـ إبطال التأويلات لأخبار الصفات، لأبي يعلى ابن الفراء الحنبلي، تحقيق محمد بن حمد النجدي، دار إيلاف، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

ـ إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، لحمود بن عبدالله التويجري، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ).

ـ إتحاف النبلاء بسير العلماء، راشد بن عثمان الزهراني، دار الصميعي، الرياض الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

ـ أحكام الرقى والتمائم، د. فهد بن ضويان السحيمي، دار أضواء السلف، الرياض الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).

ـ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الإعتقاد، للجويني، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت، الطبعة، الأولى (١٤٠٥هـ).

ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، للشوكاني، تحقيق: أحمد عبدالسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

ـ أزهار الرياض في أخبار عياض، أحمد المقري التلمساني، صندوق احياء التراث المشترك بين المغرب والإمارات، الرباط، (١٣٩٨هـ).

ـ الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبدالبر القرطبي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، مكتبة الباز، مكة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ).

ـ الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً، لمحمد الأمين الشنقيطي ، تحقيق حسن السماحي سويدان، دار القادري، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٨هـ).

- اسم الله الأعظم، د. عبدالله بن عمر الدميجي ، دار الوطن ،الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).

- إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، عبدالباقي بن عبد المجيد اليماني، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

- أشراط الساعة، يوسف بن عبدالله الوابل، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة السابعة، (١٤١٦هـ).

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، (١٤١٥هـ).

- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الحادية عشر (١٩٩٥م).

- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثانية، (١٣٦٩هـ).

- إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق د.يحيى إسماعيل ، دار الوفاء ، مصر، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).

- الإمام القرطبي شيخ أئمة التفسير، مشهور حسن سلمان، دار القلم ، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

- الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه، أحمد بن عبد العزيز الحداد، دار البشائر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

- الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة ، د.عبدالله بن عمر الدميجي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية (١٤٠٩هـ).

- الإمامة والرد على الرافضة،لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: د.علي بن محمد الفقيهي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، الطبعة الثالثة، (١٤١٥هـ).

- الإنصاف في ما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر الباقلاني، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية، القاهرة، (١٤١٣هـ).

- إنعام الباري في شرح حديث أبي ذر الغفاري ، لابن تيمية ، تحقيق: د. عبدالعلي عبدالحميد حامد، دار الريان، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

- أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: محمد السعيد زغلول ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

- إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد لابن الوزير اليماني دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٧هـ).

- الإيمان، لابن تيمية، تحقيق: محمد بن ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة،(١٤١٦هـ).

- الإيمان، للقاسم بن سلام، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الأرقم ، الكويت.

حرف الباء

- البحر المحيط للزركشي، تحقيق: د. عمر الأشقر.

- بدائع التفسير، لابن القيم، تحقيق: يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

- بدائع الفوائد، لابن القيم ، تحقيق: هشام عبد العزيز وزملاؤه، مكتبة الباز، مكة، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

- البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم وزملاؤه دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٨هـ).

- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى الضبي، تحقيق: روحية عبدالرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

حرف التاء

- تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان، ترجمة: عبدالحليم النجار، دار المعارف. مصر، الطبعة الثالثة.

- تاريخ الإسلام، لحسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٩٦٧م).

- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية، بيروت.

- تاريخ الخلفاء، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، (١٤١٦هـ).

- تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، تحقيق: محب الدين عمر بن عزامة العمروي، دار الفكر، بيروت، (١٤١٦هـ).

- تأويل مختلف الحديث، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: محمد بن محيي الدين الأصفر، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).

- التبرك المشروع والتبرك الممنوع، د. علي بن نفيع العلياني، دار الوطن الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، لأبي المظفر الأسفراييني، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، مطبعة الأنوار، ١٣٥٩هـ.

- التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، دار الفكر، بيروت.

- تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٨هـ.

- تحفة المريد في شرح جوهرة التوحيد، لإبراهيم بن محمد الباجوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

- التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية، فالح بن مهدي آل مهدي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).

- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لابن رجب الحنبلي، مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).

- التدمرية، لابن تيمية، تحقيق: د.محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤١٦هـ).

- تفسير الألوسي المسمى: «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» محمود شكري الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- تفسير البيضاوي المسمى: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» عبدالله بن عمر البيضاوي، تحقيق: عبدالقادر عرفات العشا، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ.

- تفسير السعدي المسمى: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار المغني، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

- تفسير الطبري المسمى: «جامع البيان في تأويل القرآن» محمد جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،١٤١٢هـ.

- تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر، دار إحياء الكتب العلمية، مصر، ١٣٧٨هـ.

- تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ).

- تفسير القرطبي المسمى: «الجامع لأحكام القرآن» محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ.

- تفسير النسفي المسمى: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» عبدالله بن أحمد النسفي، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٦هـ).

- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤١٧هـ)..

- تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر المروزي، تحقيق: د. عبدالرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

- التعليق على فتح الباري شرح صحيح البخاري، عبدالله بن محمد الدويش، ضمن «مجموعة مؤلفات الشيخ عبدالله الدويش»، دار العليان، بريدة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

- التكملة لكتاب الصلة، محمدبن عبدالله بن الآبار، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، (١٣٧٥هـ).

- تلبيس إبليس، لأبي الفرج بن الجوزي، تحقيق: د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٧هـ).

- تلخيص صحيح مسلم، أحمد بن عمر القرطبي تحقيق: د.رفعت فوزي وأحمد الحوزي دار السلام، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ).

- التمائم في ميزان العقيدة د. علي بن نفيع العلياني، دار الوطن الرياض الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

- التمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر القرطبي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة الغربية، مطبعة فضالة، المحمدية.

- التنجيم والمنجمون، د.عبد المجيد بن سالم المشعبي، دار أضواء السلف، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤١٩هـ).

- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

- تهذيب سنن أبي داود، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ).

- تهذيب اللغة، للأزهري تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة، مصر، (١٣٨٤هـ).

- التوسل أنواعه وأحكامه، محمد ناصر الدين الألباني، جمع وترتيب: محمد عيد العباس، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٦هـ).

- توضيح المشتبه، لابن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٩هـ).

حرف الجيم

- جامع الرسائل، لابن تيمية تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مصر.

- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، دار الجيل، بيروت، (١٤٠٧هـ).

- جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، أحمد بن القاضي المكناسي، دار المنصور، الرباط، (١٩٧٣م).

- جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصري المرابطين والموحدين، د. محمد بن إبراهيم أباالخيل، دار أصداء المجتمع، بريدة، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).

- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، تحقيق: د. علي حسن ناصر وزملاؤه، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

حرف الحاء

- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لقوام السنة إسماعيل بن محمد الأصبهاني، تحقيق: محمد بن ربيع المدخلي، دار الراية، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤١٩هـ).

- الحكم الجديرة بالإذاعة، لابن رجب، دار مرجان، مصر.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٥هـ).

- خطط المقريزي «المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار» للمقريزي، دار صادر، بيروت.

حرف الخاء

- خلق أفعال العباد، للبخاري، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

حرف الدال

- درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الرياض، (١٣٩١هـ).

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمدبن علي بن حجر العسقلاني.

- دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تحقيق: د.محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ).

- دلائل التوحيد، محمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

- دولة الإسلام في الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، محمد عبدالله بن عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية (١٤١١هـ).

- الدولة الصنهاجية، الهادي روجي إدريس، ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن نور الدين المالكي «ابن فرحون» تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).

- ديوان بشار بن برد، تحقيق: محمد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، بيروت.

- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: د. وليد عرفات، دار صادر، بيروت.

- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق: صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر.

- ديوان طرفة بن العبد، المكتبة الثقافية، بيروت.

- ديوان لبيد بن ربيعة، دار صادر، بيروت، ١٣٨٦هـ.

- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر.

حرف الذال

- ذيل مرآة الزمان، موسى اليونيني، دار زمزم، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، محمد بن محمد المراكشي، تحقيق: إحسان عباس، دارالثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٧٣هـ).

حرف الراء

- رؤية الله وتحقيق الكلام فيها، د.أحمد بن ناصر أحمد، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

- رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على المريسي، تحقيق: د.رشيد بن حسن الألمعي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).

- الرد على الجهمية، لأبي سعيد عثمان الدارمي، تحقيق: بدر بن عبدالله البدر، دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة الثانية، (١٤١٦هـ).

- الروض المعطار في أخبار الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، (١٩٧٥م).

- الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية، لزيد بن عبد العزيز الفياض، دار الوطن الرياض، الطبعة الثالثة، (١٤١٤هـ).

حرف الزاء

- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة عشر، (١٤٠٧هـ).

- الزواجر عن اقتراف الكبائر، أحمد بن علي بن حجر الهيتمي، مكتبة الباز، مكة، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).

- زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، د.عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد، مكتبة دار القلم والكتاب، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

حرف السين

ـ سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام للصنعاني، تحقيق: د.حسين بن قاسم الحسيني، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (١٤٠٥هـ).

ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، (١٤١٥هـ).

ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة، محمد بن ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

ـ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، محمد خليل المرادي، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).

ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، لأحمد المقريزي، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (١٩٧٢هـ).

ـ السنة، لابن أبي عاصم، تحقيق: محمد بن ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي. بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ).

ـ السنة لأحمد بن محمد الخلال، تحقيق: د.عطية بن عتيق الزهراني، دار الراية، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ).

ـ السنة، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: إسماعيل الأنصاري، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والإرشاد، السعودية.

ـ السنن الكبرى، للبيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مكتبة الباز، مكة، ١٤١٤هـ.

ـ السنن الكبرى للنسائي، تحقيق: د. عبدالغفار البنداري وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

ـ سير أعلام النبلاء، أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

حرف الشين

ـ شأن الدعاء للخطابي، تحقيق: أحمد الدقاق، دار المأمون، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد محمد مخلوف، دار الفكر.

ـ شذرات الذهب في أخبارمن ذهب، عبد الحي الحنبلي «ابن العماد» دار ابن كثير دمشق،

الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

- شرح أشعار الهذليين، لأبي سعيد السكري، تحقيق: عبدالستار أحمد، مطبعة المدني، القاهرة.

- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، هبة الله اللالكائي، تحقيق: د.أحمد بن سعد بن حمدان، دار طيبة، الرياض ، الطبعة الثالثة، (١٤١٥هـ).

- شرح التلقين، للمازري تحقيق: محمد المختار السلامي، دار الغرب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٩٧م).

- شرح السنة، للبربهاري، تحقيق: د.محمد سعيد القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

- شرح السنة للبغوي، تحقيق: سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت ،(١٤١٤هـ).

- شرح صحيح مسلم، للنووي، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

- شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق د.عبدالله بن عبدالمحسن التركي وشعيب الأرنؤوط، دار هجر، أبها، الطبعة الرابعة، (١٤١٩هـ).

- شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس، تحقيق: علوي السقاف، دار الهجرة الثقبة، الطبعة الثالثة، (١٤١٥هـ).

- شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ).

- شرح القصيدة النونية، لابن القيم، محمد خليل هراس، دار الفاروق، مصر.

- شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبدالله بن محمد الغنيمان، دار لينة، دمنهور، الطبعة الثامنة، (١٤١٩هـ).

- الشريعة للأجري، تحقيق: د.عبدالله بن عمر الدميجي، دار الوطن الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).

- شعب الإيمان أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

- شعر دعبل بن علي الخزاعي، تحقيق: د. عبدالكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربي، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

- شعر طيء وأخبارها في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق: د. وفاء فهمي السنديوني، دار

العلوم، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم الجوزية، تحقيق: عمر بن سليمان الحفيان، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).
- الشيخ عبد الرزاق عفيفي، محمد بن أحمد سيد أحمد، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).

حرف الصاد

- صحيح جامع بيان العلم لابن عبدالبر، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ).
- الصحاح للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٤هـ).
- صحيح الأدب المفرد، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة الدليل، الجبيل الطبعة الثالثة (١٤١٧هـ).
- صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
- صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، (١٤٠٨هـ).
- الصراع العقائدي في الفلسفة الإسلامية، دراسات ملتقي الإمام المازري للفلسفة الإسلامية، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، المنستير، (١٩٧٥م).
- صريح السنة للطبري، تحقيق: بدر يوسف المعتوق، دار الخلفاء، الكويت الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- الصفات الإلٰهية في الكتاب والسنة في ضوء الإثبات والتنزيل، د.محمد أمان الجامي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- صفات الله الواردة في الكتاب والسنة، علوي بن عبدالقادر السقاف، دار الهجرة، الثقبة،

الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

- صفة الصفوة، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري ومحمد رواس قلعة جي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).

- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، تحقيق: د.علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، (١٤١٨هـ).

- الصفدية، لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

حرف الضاد

- ضعيف الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤١٠هـ).

ضعيف سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

- ضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

حرف الطاء

- طبقات الحفاظ، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية مصر (١٤١٧هـ).

- طبقات الشافعية، أحمد بن قاضي شهبة، تحقيق: عبد الحليم خان، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

- طبقات الشافعية الكبرى، عبدالوهاب بن علي السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار احياء الكتب العربية، القاهرة.

- طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي، تحقيق: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة (١٤١٨هـ).

- طبقات الفقهاء الشافعية، «لابن الصلاح» تحقيق: محيي الدين علي نجيب، دار البشائر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

- طبقات القراء، للذهبي تحقيق د. أحمد حسان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات

الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى ،(١٤١٨هـ).

ـ طبقات المفسرين لأحمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الحربي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).

ـ طبقات المفسرين، لمحمد الداوودي، دار الكتب العلمية، بيروت.

حرف العين

ـ عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، د.عبدالكريم نوفان عبيدان، دار أشبيليا، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤١٩هـ).

ـ العبر في خبر من غبر للذهبي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر «تاريخ ابن خلدون» لابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).

ـ عقيدة السلف وأصحاب الحديث، لإسماعيل الصابوني، تحقيق: د.ناصر بن عبدالرحمن الجديع، دار العاصمة الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

ـ العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، لأبي المعالي الجويني، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهري، القاهرة، ١٤١٢هـ.

ـ علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين، د. رضا بن نعسان معطي، دار الهجرة، الثقبة، الطبعة السادسة، ١٤١٦هـ.

ـ العلماء الذين لم يتجاوزا سن الأشد، علي بن محمد العمران، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).

ـ علماء نجد خلال ثمانية قرون، عبدالله بن عبدالرحمن البسام، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤١٩هـ).

ـ العلو للعلي الغفار، للذهبي، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٩٩٥م).

ـ علو الله على خلقه، د.موسى بن سليمان الدويش، عالم الكتب، بيروت الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

ـ عون المريد لشرح جوهرة التوحيد، عبد الكريم نتان ومحمد أديب الكيلاني، دار البشائر، دمشق، الطبعة الثانية، (١٤١٩هـ).

حرف الغين

- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

- الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق: محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، تونس.

حرف الفاء

- فتاوى المازري، تحقيق وجمع: د.الطاهر المعموري، الدار التونسية للنشر، تونس، (١٩٩٤م).

- فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، جمع وترتيب: محمد بن عبدالرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الثالثة، (١٤٠٧هـ).

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

- فتح رب البرية بتلخيص الحموية، لابن عثيمين«ضمن رسائل في العقيدة» مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

- فتح القدير محمد بن علي الشوكاني ، دار الفكر، بيروت، (١٤٠٣هـ).

- الفتوى الحموية، لابن تيمية، تحقيق: حمد بن عبد المحسن التويجري، دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).

- الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، (١٤١٣هـ).

- الفصل في الملل والنحل، لابن حزم، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، أحمد بن سعد بن حمدان، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

- الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبد الرحمن عبد الخالق، مكتبة ابن تيمية، الكويت، الطبعة الثانية.

- الفلاسفة الإسلاميون والصوفية وموقف أهل السنة منهم، د.عبد الفتاح فؤاد، دار الدعوة،

الاسكندرية، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).

- فهرس ابن عطية، لابن عطية المحاربي، تحقيق: محمد أبوالأجفان، ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

حرف القاف

- القاموس المحيط، للفيروز آبادي مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٧هـ).

- القاهرة تاريخها وآثارها، د.عبدالرحمن زكي، الدار المصرية، (١٣٨٦هـ).

- القدرية والمرجئة، د. ناصر عبدالكريم العقل، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).

- القضاء والقدر، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار الوطن، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤١٨هـ).

- قطر الولي على حديث الولي، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: د. إبراهيم هلال، دار الباز، مكة المكرمة.

- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

- القول السديد في مقاصد التوحيد، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، المجموعة الكاملة لمؤلفات السعدي، مركز ابن صالح، عنيزة، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ).

- القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي ، الدمام، الطبعة الثالثة، (١٤١٩هـ).

حرف الكاف

- الكامل في التاريخ، لابن الأثير الجزري، تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ).

- كتاب الإيمان، محمد بن إسحاق بن منده، تحقيق: د.علي بن محمد فقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).

- كتاب الإيمان من إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، تحقيق: د. الحسين محمد شواط، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

- كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤١٧هـ).

- كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: د. عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة السادسة (١٤١٨هـ).

- كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عزَّوجل وصفاته على الإتقان والتفرد، لمحمد بن إسحاق بن منده، تحقيق: د.علي بن محمد الفقيهي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية.

- كتاب السنة، عبدالله بن الإمام أحمد الشيباني، تحقيق: د.محمد بن سعيد القحطاني، دار رمادي للنشر، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ).

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبدالله الحنفي «حاجي خليفة»، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٣هـ).

- كشف القناع عن حكم الوجد والسماع، أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق: د.عبدالله محمد الطريقي، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

حرف اللام

- اللآلىء المصنوعة في الأحايث الموضوعة، للسيوطي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ.

- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: د. حمودة غرابة، المكتبة الأزهرية، القاهرة.

- لمعة الإعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، لابن قدامة المقدسي، تحقيق: بدر بن عبدالله البدر، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية، محمد بن أحمد السفاريني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤١١هـ).

حرف الميم

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، دار الريان، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.

- مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، جمع وترتيب: فهد السليمان، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

- المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، لأبي موسى المديني، تحقيق: عبد الكريم

الغرباوي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، اختصره: محمد الموصلي، مكتبة الرياض، الحديثة، الرياض.

- مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، لأبي عبدالله بدر الدين البعلي، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار التقوى، مصر، ١٤٠٩هـ.

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٣هـ).

- مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر، محمد الأمين الشنقيطي، دار القلم، بيروت.

- مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات، أحمد بن عبدالرحمن القاضي، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

- مسائل الإمام أحمد بن حنبل رواية إسحاق بن إبراهيم بن هانيء، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ، بيروت.

- مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى، تحقيق: سعود بن عبدالعزيز الخلف، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).

- المستدرك على الصحيحين، للحاكم، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

- المستصفى من علم الأصول للغزالي، تحقيق: د. محمد بن سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

- المسند، للإمام أحمد الشيباني، المكتب الإسلامي ، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٣هـ).

- مشكاة المصابيح، للخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

- المصنف، لابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم: الدمام، الطبعة الثانية،(١٤١٣هـ).

- معالم السنن شرح سنن أبي داود، حمد بن محمد الخطابي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٦هـ).

- معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، د.محمد بن خليفة التميمي، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العربال، لجنة احياء التراث، مصر، (١٣٨٣هـ).

- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، (١٩٩٥م).

- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، (١٤٠٤هـ).

- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).

- معجم المصنفات الواردة في فتح الباري، لمشهور بن حسن بن سلمان، وأبي حذيفة رائد بن صبري، دار الهجرة، الثقبة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).

- المعجم الوسيط، من اعداد مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، تركيا.

- معيد النعم ومبيد النقم، عبدالوهاب بن علي السبكي، تحقيق: محمد علي النجار وزملاؤه، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٦٧هـ).

- مفتاح دار السعادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).

- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، (١٤١١هـ).

- مقامات الحريري، للقاسم بن علي الحريري، دار صادر، بيروت، (١٣٨٥هـ).

- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: د.محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).

- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، لأبي حامد الغزالي، تحقيق: بسام الجابي، دار الجفان والجابي.

- المقفى الكبير، تقي الدين المقريزي، تحقيق: محمد البعلاوي، دار الغرب الإسلامي،

بيروت الطبعة الأولى (١٤١١هـ).

- الملل والنحل لأبي الفتح محمد الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

- من أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر، إبراهيم بن عبدالله الحازمي، دار الشريف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

- منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

- المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي، تحقيق: حلمي محمد فودة، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ)

- منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله، خالد بن عبد اللطيف بن محمد نور، مكتبة الغرباء، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

- منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة من خلال كتابه فتح الباري، لمحمد إسحاق كندو، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).

- منهج فقه الحديث عند القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم، د.الحسين بن محمد شواط، دار ابن عفان، السعودية، الخبر، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ).

- موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين خلال ستين عامًا، أحمد سعيد بن سلم، نادي المدينة المنورة الأدبي، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

- الموضوعات، لابن الجوزي، تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.

- موقف ابن تيمية من الأشاعرة، د.عبدالرحمن بن صالح المحمود، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤١٦هـ).

- موقف الإسلام من السحر، حياة سعيد عمر، دار المجتمع، جدة، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

- موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع، د.عبدالرحمن بن عامر الرحيلي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

- موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، سليمان بن صالح الغصن، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).

حرف النون

ـ النافلة في الأحاديث الضعيفة والباطلة، أبوإسحاق الحويني الأثري، دار الصحابة، مصر، (١٤٠٨هـ).

ـ النبوات، لابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، (١٣٨٦هـ).

ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، على بن سامي النجار، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة، (١٩٧٧م).

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (١٤٠٨هـ).

ـ نقض التأسيس «بيان تلبيس الجهمية»، لابن تيمية، تحقيق محمد بن عبدالرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة، مكة، الطبعة الأولى، (١٣٩٢هـ).

ـ النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير، تحقيق: د. طه زيني، دار النصر مصر، الطبعة الأولى.

ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت.

حرف الهاء

ـ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٣هـ).

حرف الواو

ـ الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل الصفدي، النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، الطبعة الثالثة، (١٤١١هـ).

ـ وسطية أهل السنة بين الفرق، د.محمد، باكريم محمد دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).

ـ وفيان الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الكتب العلمية، بيروت.

الرسائل العلمية والمجلات :

ـ تحقيق كتاب شرح التلقين للإمام المازري. من أوله إلى باب سجود السهو، زكي محمد بخاري، رسالة دكتوراه، شعبة الفقه، كلية الشريعة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١٤هـ.

- الحديث بإفريقية من القرن السادس إلى القرن الثامن، ضو مسكين، رسالة ماجستير، قسم السنة، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٧هـ.

- القرطبي ومنهجه في كتابه المفهم في حل ما أشكل من تلخيص كتاب مسلم من أوله إلى نهاية باب مضاعفة أجر الكتابي إذا آمن، رسالة دكتوراه، قسم السنة، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٥هـ.

- مجلة لواء الإسلام، العدد الثامن، ربيع الثاني، سنة ١٣٦٨هـ.

- مجلة المنهل، عدد ٤٠، سنة ٤٥، ذو القعدة وذو الحجة، سنة ١٣٩٩هـ.

- مجلة الهداية الإسلامية، رجب وشعبان، سنة ١٣٦٨هـ.

- مجلة الهداية الإسلامية، رمضان، وشوال، ذو القعدة، ذو الحجة، سنة ١٣٦٨هـ.

- مجلة الهداية الإسلامية، رجب وشعبان، سنة ١٣٦٩هـ.

٦ ـ فهرس الموضوعات

الصف التصويري والإخراج **الفرقان**
مكة المكرمة: ٩٨ شارع العزيزية العام مقابل مكتبة ابن زيدون ت: ٥٥٦٤٨٦٠